موسوعة

أخلاق القرآن

الجزء الثالث

تأليف
الدكتور أحمد الشرباصي
الأستاذ بجامعة الأزهر

الطبعـة الاولى

١٤٠١ هـ ـ ١٩٨١ م

اخلاق القرآن ج۳

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد كل الحمد لله تبارك وتعالى ، هو ولي النعمة ومصدر الرحمة :

« إِنَّ رَحْمَةَ اللهِ قَرِيبٌ من الْمُحْسِنِينَ » .

والصلاة والسلام على جميع أنبياء الله ورسله ، وعلى خاتمهم سيدنا محمد ، وعلى آله وأصحابه ، وأتباعه . وأحبابه ، ومن دعا بدعوته باحسان الى يوم الدين ، وأستفتح بالذي هو خير :

« رَبَّنا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنا ، وإِلَيْكَ أَنَبْنا ، وإِليكَ المَصِيرُ».

« وَقيلَ للَّذينَ اتَّقَوا ماذَا أَنْزَلَ رَبُّكُمْ ، قالوا خَيْراً ، للَّذينَ أَحْسَنُوا في هذهِ الدُّنيا حَسَنَةٌ ، وَلَدَارُ الآخِرَةِ خَيْرٌ . وَلَنِعْمَ دَارُ المُتَّقين ، جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلونها تَجْرِي مِنْ تَحْتِها الأَنهارُ ، لَهُمْ فيها ما يشاؤُونَ ، كَذلِكَ يَجْزي اللهُ المُتَّقِينَ ، الَّذِينَ تَتَوَفَّاهُمُ الملائِكَةُ طَيِّبِينَ ، يَقُولونَ سلامٌ عَلَيْكُم ادْخُلوا الجَنَّةَ بِما كُنْتُم تَعْمَلُون » .

سورة النحل

مقدمة المؤلف

هذا هو الجزء الثالث من كتابي « أخلاق القرآن » الذي صدر الجزء الاول منه في وسط عام ١٩٧١ م ، وصدر الجزء الثاني منه سنة ١٩٧٢ م . وما زالت النية معقودة على المسير في هذا الطريق القرآني المشرق بفضل الله وعونه .

يا رب . لك الحمد كما ينبغي لجلال وجهك وعظيم سلطانك . ما أوسع عطاءك ، وما أكثر آلاءك . أنت الذي تهب القليل توفيقك . فينمو ويتزايد حتى يصبح كثيرا ، فتباركت وتعاليت ...

لقد اتجهت الى الكتابة عن « أخلاق القرآن » منذ عهد طويل . يزيد على عشرة أعوام ، ولم يكن يدور بخلدي أني سأبلغ ما بلغت من الخطوات الموصولة على هذا الدرب المبارك ، ولقد أذكر فيما أذكر أني كتبت في مجلة « لواء الاسلام » المصرية عن هذا الموضوع الجليل ــ بصورة موجزة بعض الايجاز ــ ومن بين ما كتبته مقال بعنوان « الامانة في القرآن » في عدد ربيع الاول سنة ١٣٨٢ هـ ــ أغسطس سنة ١٩٦٣ م . وبعده مقال عن « الاخلاص في القرآن » في عدد ربيع الآخر سنة ١٣٨٢ هـ . وبعده مقال بعنوان « الوفاء في القرآن » في عدد جمادى الآخرة سنة ١٣٨٢ هـ.

وشغلتني شواغل قرآنية ودينية وفكرية حينا من الزمن ، ثم عدت

الى الموضوع الجليل « أخلاق القرآن » فأخذت أنشر في مجلة « منبر الاسلام » المصرية ، أنشر سلسلة متتابعة تحت عنوان : « من أخلاق القرآن » ، وقد بدأت هذه السلسلة بموضوع : « العفة » الذي نشر في عدد ذي القعدة سنة ١٣٨٧ هـ . يناير ١٩٦٨ م .

وخُيِّل اليّ حين أتممتُ ثلاثين فصلا أنها خاتمة مطافي في هذا المجال القرآني الكريم . فجمعتها وضمنتها الجزء الاول من هذا الكتاب ، وجعلت عنوانه « أخلاق القرآن » بعد أن حذفت لفظة « من » التي كانت في العنوان . ولكن الله جل جلاله أراد لي أن أفهم أن القرآن كنز قد نعرف بدايته . ولكنا لا نستطيع ان نبلغ غايته . اذ تبين لي أن هناك مزيدا من أخلاق القرآن ، فواصلت البحث حتى كتبت عن نحو عشرين خلقا أخرى من أخلاق القرآن ، ظهرت مجتمعة في الجزء الثاني من هذا الكتاب . وعندها ظننت مرة أخرى أن المطاف سينتهي عند هذا الحد .

ولكن فضل الله الذي لا يحد ولا يعد . أراني أن الكنز ما زال مليئا ، وما زال واسع الرحاب ممدود الاسباب . فعدت مرة أخرى أواصل الكتابة عن أخلاق القرآن ، حتى تجمعت هذه المجموعة التي يحملها هذا الجزء الثالث من كتابي : « أخلاق القرآن » .

ومن يدري ... ان النية ما زالت معقودة على المزيد من الخطوات ، وان الظن ما زال جميلا حميدا بفضل الله العظيم .

لقد ذكرتُ هذا هنا ليستبين للانسان أن موالاة الخطوات مع صدق النية تجعل القليل بفضل الله وحده كثيرا ، وليستبين للقارىء جزء من قصة هذا الكتاب الذي أرجو أن يجعله الله سبحانه خالصا لوجهه ، وسببا من أسباب عفوه ورضوانه .



ولا شك أن موضوع « أخلاق القرآن » موضوع خطير كبير ، يستحق هذه العناية وأضعافها . لأن القرآن المجيد كتاب الله عز وجل ، ودستور الاسلام الاول ، وينبوع الرشاد والارشاد ، ورائد الخير في الدنيا والآخرة ، والاخلاق الكريمة الفاضلة هي لب ما يدعو اليه هذا القرآن العظيم ، لأن الانسان بلا أخلاق يعد من الاموات ، والاخلاق الفاضلة هي التي تعطي الانسان معنى الحياة الصحيحة ، ولذلك نرى الامام ابن القيم في « مدارج السالكين » يتحدث عن قول الله تبارك وتعالى في سورة الأنعام :

« أَوَمَنْ كانَ مَيْتاً فَأَحْيَيْنَاهُ ، وَجَعَلْنَا لَهُ نُوراً يَمْشِي بِهِ فِي الناسِ كَمَنْ مَثَلُهُ فِي الظُّلُماتِ لَيسَ بِخارِجٍ مِنْها ، كَذَلِكَ زُيِّنَ لِلْكَافِرِينَ ما كانُوا يَعْمَلُونَ » .

ويبيّن المراد منها بقوله :

« من كان ميت القلب ، بعدم روح العلم والهدى والايمان ، فأحياه الرب تعالى بروح أخرى ، غير الروح التي أحيا بها بدنه ، وهي روح معرفته وتوحيده ، ومحبته وعبادته وحده لا شريك له ، اذ لا حياة للروح الا بذلك ، والا فهي في جملة الأموات . ولهذا وصف الله تعالى من عدم ذلك بالموت ، فقال : « أومن كان ميتا فأحييناه » .

وقال تعالى :

« إِنَّكَ لا تُسْمِعُ الْمَوْتَى ، وَلا تُسْمِعُ الصُّمَّ الدُّعَاءَ » .

وسمى وحيه روحا ، لما يحصل به من حياة القلوب والارواح فقال تعالى :

« وكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِليكَ رُوحاً مِن أَمْرِنا ، ما كُنْتَ تَدْرِي

ما الكِتابُ ولا الإيمانُ ، وَلكِنْ جَعَلْنَاهُ نُوراً نَهْدِي بهِ مَنْ نشَاءُ مِنْ عِبادِنا » .

فأخبر أنه روح تحصل به الحياة ، وانه نور تحصل به الاضاءة .

وقال تعالى :

« يُنَزِّلُ الملائِكَةَ بِالرُّوحِ مِنْ أمْرِهِ عَلى مَنْ يَشاءُ مِن عبادِهِ أَنْ أَنْذِروا أَنَّهُ لا إلٰهَ إلا أَنَا فاتَّقُون » .

وقال تعالى :

« رَفِيعُ الدَّرَجاتِ ذو العَرْشِ ، يُلْقِي الرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِ عَلى مَنْ يَشاءُ مِنْ عِبادِهِ ، لِيُنْذِرَ يَوْمَ التَّلاق » .

فالوحي حياة الروح ، كما أن الروح حياة البدن ، ولهذا من فقد هذه الروح ، فقد فقد الحياة النافعة في الدنيا والآخرة ، أما في الدنيا فحياته حياة البهائم ، وله المعيشة الضنك ، وأما في الآخرة ، فله جهنم لا يموت فيها ولا يحيا .

ويعود الامام فيتحدث عن مراتب الحياة . فيذكر حياة الارض بالنبات ، وحياة النمو والاغتذاء ، وحياة الحيوان بالاحساس والحركة ، وحياة الملائكة والأرواح ، وحياة العلم من موت الجهل ، وحياة الارادة والهمة ، ثم يصل الى مرتبة عليا هي « حياة الأخلاق » ويقول عنها :

« المرتبة السابعة من مراتب الحياة حياة الاخلاق والصفات المحمودة، التي هي حياة راسخة للموصوف بها ، فهو لا يتكلف الترقي في درجات

الكمال ، ولا يشق عليه لاقتضاء اخلاقه وصفاته لذلك ، بحيث لو فارقه ذلك لفارق ما هو من طبيعته وسجيته ، فحياة مَن قد طبع على الحياء والعفة ، والجود والسخاء ، والصدق والوفاء ، ونحوها ، أتمّ من حياة من يقهر نفسه ، ويغالب طبعه ، حتى يكون كذلك ، فان هذا بمنزلة من تعارضه أسباب الداء وهو يعالجها ويقهرها بأضدادها . وذلك بمنزلة من قد عوفي من ذلك .

وكلما كانت هذه الاخلاق في صاحبها أكمل كانت حياته أقوى وأتم ، ولهذا كان خلق « الحياء » مشتقا من « الحياة » اسما وحقيقة ، فأكمل الناس حياة أكملهم حياء ، ونقصان حياء المرء نقصان من حياته ، فان الروح اذا ماتت لم تحس بما يؤلمها من القبائح ، فلا تستحيي منها ، فاذا كانت صحيحة الحياة أحست بذلك فاستحيت منه ، وكذلك سائر الاخلاق الفاضلة والصفات الممدوحه تابعة لقوة الحياة ، وضدها من نقصان الحياة.

ولهذا كانت حياة الشجاع أكمل من حياة الجبان ، وحياة السخي أكمل من حياة البخيل ، وحياة الفطن أكمل من حياة الفَدم البليد . ولهذا لما كان الانبياء ــ صلوات الله وسلامه عليهم ــ أكمل الناس حياة ، حتى ان قوة حياتهم تمنع الارض أن تبلي أجسامهم ، كانوا أكمل الناس في هذه الاخلاق . ثم الامثل فالامثل من أتباعهم » .

الأخلاق ــ اذن ــ هي الروح ، وهي الحياة ، والانسان لا يكون انسانا فاضلا كاملا الا بمكارم الاخلاق . وأخلاق القرآن هي أخلاق الانسانية العليا والحياة المثلى ، فلا عجب اذا استحوذت على الالباب . وامتدت في الحديث عنها الاسباب .

فيا رب الارباب ، يا مصدر التوفيق ، ويا خير رفيق . لقد شاءت ارادتك . أن تتسع رحمتك ، فتندفع بهذا القلم الى الاشتغال بالقرآن .

والعكوف على أخلاق القرآن ... اللهم فلا تحرمه عطاءك ، ولا تقطع عنه آلاءك ، واجعل ما قدّم وما يقدم بابا من أبواب مغفرتك ومرضاتك ، انك أنت السميع المجيب .

أبو حازم
أحمد الشرباصي

تبين الامور

« تبين الأمور ». فيه معنى التبصر والاستيضاح ، والتأكد من الأمر قبل الحكم له أو عليه . ولذلك تقول اللغة : بان الشيء يبين بيانا فهو مبين : أي اتضح يتضح اتضاحا فهو واضح ، والبيّنة هي العلامة التي توضح الشيء ، سواء أكان حسيا أم عقليا ، وبيّنت الشيء : أوضحته وأظهرته . وتبين الانسان الشيء : تأمله حتى ظهر له واتضح . وتبين القوم الأمر : تدبروه على مهل غير متعجلين ، ليظهر لهم جليا .

ومعنى تبين الامور قريب من التبصر والاستبصار ، لان البصر يطلق أحيانا على العلم القوي المضاهي لادراك الرؤية . والقرآن الكريم يقول مثلا :

« فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِ ، وَمَنْ عَمِيَ فَعَلَيْهَا »[1] .

وهذا مجاز عن ادراك الحق ، وكذلك العمى مجاز عن الغفلة عن الحق . والبصيرة هي البيان والحجة الواضحة ، والمستبصر هو الذي يسكنه التمييز بين الحق والباطل ، بالاستدلال والنظر .

---

(١) سورة الانعام ، الآية ١٠٤ .

هكذا تتحدث اللغة. وتبين الامور في المجال الاخلاقي القرآني فضيلة من الفضائل التي دعا اليها القرآن ، وهدى لها الاسلام ، لانها تؤدي الى السير على بصيرة ، والسلوك باستقامة ، والتصرف بحكمة ، والحكم على الامور بقسط ، وتصون من التهور والاندفاع ، وشأن المؤمن أنه كيِّس فطن ، وأنه لا يلدغ من جحر مرتين ، وأنه يقدر لرجله قبل الخطو موضعها، كما عبّر القائل الحكيم .

ولقد طالب القرآن الكريم بالتبين في الأمور حين قال في سورة النساء :

« يا أَيُّها الَّذِينَ آمَنُوا إذا ضَرَبْتُمْ في سبيلِ اللهِ فَتَبَيَّنُوا ، وَلا تَقُولُوا لِمَنْ أَلْقَى إِلَيْكُمُ السَّلامَ لَسْتَ مُؤمِناً ، تَبْتَغُونَ عَرَضَ الحياةِ الدُّنْيا فَعِنْدَ اللهِ مَغانِمُ كَثِيرَةٌ ، كَذَلِكَ كُنْتُمْ مِنْ قَبْلُ فَمَنَّ اللهُ عَلَيْكُمْ فَتَبَيَّنُوا . إِنَّ اللهَ كانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيراً » [1] .

رُوي في سبب نزول هذه الآية الكريمة أن رجلا من بني سليم مرّ بنفر من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم . وهو يسوق غنما له فسلم عليهم ، فقالوا ظنا منهم انه مشرك : ما سلم علينا الا ليتعوذ منا ، فعمدوا اليه فقتلوه ، وأتوا بغنمه رسول الله عليه الصلاة والسلام ، فنزلت الآية تعيب عليهم ما فعلوه وتنهاهم عنه .

وروي أن النبي صلوات الله وسلامه عليه بعث سرية فيها المقداد ، فلما أتوا القوم الاعداء ، وجدوهم قد تفرقوا . وبقي منهم رجل له مال كثير . فقال : أشهد أن لا اله الا الله . فحسبوا ذلك خداعا . فقتله المقداد،

---

(١) سورة النساء ، الآية ٩٤ .

ولما علم النبي بذلك استنكره وقال للمقداد : كيف لك بلا اله الا اللـه غدا ؟. وأنزل الله الآية .

وخلاصة معنى هذه الآية : يا أيهـا المؤمنون الذين صدقتم وآمنتم بربكم وبما جاءكم من عنده ، اذا سرتم مسيرا لله في جهاد اعدائكم . فلا تتعجلوا ، بل تريثوا وتأنوا في قتل من أشكل عليكم أمره ، أو اشتبه عليكم حاله ، فلم تعلموا حقيقة اسلامه ولا كفره ، ولا تبادروا فتعتدوا عـلى من التبس عليكم أمره ، ولا تقدموا على قتل أحد الا اذا ثبت لكم انه محارب لله ولرسوله ، ولا تقولوا لمن استسلم لكم ولم يقاتلكم ، مظهرا لكم أنـه من ملتكم ، لا تقولوا له مكذبين اياه : « لست مؤمنا » فتقتلوه طلبا لمتاع الدنيا الزائل الذي يتمثل في الغنائم . والله سبحانه لم يشرع لكم القتال للحصول على هذا المتاع ، بل شرعه للدفاع ورد العدوان واعلاء كلمة الحق والعدل . وربما يكون بعض الناس من حولكم مسلما مستخفيا بدينه من المشركين ، فتقتلونه خطأ .

وكذلك كنتم من قبل تستخفون بدينكم ، فمن الله عليكم بالهجرة والقوة ، وبذلك أظهرتم الاسلام ، فاحرصوا على التبين والتثبت والتأكـد قبل التصرف ، ولا تأخذوا بالظن أو التهمة ، والله جل جلاله عليم بكـل ما تفعلون .

ولنلاحظ هنا أن القرآن الكريم قد كرر كلمة « فتبينوا » هنا مرتين في آية واحدة ، وهذا لتقوية الحث على فضيلة التبين في الامور .

* * *

ويعود القرآن المجيد ليقول في سورة الحجرات :

« يَا أَيُّها الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ جَاءَكُمْ فاسِقٌ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوا

أَنْ تُصِيبُوا قَوْماً بِجَهَالَةٍ فَتُصْبِحُوا على مَا فَعَلْتُمْ نادِمينَ »[1] .

أبان الحارث بن أبي ضرار الخزاعي عن سبب نزول هذه الآية فقال : قدمت على رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، فدعاني الى الاسلام ، فدخلت فيه وأقررت به ، ودعاني الى الزكاة فأقررت بها وقلت : يا رسول الله ، ارجع الى قومي ، فأدعوهم الى الاسلام وأداء الزكاة ، فمن استجاب لي جمعت زكاته ، وترسل اليّ يا رسول الله رسولا لابّان كذا وكذا ، ليأتيك بما جمعت من الزكاة .

ورضي الرسول ذلك ، وعاد الحارث الى قومه ، وانتظر حتى أقبل الموعد . فجمع الزكاة انتظارا لمبعوث النبي ، ولكن المبعوث لم يحضر في موعده ، فقلق الحارث ، وخشي أن يكون الله تعالى قد غضب عليه ، أو غضب عليه رسوله صلى الله عليه وسلم ، فشاور قومه في ذلك ، وأجمعوا على ان يتجهوا الى الرسول ليتبينوا حقيقة الأمر .

ومن جهة أخرى كان الرسول عليه الصلاة والسلام قد بعث « الوليد ابن عقبة بن أبي معيط » ليحضر الزكاة من الحارث وقومه ، ولكن الوليد أدركته خيفة في وسط الطريق ، فعاد الى الرسول ، وأخبره ان الحارث منعه الزكاة وهم بقتله .

وغضب الرسول لذلك وهم بأن يسير الى الحارث وقومه لتأديبهم ، ولكن الحارث أقبل مع قومه بعد قليل ، فأخبره المسلمون قبل أن يبلغ مكان الرسول أن الرسول قد بعث اليه الوليد لأخذ الزكاة ، ثم زعم أنك قد منعته الزكاة وأردت قتله . فقال الحارث : لا والذي بعث محمدا بالحق ما رأيته بتة ، ولا أتاني .

---

(١) سورة الحجرات ، الآية ٦ .

ودخل الحارث على الرسول فقال له الرسول : منعت الزكاة ، وأردت قتل رسولي ؟.

قال الحارث : لا والذي بعثك بالحق ما رأيته ولا رآني ، ولا أقبلت الا حين احتبس عليّ رسول رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، خشية أن تكون سخطة من الله تعالى ورسوله صلى الله تعالى عليه وسلم .

فنزل قول الله تعالى :

« يَا أَيُّها الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَأٍ فَتَبَيَّنُوا أَنْ تُصِيبُوا قَوْماً بِجَهَالَةٍ فَتُصْبِحُوا عَلى مَا فَعَلْتُمْ نادِمِينَ ، واعْلَمُوا أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ اللهِ لوْ يُطِيعُكُمْ في كَثِيرٍ مِنَ الأَمْرِ لَعَنِتُّمْ ، وَلكِنَّ اللهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الإِيمانَ وَزَيَّنَهُ في قُلوبِكُمْ ، وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ الكُفْرَ والفُسُوق والعِصْيَانَ ، أَولئِكَ هُمُ الرَّاشِدونَ ، فَضْلاً مِن اللهِ ونِعْمَةً ، واللهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ » (1) .

ومعنى الآية الاولى : يا من تحليتم بالايمان وطاعة الله وطاعة رسوله، ان جاءكم شخص أخل بحق الشرع بخبر يتضمن شيئا مهما، فتوقفوا فيه، ولا تسلموا له على الفور . بل تأكدوا وتثبتوا لتعرفوا الحقيقة والواقع ، لئلا تصيبوا قوما من الناس الابرياء . وأنتم تجهلون حقيقة الامر ، فتصيروا بعد ظهور براءتهم نادمين على ما ارتكبتم في حقهم . مغتمين غما يلازمكم ،

---

(1) سورة الحجرات . الآيتان ٦ و٧ .

وتتمنوا أن ذلك لم يقع منكم ؛ لان الندم هو الغم على وقوع شيء مع تمني عدم وقوعه .



واذا نظرنا في القرآن المجيد متدبرين رأينا أنه يجعل البيان والتبيين والتبين وما تفرع من ذلك من مشتقات سمة من سمات هدى الله ودعوته. فهو يقول في سورة البقرة :

« قَدْ بَيَّنَّا الآياتِ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ »[1] .

ويقول فيها :

« وَتِلْكَ حُدودُ اللهِ يُبَيِّنُها لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ »[2] .

ويقول في سورة الحديد :

« قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الآياتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلونَ »[3] .

وكأن هناك ارتباطا بين التبين واليقين والعلم والعقل .

وكذلك نرى أن الحديث عن تبيين الآيات يأتي في كثير من المواطن في القرآن ، ويعقب القرآن على ذلك بمثل هذه الكلمات : « لعلهم يتقون ــ لعلهم يتذكرون ــ لعلكم تعقلون ــ لعلكم تتفكرون ــ لعلكم تهتدون ــ لعلكم تشكرون » . وكأن تبيان الله تعالى للآيات ينبغي أن يعقبه تبين من الانسان يهديه سواء السبيل ، ويثمره فيه هذه الفضائل العظيمة التي

(١) سورة البقرة ، الآية ١١٨ .
(٢) سورة البقرة ، الآية ٢٣٠ .
(٣) سورة الحديد ، الآية ١٧ .

أشارت اليها الكلمات المضيئة السابقة .

وكذلك نرى أن الابانة المؤدية الى التبين تأتي في مواطن الثناء والحمد من القرآن الكريم ، فالله هو الحق المبين ، واللوح المحفوظ كتاب مبين . والرسول نذير مبين ، وبلاغ الرسول هو البلاغ المبين . والقرآن كتاب مبين . ولسان القرآن عربي مبين . وفضل الله فضل مبين . ورحمة الله هي الفوز المبين ، وفتح الله فتح مبين ... الخ .

والقرآن يشير الى أن التبين فيه المعنى المؤدي الى الايمان والاطمئنان. كما نرى في قوله تعالى في سورة البقرة :

« أَوْ كَالَّذي مَرَّ عَلى قَرْيَةٍ وهِيَ خاوِيَةٌ عَلى عُرُوشِها . قالَ أَنَّى يُحْيي هَذِهِ اللهُ بَعْدَ مَوْتِها ؟ فأَماتَهُ اللهُ مائَةَ عامٍ ثُمَّ بَعَثَهُ . قالَ كَمْ لَبِثْتَ ؟ قالَ لَبِثْتُ يَوْماً أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ ، قالَ بَلْ لَبِثْتَ مائَةَ عامٍ ، فانْظُرْ إلى طَعامِكَ وَشرابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ ، وانْظُرْ إلى حِمارِكَ ، وَلِنَجْعَلَكَ آيةً للنّاسِ . وانْظُرْ إلى العِظامِ كَيْفَ نُنْشِزُها ثُمَّ نَكْسُوها لحماً ، فَلَمَّا تَبَيَّنَ لهُ قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ اللهَ عَلى كُلِّ شَيءٍ قَديرٌ »[1] .

* * *

واذا كان القرآن الكريم يدعو الى فضيلة التبين للامور ، حتى لا

(١) سورة البقرة ، الآية ٢٥٩ .

نندفع ولا تتهور ، ولا نتصرف تصرفا نندم عليه بعد أن يسبق السيف العذل ، فانه أيضا يدعو الى الانتفاع بالبينات ومظاهر التبيين . لكي نحسن التمييز بين الحق والباطل ، وبين الخير والشر . وبين الضلال والهدى . ولذلك ينعي أشد النعي على أولئك الذين لا يتبينون أو لا ينتفعون بثمرة التبين بعد أن تجلى لهم التبيان ، ولذلك يقول في سورة النساء :

« وَمَنْ يُشاقِقِ الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ ما تَبَيَّنَ لَهُ الهُدَى ويَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ المؤمِنينَ نُوَلِّهِ ما تَوَلَّى ونُصْلِهِ جَهَنَّمَ وَساءَتْ مَصِيراً » [1] .

ويقول في سورة محمد :

« إنَّ الذينَ ارْتَدُّوا على أَدْبارِهِمْ مِنْ بعدِ ما تَبَيَّنَ لَهُمُ الهُدَى الشَّيْطانُ سَوَّلَ لَهُمْ وأَمْلَى لَهُمْ » [2] .

ويقول في السورة ذاتها :

« إنَّ الَّذينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَن سَبيلِ اللهِ وشَاقُّوا الرَّسُولَ مِن بعدِ ما تَبَيَّنَ لهُمُ الهُدَى لَنْ يَضُرُّوا اللهَ شيئاً وسَيُحْبِطُ أَعْمالَهُمْ » [3] ...

وقد وصف القرآن رسول الله بأنه « البيِّنة » فقال :

---

(١) سورة النساء ، الآية ١١٥ .
(٢) سورة محمد ، الآية ٢٥ .
(٣) سورة محمد ، الآية ٣٢ .

« لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الكِتابِ وَالْمُشْرِكِينَ مُنْفَكِّينَ حَتَّى تَأْتِيَهُمُ البَيِّنَةُ . رَسُولٌ مِنَ اللهِ يَتْلُو صُحُفاً مُطَهَّرَةً . فِيها كُتُبٌ قَيِّمَةٌ . وَما تَفَرَّقَ الَّذِينَ أُوتُوا الكِتابَ إِلَّا مِنْ بَعْدِ ما جَاءَتْهُمُ البَيِّنَةُ »[٤] .

أي لم يكن هؤلاء هالكين بارحين الدنيا حتى يأتيهم رسول الله محمد صلى الله عليه وسلم . كما أخبر الله عز وجل . وذلك لاقامة الحجة عليهم بارسال الرسول وانزال القرآن . وقوله :

« وَمَا تَفَرَّقَ الذِينَ أُوتُوا الكِتَابَ إلا مِنْ بعدِ ما جَاءَتْهُمُ البَيِّنَةُ » .

معناه : آتتهم البينة الواضحة الشارحة ، والمراد رسول الله محمد عليه الصلاة والسلام أي جاء القرآن موضحا وموافقا لما في أيديهم من الكتاب بصفته ونعته . فقد كانوا ينتظرون رسولا ، فلما جاءهم كفروا به وجحدوا رسالته وتفرقوا . فمنهم من كفر بغيا وحسدا ، ومنهم من آمن .

والقرآن حين يدعو الى التبين والتثبت انما يريد ذلك لكي يكون المتبين على بصيرة من أمره ، وعلى وضوح من طريقه ، وليس معنى هذا أن يصير التبين لجاجا وعنادا ، أو تعنتا ومكابرة ، لأن القرآن يكره للانسان ذلك . ولذلك قص علينا ما كان من أمر اليهود حين أمرهم الله في مناسبة من المناسبات أن يذبحوا بقرة ، ولو أنهم تناولوا أي بقرة وذبحوها لكفتهم ، ولكنهم تعنتوا ، فأخذوا يسألون عن صفتها وعن لونها وعن عمرها . وكلما تعنتوا شددوا على أنفسهم وضيقوا أمامهم المجال ، وكأن القرآن يريد أن نعتبر بهذا الدرس ، فهو يقول :

---

(٤) سورة البينة . الآيات ١ ــ ٤

« وإذْ قالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ إنَّ اللهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَذْبَحُوا بَقَرَةً قَالُوا أَتَتَّخِذُنا هُزُواً ؟ قالَ أَعُوذُ باللهِ أَنْ أَكُونَ مِن الجاهِلِينَ ، قَالُوا ادْعُ لَنا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنا ما هِيَ ، قالَ إنَّهُ يَقُولُ إنَّها بَقَرةٌ لا فارِضٌ ولا بِكْرٌ عَوَانٌ بَيْنَ ذلكَ فافْعَلُوا ما تُؤْمَرُونَ ، قَالُوا ادْعُ لَنا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنا ما لَوْنُها ، قالَ إنَّهُ يقولُ إنَّها بَقَرَةٌ صَفْرَاءُ فاقعٌ لَوْنُها تَسُرُّ النَّاظِرِينَ ، قالُوا ادْعُ لَنا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنا ما هِيَ إنَّ البَقَرَ تَشابَهَ عَلَيْنَا وَإنَّا إن شاءَ اللهُ لَمُهْتَدُونَ ، قالَ إنهُ يَقُولُ إنَّها بَقَرَةٌ لا ذَلُولٌ تُثِيرُ الأَرْضَ ولا تَسْقِي الحَرْثَ مُسَلَّمَةٌ لا شِيَةَ فِيها ، قالُوا الآن جِئْتَ بِالْحَقِّ فَذَبَحُوها وما كادُوا يَفْعَلُونَ »[1] .



* * *

وننتقل الى روضة السنة المطهرة ، لنجد سيدنا رسول الله صلوات الله وسلامه عليه يدعو أيضا الى تبين الامور والتثبت فيها ، فيقول : « التثبت من الله تعالى والعجلة من الشيطان » ، وفي رواية أخرى : « ألا ان التبين من الله تعالى ، والعجلة من الشيطان ، فتبينوا » . وفي رواية ثالثة : « الأناة من الله ، والعجلة من الشيطان » . ويقول صلى الله عليه

(١) سورة البقرة ، الآيات ٦٧ ـ ٧١ .

وسلم : « التؤدة في كل شيء خير ، الا في عمل الآخرة » . والتؤدة هي التـأني .

ولقد جعل الرسول عليه الصلاة والسلام التبين في الحقوق والقضاء والفصل بين الناس أساسا من أسس الاسلام فقرر أن « البينة على من ادعى ، واليمين على من أنكر » ، ومع أنه صلوات الله وسلامه عليه قد جعل « الغيرة » فضيلة من فضائل الاسلام ، نهى عن غيرة الرجل على امرأته دون شبهة أو بينة .

ويروى أن آدم عليه السلام قال لأولاده عند موته : « كل عمل تريدون أن تعملوه فتوقفوا فيه ساعة ، فاني لو توقفت لم يصبني ما أصابني » .

وقال الامام علي للاشتر النخعي يوصيه : « ولا تعجلن الى تصديق ساع ، فان الساعي غاش وان تشبه بالصالحين » . وكذلك قال الامام : « من أسرع الى الناس بما يكرهون قالوا فيه ما لا يعلمون » .

وقال عبادة بن الصامت ان النبي صلى الله عليه وسلم قال : « اذا أردت أمرا فتدبر عاقبته، فان كان رشدا فأمضه وان كان غيا فانته عنه»[1].

ويروى عن لقمان أنه قال : «ان المؤمن اذا أبصر العاقبة أمن الندامة».

ولقد جاء في كتاب « خامس الراشدين عمر بن عبد العزيز أنه كان يقول لقاضيه : « اذا جاءك أحد الخصمين وقد فقئت عينه فلا تحكم له حتى يحضر الخصم الآخر ، فلعله قد فقئت عيناه معا » !.

والمشاهد ان عدم التبين للامور يؤدي الى كثير من الاضرار والاشرار: يسمع الانسان الخبر مثلا ، فيسارع بتصديقه ، ويبني على ذلك ما يبني من

---

(١) الاحياء للغزالي ، ج ١٥ ص ٢٧٥٣ .

تصرفات وأعمال ، ثم يظهر أن الخبر كان كاذبا أو محرفا أو مبالغا فيه ، أو مرادا به غير ما فهمه الانسان ، فيكون هناك ندم وأسف ، وقد كان اللائق بالعاقل أن يتبين ويتثبت ، ويتأكد ويراجع ، حتى لا يؤخذ على غرة ، ولا ينكب بخديعة .

ويقرأ الانسان نبأ في صحيفة أو مجلة ، فيسارع بتصديقه ، ويعادي أو يصادق على أساس أنه حق واقع ، مع أنه قد يكون مكذوبا أو مفترى ، ومن هنا يكتوي المتسرع بلهب الندم والحسرة والغم بسبب تسرعه وعدم تثبتــه .

ويصاب الانسان بأذى من هنا أو هناك ، دون أن يعرف مصدر هذا الأذى ، فاذا هو يتعجل ويسارع فيتهم هذا ، أو يسب ذاك ، أو يتهجــم على ذلك ، ولو أنه تأنى وتريث ، لادرك مصدر الأذى على حقيقته ، وحينئذ يحسن التصرف على أساسه ، فلا يفقد أصدقاء له ، ولا يضيف الى أعدائه جديدا منهم .

ومن باب التسرع المذموم أن يتعجل الانسان بالمدح دون درايــة ، أو الذم دون موجب ، أو يتعجل بالكلام قبل أن يديره على عقله ، أو يتعجل بتصرف ما قبل ان يتدبره ، ومن وراء ذلك يكون الغم والاسف .

ألا ما أكثر البلايا التي تلاحق الناس من وراء تسرعهم واندفاعهم ، وقلة تبينهم للامور وتثبتهم من الوقائع وتأكدهم من الاخبار ، مــع انهم يسمعون كل حين قول الحكيم : «في التأني السلامة وفي العجلة الندامة» .

ولقد تناثرت الكلمات الحكيمة الداعية الى تبين الامور خلال كتــب الادب والحكمة ، وكلها تذكير بهذه الفضيلة الاخلاقية القرآنية الحميدة . فهذا بعض الحكماء يقول : « اذا أردت أن يكون العقل غالبا للهوى ، فلا تعمل بقضاء الشهوة حتى تنظر العاقبة ، فان مكث الندامة في القلب أكثر

من مكث خفة الشهوة » .

وأوصى اعرابي أولاده فقال لهم : « اياكم والعجلة فان أبي كان يكنّيها أم الندم » . ومن أمثال العرب قولهم : « رب عجلة تهب ريثا ». وقولهم : « وقد يكون مع المستعجل الزلل » . وقولهم : « أخطأ مستعجل أو كاد ، وأصاب متثبت أو كاد ». وقولهم : «من ورد عجلا صدر خجلا». وقال ذو الرياستين : « ان أسرع النار التهابا أسرعها خمودا . فتأن في أمرك » .

ويقول الشاعر ابن هانىء المغربي :

وكل أناة في المواطن سؤدد ولا كأناة من قدير محكّم
ومن يتبين أن للصفح موضعا من السيف يصفح عن كثير ويحلم
وما الرأي الا بعد طول تثبت ولا الحزم الا بعد طول تلوم[1]

وقال الشاعر يمدح عاقلا حكيما :

بصير بأعقاب الامور كأنما تخاطبه في كل أمر عواقبه

ما أجدر المؤمن المهتدي بهدي القرآن أن يجعل أمام بصره وبصيرته قول ربه : « فتبينوا » حتى يحذر الاعتساف ، ويألف الانصاف ، وعلى الله قصد السبيل .

---

(١) التلوم : الانتظار والتأني في الامر .

خفض الجنــاح

تقول لغة العرب : خفض فلان الشيء يخفضه خفضـا هبط بـه ، والخفض نقيض الرفع ، والتخفيض : التسكين وتهوين الأمر ، فهو تفعيل من الخفض بمعنى الدعة والسكون ، ومنه قول أبي بكر لعائشة رضي الله عنهما : « خفِّضي عليك » أي هوّني الأمر عليك ولا تحزني له .

والجناح يطلق في حقيقته على ما يخفق به الطائر عند الطيران ، وقد يطلق الجنـاح عـلى يد الانسان ، أو عضـده ، أو جانبـه ، كما يطلق الجناح على الناحية . وخفض فلان جناحه لفلان ، أي ألان له جانبه وتواضع معه وترفق في معاملته . وكأن الانسان يهبط بنفسه كما يفعل الطائر عند هبوطه ، وذلك ليرفع الانسان غيره في المعاملة . فكأن خفض الجناح كناية عن اللين والرفق ، ومن هنا يأتي المعنى الاخلاقي لهذا التعبـير : « خفض الجنـاح » .

ولذلك يتعرض جارالله الزمخشري لبيان المعنى في قوله تعـالى في سورة الشعراء :

« وَاخْفِضْ جَناحَكَ لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ المؤْمِنِينَ » [1] .

---

(١) سورة الشعراء ، الآية ٢١٥ .

فيقول : ان الطائر اذا أراد أن يهبط من أعلى الى أدنى كسر جناحه وخفضه . واذا أراد أن ينهض للطيران رفع جناحه ونشره ، فجعل القرآن الكريم خفض جناحه عند النزول أو الهبوط مثلا في التواضع ولين الجانب. ومنه قول بعضهم مادحا :

وأنت الشهير بخفض الجناح   فلا تك في رفعه أجدلا

وهو ينهى ممدوحه هنا عن التكبر بعد التواضع . والاجدل الصقر.

وهذا المعنى الاخلاقي لخفض الجناح يذكّرنا بقول الحديث : «ان الملائكة لتضع أجنحتها لطالب العلم رضى بما يصنع» . أي تتواضع معه تعظيما لحقه ، أو تضعها وطاء له اذا مشى . وهذا كناية عن التوقير والتكريم .

ولقد ذكر القرآن المجيد فضيلة «خفض الجناح» في ثلاثة مواطن : الاول في سورة الحجر حيث يقول :

« لا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إلى ما مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجاً مِنْهُمْ . وَلا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ . واخْفِضْ جَناحَكَ لِلْمُؤْمنينَ »[1] .

والموطن الثاني في سورة الاسراء حيث يقول :

« وقَضَى رَبُّكَ أَلاَّ تَعْبُدُوا إلا إيَّاهُ . وبِالْوَالِدَيْنِ إحْساناً إما يَبْلُغَنَّ عِنْدَكَ الكِبَرَ أَحَدُهُما أَوْ كِلاَهُما فَلا تَقُلْ لَهُما أُفٍّ ولا تَنْهَرْهُما وقُلْ لَهُما قولاً كَرِيماً . واخْفِضْ لَهُما

(١) سورة الحجر . الآية ٨٨ .

جَناحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمةِ وقُلْ رَبِّ ارْحَمْهما كما ربّياني صَغِيراً » [1] .

والموطن الثالث في سورة الشعراء . حيث يقول :

« وأَنْذِرْ عَشِيرَتكَ الأَقرَبِينَ . واخْفِضْ جناحَكَ لِمَنِ اتَّبعك مِن الْمُؤمِنِينَ ، فإنْ عَصَوْكَ فَقُل إني بَريءٌ مِمّا تَعْملُونَ » [2] .

ونلاحظ باديء ذي بدء ان الخطاب في موطنين من هذه المواطن الثلاثة يتجه الى سيدنا رسول الله عليه الصلاة والسلام . وجاء الخطاب في الموطنين بأسلوب الأمر والطلب. وفي هذا ما فيه من اشارة الى علو مكانة هذه الفضيلة الاخلاقية القرآنية ، ومن تشريف لها عن طريقة مطالبة الرسول بها أكثر من مرة ليكون خير قدوة للناس في الاستمساك بهذا الخلق الكريم.

كما نلاحظ أن المواطن الثلاثة كلها قد جاء فيها الحديث القرآني عن خفض الجناح بصيغة الأمر والطلب . وذلك دليل على مدى العناية التي يعطيها كتاب الله تبارك وتعالى لهذه الفضيلة .

وقوله في سورة الحجر :

« وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنينَ » .

معناه : ألن لهم جانبك . ليتحقق أمامهم فيك قول ربك :

---

(١) سورة الاسراء ، الآيتان ٢٣ و٢٤ .

(٢) سورة الشعراء ، الآيات ٢١٤ ــ ٢١٦ .

« وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ » .

وقوله :

« لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ ما عنتم حَرِيصٌ عَلَيكُمْ بالمؤمنينَ رَؤُوفٌ رَحِيمٌ » (١) .

وقوله :

« فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللهِ لِنْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظّاً غَلِيظَ القَلْبِ لانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ » (٢) .

ويقول الزمخشري في تفسير الآية : وتواضع لمن معك من فقراء المسلمين وضعفائهم ، وطب نفسا عن ايمان الاغنياء والاقوياء . وانما ذكر الزمخشري الفقراء والضعفاء هنا لأن الآية بأكملها تقول : « ولا تمدن عينيك الى ما متعنا به أزواجا (أي أصنافا) منهم ، ولا تحزن عليهم . واخفض جناحك للمؤمنين » فلما نهاه عن التطلع الى ما في أيدي الاغنياء من متع الحياة وزينتها ، والحزن عليهم لكفرهم أو تجبرهم ، طالبه بلين المعاملة مع المؤمنين العابدين حتى ولو كانوا فقراء أو ضعفاء .

واذا كان خفض الجناح في هذا الموطن عاما شاملا كل المؤمنين ، فان خفض الجناح في الموطن الثاني جاء الأمر به خاصا متعلقا بشخصين عزيزين غاليين ، يعلو حقهما على حقوق سواهما ، ذلكما هما الأم والأب اللذان يقول القرآن للولد عنهما :

---

(١) سورة التوبة ، الآية ١٢٨ .

(٢) سورة آل عمران ، الآية ١٥٩

« وَاخْفِضْ لَهُما جَناحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ » .

أي تواضع لهما فوق طاعتهما وحفظ حقوقهما ورعاية حرمتهما ، فاخفض لهما جناح الذل بلين المنطق ، وجميل اللقاء ، ولطف المعاملة ، وحسن المداراة ، والمبادرة الى الخدمة ، والصبر على أمرهما ، وترك التبرم بمطالبهما .

ويعلق جار الله على كلمة : « جناح الذل » فيقول : فيه وجهان : أحدهما أن يكون المعنى : واخفض لهما جناحك كما قال : (واخفض جناحك للمؤمنين) فأضافه الى الذل ، كما أضيف حاتم الطائي الى الجود ، على معنى : واخفض لهما جناحك الذليل الخاضع .

والثاني أن تجعل لذله جناحا خفيضا مبالغة في التذلل والتواضع لهما على سبيل الاستعارة ، كما جعل لبيد الشاعر لريح الشمال يدا ، وللقرة — وهي شدة البرد — زماما ، في قوله :

وغداة ريح قد كشفت وقرة ... اذ أصبحت بيد الشمال زمامها

والنيسابوري في تفسيره يذكر أن الطائر اذا أراد ضمّ فرخه اليه للتربية والحضانة ، خفض له جناحيه فلذلك صار خفض الجناح كناية عن حسن التدبير ، وهذا المعنى مناسب لحسن المعاملة التي نطلبها من الولد لوالديه ، اذ لا بد من بذله الجهد حتى تأتي معاملته على أحسن وجه ممكن .

* * *

ويأتي الموطن الثالث وهو قول الله جل جلاله في سورة الشعراء :

« واخفض جناحك لمن اتبعك من المؤمنين » .

وهذا أمر باللين العام ، والتواضع الذي يشمل كل الاتباع المؤمنين ، حيث يأمر الله نبيه بأن يلين معهم ، ويحلم عليهم ، ويترفق بهم . ويجسّم القرآن ذلك في صورة حسية ، هي صورة الجناح المخفوض من الطائر حينما يهم بالهبوط حيث الهدوء والسكون والاطمئنان .

ويفسر القشيري في « لطـائف الاشارات » هذه الآية بقوله : ألن جانبك لهم ، وقاربهم في الصحبة ، واسحب ذيل التجاوز على ما يبدر منهم من التقصير ، واحتمل منهم سوء الاحوال ، وعاشرهم بجميل الاخـلاق ، وتحمل عنهم كلهم ، وارحمهم كلهم ، فان مرضوا فعدهم ، وان حرمـوك فأعطهم ، وان ظلموك فتجاوز عنهم ، وان قصـروا في حق فاعف عنهـم ، واشفع لهم أو استغفر لهم .

ولنلاحظ هنا أسلوب النظم القرآني ، ولنر كيف سار ... ان الآيات هنا تقول : « وأنذر عشيرتك الاقربين ، واخفض جناحك لمن اتبعك مـن المؤمنين ، فان عصوك فقل اني بريء مما تعملون ، وتوكل عـلى العزيـز الرحيم » .

انظر كيف بدأت الآيات بذكر الانذار ، وفيه شدة وصلابة وصرامة، ثم ذكرت خفض الجناح ، وفيه رفق ولين وتواضـع ، فان لم ينفـع معهم الانذار الممزوج باللين ، فدعهم وشأنهم ، واتجه الى ربك القوي الغالب ، الرحمن الرحيم ، فأنت في هدايته ورعايته .

وقد يقال : ولم قال القرآن : « لمن اتبعك من المؤمنين » والمتبعون للرسول صـلى الله عليـه وسلم هـم المؤمنون ، والمؤمنون هم المتبعون للرسـول ؟.

ويجيب الزمخشري على ذلك بقوله : « فيه وجهان : أن يسميهم قبل الدخول في الايمان مؤمنين ، لمشارفتهم ذلـك ، وأن يريـد بالمؤمنـين

المصدقين بألسنتهم وهم صنفان ، صنف صدّق واتبع رسول الله فيما جاء به ، وصنف ما وُجد منه الا التصديق فحسب . ثم اما أن يكونوا منافقين أو فاسقين ، والمنافق والفاسق لا يخفض لهما الجناح .

والمعنى : من المؤمنين من عشيرتك وغيرهم . يعني : أنذر قومك . فان اتبعوك وأطاعوك فاخفض لهم جناحك ، وان عصوك ولم يتبعوك فتبرأ منهم ومن أعمالهم من الشرك بالله وغيره ، وتوكل على الله يكفك شر من يعصيك منهم ومن غيرهم !.

وقد يقول قائل آخر : لماذا قال القرآن في سورة الحجر : « واخفض جناحك للمؤمنين » وقال في سورة الشعراء : « واخفض جناحك لمن اتبعك من المؤمنين » ، فزاد فيها قوله « لمن اتبعك » ؟.

والجواب أنه زاد ذلك في آيات الشعراء لانه قد قال أولا : « وأنذر عشيرتك الاقربين». فلو لم يذكر هذه الزيادة : «لمن اتبعك» لكان الظاهر ان اللام في كلمة « للمؤمنين » للمعهود المذكور أولا وهو العشيرة . فيصير الامر بخفض الجناح مقصورا على الاقربين من عشيرته ، فجاء قوله : « لمن اتبعك » ليعلم أن خفض الجناح مطلوب منه مع جميع اتباعه المؤمنين .

هذا ومما يقوي دلالة « خفض الجناح » على الرفق واللين والرحمة أن مادة « الجناح » لم تستعمل في لغة القرآن الا في مواطن تدل على اللين والأمن والرحمة والتكريم .

فلننظر :

يقول القرآن في سورة طه :

« وَاضْمُمْ يَدَكَ إلى جَناحِكَ تَخْرُجْ بَيْضاءَ مِنْ غَيْرِ

سُوءٍ » (١) .

ويقول في سورة القصص :

« واضْمُمْ إِلَيْكَ جَناحَكَ مِنَ الرَّهْبِ » (٢) .

أي لتضبط نفسك ويزول خوفك .

ويقول في سورة فاطر :

« الحَمْدُ للهِ فاطِرِ السَّمَواتِ وَالأَرْضِ جاعِلِ الملائِكَةِ رُسُلاً أُولي أَجْنِحَةٍ » (٣) .

ويقول في سورة الانعام :

« ومَا مِنْ دَابَّةٍ في الأَرْضِ ولا طائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّا أُمَمٌ أَمْثَالُكُمْ » (٤) .

ويقول في سورة الانفال :

« وإِنْ جَنَحُوا لِلسَّلْمِ فاجْنَحْ لَها وتَوَكَّلْ على اللهِ »(٥) .

ولقد كان سيدنا رسول الله عليه الصلاة والسلام مثلا يحتذى في

---

(١) سورة طه ، الآية ٢٢ .
(٢) سورة القصص ، الآية ٣٢ .
(٣) سورة فاطر ، الآية الاولى .
(٤) سورة الانعام ، الآية ٣٨ .
(٥) سورة الانفال ، الآية ٦١ .

خفض الجناح ولين المعاملة . كان يلقي بأذنه الى من يحدثه ، فلا ينصرف عنه حتى يتم المتحدث ما يريد من حديث وان طال ، وكان اذا صافحه أحد لم ينزع يده من يد مصافحه حتى يكون المصافح هو الذي ينزع ، وكان لا يقطع على أحد حديثه ، وكان يحسن لقاء من يسعى اليه فكأنه أقرب الناس اليه ، وكان يبسط رداءه لضيفه حتى يجلس عليه ، واذا غاب عنه أحد أصحابه سأل عنه ، فان كان مسافرا دعا له ، وان كان مريضا عاده .

وجاء في « لطائف الاشارات » أنه كان اذا استعانت به الجارية في الشفاعة الى مواليها مضى معها مستجيبا لها ، وكان يخدم أهله في بيته ، وسئلت السيدة عائشة : ما كان النبي صلى الله عليه وسلم يصنع في بيته ؟. فقالت : كان يكون في مهنة أهله ، فاذا حضرت الصلاة خرج اليها ، وتولى خدمة الوفد بنفسه ، وقال : سيد القوم خادمهم !.

ولقد روي أن أحد الأعراب جاء الرسول يطلب منه احسانا ، فأعطاه وقال له : هل أحسنت اليك ؟.

فأجاب الأعرابي بخشونة : لا أحسنتَ ولا أجملت !.

فغضب الصحابة وهموا بتأديب الرجل ، ولكن الرسول أمرهم أن يكفوا عن ذلك ، ثم قام فدخل بيته ، ودعا بالاعرابي فزاده ثم سأله : هل أحسنت اليك ؟.

فتأثر الأعرابي فقال : نعم ، فجزاك الله من أهل وعشيرة خيرا .

فقال له الرسول : انك قلت ما قلت آنفا ، وفي نفس أصحابي من ذلك شيء ، فان أحببت فقل بين أيديهم ما قلت حتى يذهب ما في صدورهم عليك .

أجاب الأعرابي : أفعل .

فلما كان الغد جاء الأعرابي فقال النبي : ان هذا الاعرابي قال ما قال فزدناه ، فزعم انه رضي . والتفت النبي الى الاعرابي قائلا : أكذلك ؟.

أجاب : نعم فجزاك الله من أهل وعشيرة خيرا .

وهنا قال النبي لأصحابه : « مثلي ومثل هذا كمثل رجل له ناقة شردت عليه ، فاتبعها الناس (جروا وراءها) فلم يزيدوها الا نفورا . فناداهم صاحبها فقال لهم : خلّوا بيني وبين ناقتي ، فاني أرفق بها منكم وأعلم . فتوجه لها بين يديها ، فأخذ من قمام الأرض . فردها حتى جاءت واستناخت ، وشد عليها رحلها . واستوى عليها . واني لو تركتكم حيث قال الرجل ما قال ، فقتلتموه ، دخل النار » .

وفي « غرر الخصائص الواضحة » للوطواط جاءت هذه العبارة : « كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يجيب دعوة الحر والعبد ، والأمة والمسكين ، ويقول : لو دُعيت الى كراع لأجبت . وكان يخصف النعل ، ويحلب الشاة ، ويركب الحمار ، ويرقع الثوب ، ويطحن مع الخادم اذا أعيت ، ويأكل معها ، ويحمل بضاعته من السوق ، ويسلّم مبتدئا . ويصافح الغني والفقير ، ويخالط أصحابه ويحادثهم ويمازحهم ، ويلاعب صبيانهم ويجلسهم في حجره ، وما دعاه أحد من أصحابه ولا من أهل بيته الا قال : لبيك .

وقال : لا تفضلوني على يونس بن متى ، ولا ترفعوني فوق قدري فتقولوا فيّ ما قالت النصارى في المسيح . ان الله اتخذني عبدا قبل أن يتخذني رسولا » .

وللرسول صلوات الله وسلامه عليه أحاديث تدعو الى اللين والرفق وخفض الجناح ، منها قوله :

« ان الله يحب الرفق في الامر كله » .

« من يُحرم الرفق يحرم الخير كله » .

« أيما وال ولي فرفق ولان رفق الله تعالى به يوم القيامة » .

« تدرون من يحرم على النار يوم القيامة ؟ . كل هيّن ليّن سهل قريب » .

وهذا عمر بن الخطاب رضي الله عنه يذكّر الولاة الرعاة بخفض الجناح للناس فيقول لهم : « أيها الرعاة ، ان للرعية عليكم حقا ، فاعلموا أنه لا شيء أحب الى الله ولا أعز من حلم امام ورفقه » .

ونصح علي بن أبي طالب رضي الله عنه بعض ولاته فيما يتعلق بمعاملة الناس فقال له : « فالبس لهم جلبابا من اللين ، تشوبه (تمزجه) بطرف من الشدة ، وداول بين القسوة والرأفة ، وامزج لهم بين التقريب والادناء ، والابعاد والاقصاء » .

كما نصح لوال آخر فقال : « فاستعن بالله على ما أهمك ، واخلط الشدة بضغث (أي بجانب) من اللين ، وارفق ما كان الرفق أرفق ، واعتزم بالشدة حين لا يغني عنك الا الشدة ، واخفض للرعية جناحك ، وابسط لهم وجهك ، وألن لهم جانبك ، وآس بينهم (عاملهم بالتساوي) في اللحظة والنظرة ، والاشارة والتحية ، حتى لا يطمع العظماء في حيفك ، ولا ييأس الضعفاء من عدلك » .

وهذه الكلمات من الخليفتين الراشدين تبين لنا أن خفض الجناح ليس استسلاما ولا هوانا ولا تدليلا ، وانما هو استعمال اللين في مواطنه، والرفق في مواضعه ، مع مزج ذلك بالحزم ، فان الأمر كما قال الأول :

فقسا ليزدجروا ، ومن يك حازما فليقس أحيانا على من يرحم

ولقد عني رجال التربية الروحية والاخلاق في الاسلام بالدعوة الى خفض الجناح بكلماتهم المضيئة ، فقال أبو عون الانصاري : « ما تكلم الناس بكلمة صعبة الا والى جانبها كلمة ألين منها تجري مجراها » . وقال يوسف بن الحسين الرازي : « الخير كله في بيت ومفتاحه التواضع، والشر كله في بيت ومفتاحه الكبر » . وقال أحمد بن عاصم الانطاكي : « أنفع التواضع ما نفى عنك الكبر ، وأمات منك الغضب » . وقال عروة : « كل نعمة محسود عليها الا التواضع » .

أمد الله بتأييده وتوفيقه كل من خفض جناحه للمؤمنين .

الخشية

« الخشية » كما تحدثنا لغة القرآن الكريم . خوف يشوبه تعظيم للمخوف ، أو شعور بخطره ، والخشية من الله عز وجل هي الخوف من غضبه وعقابه ، وتدل الخشية على الخضوع والاتقاء كذلك ، والغالب أن الخشية تكون عن علم بما يخشى منه ، ولذلك اختص الله بها العلماء في قوله : « انما يخشى الله من عباده العلماء » .

وفي مادة « الخشية » معنى الحذر والابقاء على الشيء ، ولذلك جاء في حديث خالد أنه « لما أخذ الراية يوم مؤتة دافع الناس ، وخاشى بهم » أي أبقى عليهم وحذر ، ولعل ذلك لأن الخاشي من شيء يحرص على تجنب ذلك الشيء وعدم التعرض له .

ومن عجيب أمر هذه المادة ــ مادة الخشية ــ أنها تستعمل أحيانا بمعنى الرجاء ، ومن ذلك قول ابن عباس لعمر : « لقد أكثرتَ من الدعاء بالموت حتى خشيت أن يكون ذلك أسهل لك عند نزوله » فكلمة خشيت هنا بمعنى رجوت . ولعل ذلك لأن من خشي شيئا توقعه وترقب مجيئه .

وقد يقترب معنى الخشية من معنى « الخوف » حتى تشتبه به عند كثير من الناس ، ولكن هناك فرقا بينهما أشار اليه « تفسير المنار » وهو أن

الخشية هي الخوف في محل الأمل ، ولقد تحدثت عن الفرق بينهما في كتابي « أخلاق القرآن » فقلت هذه العبارة : « واذا واصلنا قراءتنا في كتب السلف فيما يتصل بالخوف وجدنا جملة ألفاظ متقاربة ، وان لم تكن مترادفة ، ومنها : الخوف ، والخشية ، والرهبة ، والوجل ، والهيبة . وقد قالوا في التفرقة الدقيقة بينها : ان الخوف هرب من حلول المكروه عند استشعاره ، وهو لعامة المؤمنين ، وصاحبه يلتجيء الى الهرب والامساك . والخشية أخص من الخوف ، وهي للعلماء العارفين بالله ، المشار اليهم بقوله تعالى : « انما يخشى الله من عباده العلماء » . وصاحب الخشية يلتجيء الى الاعتصام بالله ، وعلى قدر العلم تكون الخشية ، ولذلك قال سيدنا رسول الله عليه الصلاة والسلام : « اني لأعلمكم بالله وأشدكم له خشية »[1] .

وقد فرقوا بين الخوف والخشية ، فقالوا ان الخوف خشية سببها ذلّ الخاشي ، وان الخشية خوف سببه عظمة المخشيّ ، ولذلك كان العلماء بالله أكثر خشية ، لأنهم عرفوا عظمة الله فخافوه ، لا لذل منهم ، بل لعظمة جانب الله . والعبد اذا نظر الى نفسه وجدها في غاية الضعف ، فيشعر بالخوف ، واذا نظر الى حضرة الله تعالى رآها في غاية العظمة فيشعر بالخشية ، ودرجة الخشية فوق درجة الخوف ، وان قربت منها واتصلت بها » .

والخشية فضيلة أخلاقية من الفضائل التي تحدث عنها القرآن الكريم في كثير من الآيات ، ورفع شأنها ، ونوه بأصحابها ، ونلاحظ أن أغلب الآيات التي تحدثت عن خلق الخشية ، تذكر الخشية متعلقة بثلاثة أسماء من أسماء الله الحسنى ، هي : الله ، والرب ، والرحمن . فنجد في القرآن

---

(١) كتاب أخلاق القرآن ، الجزء الاول ، ص ١٦٠ .

آيات تربط بين الخشية واسم « الله » . ففي سورة التوبة :

« وأَقامَ الصَّلاةَ وآتى الزَّكاةَ ، ولَمْ يَخْشَ إلا اللهَ »[1] .

وفي سورة النور :

« وَمَن يُطِعِ اللهَ وَرَسُولَهُ وَيَخْشَ اللهَ وَيَتَّقهِ فَأُولَئِك هُمُ الفَائِزونَ »[2] .

وفي سورة الاحزاب :

« وَتَخْشَى النَّاسَ واللهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشاهُ »[3] .

ولعل هذا الارتباط لأنه لا معبود سوى الله ، ولأنه لا عظيم كعظمة الله . وقد جاء في سورتي الحج ولقمان :

« وأَنَّ اللهَ هُوَ العَلِيُّ الكَبِيرُ »[4] .

فهو سبحانه الجدير بالخشية لا الناس .

ونجد آيات تربط بين الخشية والاسم الكريم : « الرب » ففي سورة الرعـد :

« والذينَ يَصِلُونَ ما أَمَرَ اللهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيَخْشَوْنَ

---

(١) سورة التوبة ، الآية ١٨ .
(٢) سورة النور ، الآية ٥٢ .
(٣) سورة الاحزاب ، الآية ٣٧ .
(٤) سورة الحج ، الآية ٦٢ وسورة لقمان ، الآية ٣٠ .

رَبَّهُمْ »[1] .

وفي سورة الانبياء :

« الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهَمْ بِالْغَيْبِ وَهُمْ مِن السّاعَةِ مُشْفِقُونَ »[2] .

وفي سورة فاطر :

« إِنَّما تُنْذِرُ الذينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ بِالْغَيْبِ »[3] .

وفي سورة الملك :

« إِنَّ الذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ بالغيبِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وأَجْرٌ كَبِيرٌ »[4] .

ولعل هذا الارتباط قد كان ، لأن «الرب» هو الذي خلق فسوى ، والذي قدر فهدى ، وهو الذي ربَّى وأرشد . ومن أعطى الفضل برحمته، قادر على سلبه بقدرته ، فكان بذلك أهلا لأن يخافه الناس ويخشوه .

ونجد آيات تربط بين الخشية والاسم الكريم : « الرحمن » ، ففي سورة يس :

---

(١) سورة الرعد ، الآية ٢١ .
(٢) سورة الانبياء ، الآية ٤٩ .
(٣) سورة فاطر ، الآية ١٨ .
(٤) سورة الملك ، الآية ١٢ .

« إِنَّما تُنْذِرُ مَنِ اتَّبَعَ الذِّكْرَ وَخَشِيَ الرَّحْمَنَ بِالْغَيْبِ» [1].

وفي سورة ق :

« مَنْ خَشِيَ الرَّحْمَنَ بالغَيْبِ وَجاءَ بِقَلْبٍ مُنِيبٍ » [2] .

ولعل سر هذا الارتباط هو أن المتحلي بفضيلة الخشية يستحق الرضى والرضوان، وهما من فضل الله الرحمن المنعم بدقائق النعم وجلائلها، ولعل من سر ذلك أيضا أن الله تبارك وتعالى يريد أن يذكّر المتصفين بصفة الخشية أنها ليست صفة رعب أو فزع، لأنها موصولة الاسباب بمصدر الرحمة : الرحمن الرحيم .

وما دام الامر كذلك فمن حق القرآن علينـا أن يأمرنـا بخشية الله وحده ، وأن لا نخشى أحدا سواه ، فيقول في سورة التوبة :

« أَتَخْشَوْنَهُمْ فَاللهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَوْهُ إن كُنْتُمْ مُؤْمِنينَ » [3].

ويقول في سورة المائدة :

« اليَوْمَ يَئِسَ الذينَ كَفَرُوا مِنْ دِينِكُمْ فَلا تَخْشَوْهُمْ واخْشَوْنِ » [4] .

وفي سورة البقرة أيضا :

« فَلا تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِ » [5] .

---

(١) سورة يس ، الآية ١١ .
(٢) سورة ق ، الآية ٣٣ .
(٣) سورة التوبة ، الآية ١٣
(٤) سورة المائدة ، الآية ٣
(٥) سورة البقرة ، الآية ١٥٠ .

أي لا تهابوا الكافرين أو المجرمين ، لأن المستحق للخشية منه هو الله جل جلاله ، لأنه أهل التقوى وأهل المغفرة ، ولانه القادر المسيطر ، ولانه الذي يفي بما وعدكم أيها الابرار من ثواب ، وهو القادر على تنفيذ ما أوعد به المجرمين من عقاب . وهو لا يخلف الميعاد .



ومن جلال التصوير القرآني لمكانة فضيلة الخشية أن الله تعالى أنزل القرآن تذكرة لأهل هذه الفضيلة ، فكأنهم هم الذين ينتفعون بالقرآن ويستفيدون منه ، وكأنه قد جاء لهم ومن أجلهم ولفتح أبواب الخير أمامهم ، يقول القرآن في فاتحة سورة طه : « طه ، ما أنزلنا عليك القرآن لتشقى ، الا تذكرة لمن يخشى » . ولذلك جاءت خشية الله في طليعة الصفات التي يتحلى بها السابقون الى الخير والبر ، والفائزون بعظيم الثواب والاجر . فيقول القرآن في سورة (المؤمنون) :

« إنَّ الذينَ هُمْ مِن خَشْيةِ رَبِّهِمْ مُشْفِقُونَ ، والذينَ هُم بآياتِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ ، والذينَ هُمْ بِرَبِّهِمْ لا يُشْرِكُونَ ، والذينَ يُؤْتُونَ ما آتَوا وقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إلى رَبِّهِمْ راجِعونَ ، أُولئكَ يُسارِعونَ في الخَيْرَاتِ وَهُمْ لها سابِقُونَ »[1].

ومن هنا حسن في حديث القرآن أن يجعل الخشية من صفة الملائكة، وهم عباد الله المكرمون . فيقول عنهم في سورة الانبياء :

« يَعْلَمُ ما بينَ أَيديهِمْ وما خَلْفَهُمْ ولا يَشْفَعُونَ إلا لِمَنِ

---

(١) سورة المؤمنون ، الآيات ٥٧ ـ ٦١ .

ارْتَضَى وَهُمْ مِن خَشْيَتِهِ مُشْفِقُونَ » [1] .

ويؤكد القرآن المجيد أن الخشية هي طريق الرضى والرضوان فيقول في سورة البينة :

« إِنَّ الذينَ آمَنُوا وعَمِلُوا الصالِحاتِ أُولئك هُمْ خَيْرُ البَرِيَّةِ ، جَزاءهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِن تَحْتِها الأَنهارُ خَالِدينَ فيها أَبداً رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ذَلِكَ لِمَنْ خَشِيَ رَبَّهُ » [2] .

أثر هذا الجزاء الحسن ، وهذا الرضى العظيم ، وهـذا الرضوان الكبير ، انما يكون لمن كان له قلب عامر بالخشية لله عز وجل .

وللامام محمد عبده عبارة حول هذا النص الكريم : « ذلك لمن خشي ربه» يقول فيها :[3] «أراد بهذه الكلمة الرفيعة الاحتياط لدفع سوء الفهم الذي وقع ، ولا يزال يقع فيه العامة من الناس ، بل الخاصة كذلك ، وهو أن مجرد الاعتقاد بالوراثة ، وتقليد الأبوين ، ومعرفة ظواهر بعض الاحكام ، وأداء بعض العبارات كحركات الصلاة وامساك الصوم ... مجرد هذا يكفي في نيل ما أعد الله من الجزاء للذين آمنوا وعملوا الصالحات ، وان كانت قلوبهم حشوها الحسد والحقد والكبرياء والـرياء ، وأفواههم ملؤهـا الكذب والنميمة والافتراء ، وتهز أعطـافهم ريـاح العجب والخيـلاء ، وسرائرهم مسكن العبودية والرق للامراء ، بل ولمن دون الامراء ، خالية

---

(١) سورة الانبياء ، الآية ٢٨ .

(٢) سورة البينة ، الآيتان ٧ و٨ .

(٣) تفسير جزء عم ، ص ١٠٥ طبعة دار الشعب .

من أقل مراتب الخشوع والاخلاص لرب الارض والسماء ...

كلا ... لا ينالون حسن الجزاء . فان خشية ربهم لم تحل قلوبهم . ولهذا لم تهذب من نفوسهم . ولا يكون ذلك الجزاء الا لمن خشي ربه . واشعر خوفه قلبه ، والله أعلم » .

* * *

والقرآن يدعو الى الاهتمام والعناية بأهل الخشية لله تعالى ، حتى ولو كانوا فقراء أو مضيّعين عند الناس . ولذلك عاتب الله رسوله عليه الصلاة والسلام في شأن الأعمى الفقير الذي أتاه خاشيا خاشعا . فيقول القرآن في سورة عبس :

« وأَمَّا مَنْ جاءَكَ يَسْعَى . وَهُوَ يَخْشَى . فَأَنْتَ عَنْهُ تَلَهَّى . كَلاَّ إِنَّها تَذْكِرَة »[1] .

ولم لا وأهل الخشية هم أهل العلم الحقيقي النافع الموصل الى سعادتي الدارين . ولذلك قال الحق جل جلاله :

« إِنَّما يَخْشَى اللهَ من عبادِهِ العُلَمَاءُ »[2] .

وجاء في الحديث : « كفى بالمرء علما أن يخشى الله » . وجاء فيه أيضا أن أعلى درجات الطاعة أن تخشى الله كأنك تراه . وجاء فيه ان أخشى العباد لله هم أعلمهم به .

ولقد كان رسول الله صلوات الله وسلامه عليه أعلم الناس بربه .

---

(١) سورة عبس . الآيات ٨ ـ ١١ .
(٢) سورة فاطر ، الآية ٢٨ .

ولذلك كان أخشى الناس لجلاله ، ولذلك قال : « اني لاعلمهم بالله واشدهم له خشية » . وقال : « أما والله اني لأخشاكم لله وأتقاكم له » . وكان من دعائه: «اللهم اقسم لنا من خشيتك ما يحول بيننا وبين معاصيك» ومنه : « وأسألك خشيتك في الغيب والشهادة » .

ولقد تعرض القشيري للكلام عن قوله تعالى : « انما يخشى الله من عباده العلماء » فقال : « انما : كلمة تحقيق تجري من وجه مجرى التحديد ، أي التخصيص والقصر ، فمن فقد العلم بالله فلا خشية له من الله . والفرق بين الخشية والرهبة أن الرهبة خوف يوجب هرب صاحبه ، فيجري في هربه ، والخشية اذا حصلت كبحت جماح صاحبها ، فيبقى مع الله ، فقدمت الخشية على الرهبة في الجملة . والخوف قضية الايمان ، قال تعالى : « وخافون ان كنتم مؤمنين » . والخشية قضية العلم ، والهيبة توجب المعرفة .

ويقال : خشية العلماء من تقصيرهم في أداء حقه ، ويقال : من استحيائهم من اطلاع الحق ، ويقال : حذرا من أن يحصل لهم سوءُ أدب أو تركُ احترام ، أو انبساط في غير وقته باطلاق لفظ ، أو ترخّصٌ بترك الأولى » .

ويقول أبو بكر الوراق : « من صحت معرفته بالله ظهرت عليه الهيبة والخشية » .

واذا كان القرآن يقول في سورة الأحزاب :

« الذينَ يُبَلِّغُونَ رِسَالاتِ اللهِ وَيَخْشَوْنَهُ وَلا يَخْشَوْنَ أَحَداً إِلا اللهَ وكَفَى باللهِ حَسِيباً » (١) .

---

(١) سورة الاحزاب ، الآية ٣٩ .

فان هؤلاء يخشون ربهم ولا يخشون سواه لأنهم أصحاب علم بجلال الله وقدرته ، ولذلك يعلق القشيري على الآية بقوله : « يخشونه علما منهم بأنه لا يصيب احدا ضرر ولا محذور ولا مكروه الا بتقديره ، فيفردونه بالخشية اذ علموا أنه لا شيء لأحد من دونه » .

ولعل هذا بعض ما تشير اليه الآية الكريمة في سورة الزمر :

« اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الحَدِيثِ كِتاباً مُتَشَابِهاً مَثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الذينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهمْ . ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وقُلوبُهُمْ إلى ذِكْرِ اللهِ ، ذلكَ هُدَى اللهِ يَهْدي بهِ مَنْ يَشاءُ ، وَمَنْ يُضْلِلِ اللهُ فَما لَهُ مِنْ هادٍ » [1] .

فهم تقشعر جلودهم اذا علموا وفهموا آيات الوعيد ، وهم تلين جلودهم وقلوبهم اذا تدبروا آيات الوعد الكريم .



وهناك آيات قد ترد فيها الخشية مرتبطة في ظاهر اللفظ بغير الله جل جلاله ، ولكن معناها أو مفهومها يراد منه خشية الله وحده ، فالقرآن مثلا يقول في سورة لقمان :

« يا أَيُّها النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ واخْشَوا يَوْماً لا يَجْزِي والِدٌ عَنْ وَلَدِهِ ولاَ مَوْلُودٌ هُوَ جازٍ عَنْ والِدِهِ شيئاً » [2] .

---

(١) سورة الزمر ، الآية ٢٣ .

(٢) سورة لقمان ، الآية ٣٣ .

وليس المراد ـ والله أعلم بمراده ـ اننا نخشى ذات اليوم ، ولكن أن نخشى الله ونخشى عقابه العادل في ذلك اليوم وهو يوم القيامة » .

ومثل ذلك قوله تعالى في سورة النازعات :

« إِنَّما أَنْتَ مُنْذِرُ مَنْ يَخشاهَا » [1] .

يعني القيامة ، المعبر عنها بكلمة « الساعة » والمعنى : انما ينفع انذارك ، ويثمر وعظك مع صاحب الخشية الذي يصلح للانتباه من الغفلة ، والعودة الى الحق ، بخلاف أهل التمرد والعناد .

والقرآن ينهى بعد ذلك عن ألوان من الخشية التي لا تناسب افراد الله بالخشية ، فيقول في سورة الاسراء :

« وَلا تَقْتُلُوا أَوْلادَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلاقٍ نَحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ إِنَّ قَتْلَهُمْ كانَ خِطْئاً كَبِيراً » [2] .

ويعرض بمثل هذا حين يقول في سورة الاسراء :

« قُلْ لَوْ أَنْتُمْ تَمْلِكُونَ خزائِنَ رَحْمَةِ رَبي إِذاً لأَمْسَكْتُمْ خَشْيَةَ الإِنْفاقِ وكانَ الإِنْسَانُ قَتُوراً » [3] .

ويشير القرآن الكريم في موطن آخر الى أن قلوب بعض الناس ـ كاليهود ـ تفقد معنى الخشية ، وتلج في شراسة القسوة حتى تكون أغلظ من الصخر ، مع أن الجمادات كالحجارة تخشع وتخضع وتهبط من

---

(١) سورة النازعات ، الآية ٤٥ .
(٢) سورة الاسراء ، الآية ٣١ .
(٣) سورة الاسراء ، الآية ١٠٠ .

خشية الله تعالى ، فيقول في سورة البقرة :

« ثُم قَسَتْ قُلُوبُكُمْ مِنْ بعدِ ذلكَ فهِيَ كالحِجَارَةِ أَو أَشَدُّ قَسْوَةً ، وإنَّ مِنَ الحِجارَةِ لَما يَتَفَجَّرُ منهُ الأَنهارُ ، وإِنَّ مِنْها لما يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ الماءُ ، وإِنَّ مِنْها لَما يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ اللهِ ومَا اللهُ بغافلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ » [1] .

ويعود القرآن الى قريب من مثل هذا في سورة الحشر فيقول :

« لَوْ أَنْزَلْنا هَذا القُرْآنَ على جَبَلٍ لَرَأَيْتَهُ خاشِعاً مُتَصَدِّعاً مِنْ خَشْيَةِ اللهِ وَتِلْكَ الأَمْثَالُ نَضْرِبُها للنّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ » [2] .

والقرآن الحكيم يفيض في الحديث عن العاقبة الطيبة الكريمة لمن يتحلى بفضيلة الخشية ، فيقول :

« إِنَّما تُنْذِرُ مَنِ اتَّبَعَ الذِّكْرَ وَخَشِيَ الرَّحْمَنَ بالغَيْبِ فَبَشِّرْهُ بِمَغْفِرَةٍ وَأَجْرٍ كَرِيمٍ » [3] .

وقد جاء في « لطائف الاشارات » عن تفسير الآية هذه العبارة : « أي انما ينتفع بانذارك من اتبع الذكر ، فان انذارك ــ وان كان عاما في الكل وللكل ــ فان الذين كفروا على غيهم يصرون ، ألا ساء ما

---

(١) سورة البقرة ، الآية ٧٤ .
(٢) سورة الحشر ، الآية ٢١ .
(٣) سورة يس ، الآية ١١ .

يحكمون ، وان كانوا لا يعلمون قبح ما يفعلون .

أما الذين اتبعوا الذكر واستبصروا ، وانتفعوا بالذي سمعوه منك ، وبه عملوا ، فقد استوجبوا أن تبشرهم ، فبشرهم وأخبرهم على وجه يظهر السرور بمضمون خيرك عليهم ، وأجر كريم كبير وافر على اعمالهم ، وان كان فيها خلل » .

والذكرى التي يشيد القرآن بأمرها ، ويطالب بالحرص عليها ، انما تتحقق على وجهها عند المتحلين بفضيلة الخشية ، ولذلك يقول القرآن في سورة النازعات :

« إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لِمَنْ يَخْشَى » [1] .

أي لمن له عقل يتدبر به عواقب الأمور ومصائرها ، فينظر بعين التدبر في حوادث الماضين وأحوال الحاضرين ، فيتعظ بها ويخضع لربه بسببها .
ويقول في سورة الأعلى :

« فَذَكِّرْ إِن نَفَعَتِ الذِّكْرَى ، سَيَذَّكَّر مَن يَخْشَى ، وَيَتَجَنَّبُها الأَشْقَى ، الذِي يَصْلَى النارَ الكُبْرَى ، ثُم لا يَمُوتُ فِيها وَلا يَحْيَى » [2] .

فالذكرى مفيدة ونافعة عند الذين يخشون ربهم ، ويخشون عاقبة الكفران والجحود ، مع قيام الدلائل والبراهين على الحق المبين ، وفي هذا المقام نفهم ان المتحلي بفضيلة الخشية هو المفلح السعيد

---

(١) سورة النازعات ، الآية ٢٦ .
(٢) سورة الاعلى ، الآيات ٩ ـ ١٣ .

من الناس . وذلك بدليل ما جاء في آخر الآيات الماضية : « ويتجنبها الأشقى . الذي يصلى النار الكبرى ، ثم لا يموت فيها ولا يحيى » .



وأقبلت السنة النبوية المطهرة تؤكد هذا وتؤيده ، وتخبرنا بأن الخشية الصادقة هي وسيلة النجاة والحافظة من العذاب ، فيقول رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لا يلج النار رجل بكى من خشية الله حتى يعود اللبن في الضرع » ، وعود اللبن في الضرع مستحيل ، فكذلك دخول النار لمن بكى من خشية الله مستحيل ، والله جل جلاله يقول في سورة النازعات :

« وأَمَّا مَنْ خافَ مَقَامَ رَبِّهِ ونهَى النَّفْسَ عَنِ الهَوَى . فإِنَّ الجَنَّةَ هِيَ المأْوَى »[1] .

والقرآن يحدثنا بأن افراد الله تعالى بالخشية منه والخوف من عقابه هو الطريق الى صدق الجهاد والفوز بنعمة النصر والعزة ، ولذلك يقول في سورة آل عمران :

« الَّذِينَ استَجابُوا للهِ والرَّسُولِ مِن بعدِ ما أَصَابَهُمُ القَرْحُ لِلَّذينَ أَحْسَنُوا مِنْهُمْ واتَّقَوْا أَجْرٌ عَظِيمٌ . الذين قالَ لَهُمُ الناسُ إِنَّ الناسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخشَوْهُمْ ، فَزَادَهُمْ إِيماناً وقالُوا حَسْبُنا اللهُ ونِعْمَ الوَكِيل ، فانقَلَبُوا

(١) سورة النازعات ، الآيتان ٤٠ و٤١ .

بِنِعْمَةٍ مِنَ اللهِ وَفَضْلٍ لَمْ يَمْسَسْهُمْ سُوءٌ واتَّبَعُوا رِضْوانَ اللهِ واللهُ ذو فَضْلٍ عَظِيمٍ » (١) .

وفي موطن آخر يحدثنا بأن خشية غير الله تؤدي الى الخسار والبوار فيقول في سورة النساء :

« أَلَمْ تَرَ إلى الذينَ قيلَ لَهُمْ كُفُّوا أَيْدِيَكُمْ وأَقِيمُوا الصَّلاةَ وآتُوا الزَّكاةَ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيهِمُ القِتالُ إذا فَرِيقٌ مِنْهُمْ يَخْشَوْنَ الناسَ كَخَشْيَةِ اللهِ أَو أَشَدَّ خَشْيَةً ، وقالُوا رَبَّنَا لِمَ كَتَبْتَ عَلَيْنَا القِتَالَ لَوْلاَ أَخَّرْتَنَا إلى أَجَلٍ قَرِيبٍ قُلْ مَتاعُ الدُّنْيَا قَليلٌ والآخِرَةُ خَيْرٌ لِمَنِ اتَّقَى وَلا تُظْلَمُونَ فَتِيلاً » (٢) .

وهذه الآية الكريمة تشير الى الضعفاء أو المنافقين من أهل الجبن الذين أحبوا الحياة الدنيا ، وكرهوا الموت ، فخافوا من الاعداء ، وهالوهم وخشوا لقاءهم ، حتى رجحوا خشيتهم الناس على خشيتهم الله جل جلاله، ولو أنهم خشوا الله حق خشيته لأقبلوا على لقاء الأعداء ، مفضلين ما عند الله من ثواب جزيل ، على متاع للدنيا قليل ، وما عند الله خير للابرار ، ولن ينقص أجر الذين يخشون ربهم ، بل سيوفون ثوابهم كاملا يوم القيامة .

ولله در القشيري حين يقول : « الخشية لجام يوقف المؤمن عن

(١) سورة آل عمران ، الآيات ١٧٢ ــ ١٧٤ .
(٢) سورة النساء ، الآية ٧٧ .

الركض في ميادين الهوى ، وزمام يجر الى استدامة حكم التقى ». ويقول: « الخشية من الله بشير الوَصلة ، والخشية من غير الله نذير الفرقة » .

ولا غرابة في ذلك . فمن خشي الله اتقاه في السر والعلن ، وفي الغيبة والحضور ، ومن كان كذلك فقد هُدي الى صراط مستقيم .

التطهر

أصل مادة « طهر » يدل على النقـاء وزوال الدنس ، والتطهر هـو التنزه عن الدنس والنجس ، وعن الذم وكل قبيح ، والطهر خلاف الدنس، والطُّهور ــ بضم الطاء ــ هو التطهر ، والطَّهور ــ بفتح الطاء ــ هـو الماء الذي يتطهر به . والطهارة في اللغة هي النظافة والتنزه عن الأدناس ، وفي الشرع هي رفع الحدث وازالة النجاسة أو ما في معناهما ، والاستطهار طلب التطهر .

هذا حديث اللغة عن التطهر ، فما حديث الأخلاق ؟. أو ما حـديث القرآن الكريم عن التطهر ؟..

ان الطهارة ضربان : طهارة حس وطهارة نفس ، أو طهـارة جسم وطهارة قلب . وأغلب الآيات التي جاء فيها ذكر التطهر لا تخرج عن هذين الضربين . وكل من النوعين يحث عليه القرآن المجيد ويدعو اليه وينوه به ، وفيما يتعلق بطهارة الحس نجد القرآن يمن بنعمة الله على عباده فيقول في سورة الفرقان :

« وَهُوَ الذي أَرْسَلَ الرِّياحَ بُشْراً بينَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ

وأَنْزَلْنا مِنَ السَّماءِ ماءً طَهُوراً » [1] .

أي طاهرا مطهرا معينا على التطهر ، ويقول في سورة الانفال :

« وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُمْ مِنَ السَّماءِ ماءً لِيُطَهِّرَكُمْ بِهِ » [2] .

ويأمر بالتطهر عن طريق الاغتسال عند وجود داعيه فيقول في سورة المائدة : « وان كنتم جنبا فاطهروا » ثم يعود في الآية نفسها ليقول :

« ما يُريدُ اللهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ حَرَجٍ وَلَكِنْ يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ » [3] .

ويقول في سورة البقرة :

« وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْمَحِيضِ قُلْ هُوَ أَذىً فَاعْتَزِلُوا النِّساءَ في المَحِيضِ وَلا تَقْرَبُوهُنَّ حَتَّى يَطْهُرْنَ ، فإذا تَطَهَّرْنَ فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ اللهُ » [4] .

ولقد جعل الاسلام الماء أساسا للطهارة الحسية ، وضمن للمسلم مواطن كثيرة للتطهر المادي حين شرع الاغتسال والوضوء وازالة النجاسة، والحرص على نظافة البدن والثوب والمكان ، وربط هذه الانواع من التطهر بأسباب كثيرة تتكرر في حياة الانسان تكررا متقارب المرات . كما شرع الاسلام التخلل والتسوك . وسنن الفطرة المؤدية الى التنظف والتطهر ،

(١) سورة الفرقان ، الآية ٤٨ .
(٢) سورة الانفال ، الآية ١١ .
(٣) سورة المائدة ، الآية ٦ .
(٤) سورة البقرة ، الآية ٢٢٢ .

ومنع المعاشرة الزوجية اذا لم تكن الزوجة طاهرة لوجود الحيض أو النفاس عندها ، بل منع الاسلام المسلم ان ينال شرف القيام بعبادته لربه اذا لم يكن طاهرا ، فالرجل لا يستطيع الصلاة اذا كان جنبا أو محدثا ، بل لا بد له من الاغتسال او الوضوء ، والمرأة التي لم تنته من الحيض أو النفاس لا تستطيع أن تصلي ولا أن تصوم ولا تطوف بالبيت الحرام ولا تمس المصحف ولا تقرأ القرآن ... الخ .

ولا ريب عند عاقل أو منصف في أن الاسلام هو دين الطهارة والتطهر في كل مجال يلائمه التطهر .



وبجوار التطهر الحسي عُني القرآن المجيد بالتطهر النفسي أو القلبي أو الاخلاقي ، فقال القرآن الكريم في سورة البقرة :

« وإذا طَلَّقْتُمُ النِّساءَ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلا تَعْضُلُوهُنَّ أَنْ يَنْكِحْنَ أَزْوَاجَهُنَّ إذا تَراضَوْا بَيْنَهُمْ بِالْمَعْرُوفِ ذلكَ يُوعَظُ بهِ مَن كانَ مِنْكُمْ يُؤْمِنُ باللهِ والْيَوْمِ الآخِرِ ذَلكُمْ أَزْكَى لَكُمْ وأَطْهَرُ واللهُ يَعْلَمُ وأَنْتُمْ لا تَعْلَمُونَ »[1] .

ومعنى الآية في ايجاز : اذا طلقتم النساء فأتممن العدة فلا تمنعوهن أن يراجعن أزواجهن الاولين اذا تراضوا بينهم ذلكم أطهر لكم والله يعلم ما لا تعلمون . أي ذلك خير لكم وأفضل ، وأطهر لقلوبكم من الريبة ، فقد يكون في قلب هذه المرأة المطلقة حب لرجل آخر تريد أن تتزوجه ، فاذا عضلها مطلقها وأعادها الى عصمته بغير اختيارها فقد تتطلع الى غيره فلا يبقى قلبها طاهرا .

---

(١) سورة البقرة ، الآية ٢٣٢ .

وكذلك يقول القرآن عن [illegible] مريم في سورة آل عمران :

« وإذْ قَالَتِ المَلاَئِكَةُ يا مَرْيَمُ إنَّ اللّهَ اصْطَفَاكِ وَطَهَّرَكِ واصطَفاكِ عَلى نِسَاءِ العَالَمِينَ » [1] .

أي طهر نفسك وقلبك من الفحشاء والمعاصي ، وزانك بالفضيلة والتقوى .

ويقول القرآن عن نساء النبي في سورة الاحزاب :

« وَإذا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتاعاً فَاسْأَلُوهُنَّ مِنْ وَراءِ حِجابٍ ذَلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وقُلوبِهِنَّ » [2] .

أي أحفظ لقلوبكم وقلوبهن من الريبة وخواطر السوء .

وكذلك عني القرآن الحكيم بالحديث عن الطهارة التي تحتمل النوعين : التطهر الحسي والتطهر النفسي ، فقال في سورة البقرة :

« وَعَهِدْنا إلى إبْرَاهِيمَ واسْمَاعِيلَ أَن طَهِّرَا بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ والعاكِفِينَ والرُّكَّعِ السُّجُودِ » [3] .

وقد قال بعض المفسرين ان المعنى : طهرا بيتي وهو الكعبة من الفرث والدم الذي كان يطرحه المشركون عند البيت ، أو طهراه من الاصنام التي كانوا يعلقونها على باب البيت ، أو طهرا بنيانه باكماله على الطهارة ، كما

---

(١) سورة آل عمران ، الآية ٤٢ .
(٢) سورة الاحزاب ، الآية ٥٣ .
(٣) سورة البقرة ، الآية ١٢٥ .

في قوله تعالى :

« أَفَمَنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَى تَقْوَى مِنَ اللهِ وَرِضْوَانٍ خَيْرٌ أَمْ مَّنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَى شَفَا جُرُفٍ هارٍ فانهارَ بهِ في نَارِ جَهَنَّمَ واللهُ لا يَهْدِي القَوْمَ الظالِمِينَ » (١) .

وقال بعض آخر : ان المراد هو الحث على تطهير الكعبة من عبادة الأوثان . أو حث على تطهير القلب . لأن قلب المؤمن ـ كما قيل ـ بيت الله لدخول السكينة فيه . كما قال تعالى :

« هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ السَّكِينَةَ في قُلُوبِ المُؤْمِنِينَ » (٢) .

ويقول الله تعالى في سورة آل عمران :

« لِلَّذِينَ اتَّقَوْا عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِها الأَنْهارُ خالدِينَ فِيها ، وَأَزْواجٌ مُطَهَّرَةٌ » (٣) .

أي مطهرة من الحيض والنفاس ، ومن جميع الانجاس والادناس والاقذار ، ومن الطبائع الذميمة والاخلاق اللئيمة ، فهؤلاء الزوجات في الجنة مبالغ في تطهيرهن وتزكيتهن ، فليس فيهن ما يعاب من خبث جسدي ، حتى ما كان طبيعيا في النساء كالحيض والنفاس ، ولا خبث نفسي كالمكر والكيد والرذائل الاخرى ، لأنهن مطهرات بكل أنواع التطهير .

وفي سورة المدثر يقول القرآن :

---

(١) سورة التوبة ، الآية ١٠٩ .
(٢) سورة الفتح ، الآية ٤ .
(٣) سورة آل عمران ، الآية ١٥ .

« وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ » [1] .

وللمفسرين في هذا النص الكريم أقوال منها : طهّر عملك ، لانهم يقولون لمن يحسن العمل : فلان طاهر الثياب ، وللخبيث العمل : فلان خبيث الثياب . أو : طهر قلبك ونفسك من الاثم والذنوب ، أو طهر دينك وخلقك . أو طهر جسمك وملابسك ، أو طهر نفسك من المعايب .

ومما يحتمل طهارة الحس والنفس وصف السنة النبوية للزكاة بأنها طهرة للمال ، وأن زكاة الفطر طهرة للصائم من اللغو .

* * *

وللتطهر في الاسلام مراتب ، وتبدأ هذه المراتب بتطهير الحس عن النجاسة والاقذار والاخباث ، ثم يأتي التطهر لاعضاء الجسم عن الجرائم والاثام ، ثم يأتي تطهر القلب عن الرذائل والاخلاق الذميمة ، ثم يأتي تطهر السر عما سوى الله جل جلاله ، وهذه المرتبة الاخيرة هي مرتبة الانبياء والصديقين .

ولقد أشار الغزالي الى هذه المراتب ، وذكر ان طهارة الظاهر تكون بالماء ، وطهارة الباطن تكون بالفضائل ، ثم يذكر أن أهم الامور هو تطهير السرائر ، اذ يبعد أن يكون المراد من قول النبي صلى الله عليه وآله وسلم: « الطهور نصف الايمان » عمارة الظاهر بالتنظيف بافاضة الماء والقائه ، مع تخريب الباطن وابقائه مشحونا بالاخباث والاقذار ، هيهات هيهات .

ومما يشرف شأن التطهر أن يقول الحق جل جلاله :

« إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ فِي كِتَابٍ مَكْنُونٍ ، لاَ يَمَسُّهُ إلا

---

(١) سورة المدثر - الآية ٤ .

المُطَهَّرُونَ »[1] .

أي لا يبلغ حقائق معرفته الا من طهر نفسه ، وتنقى من درن الفساد، هكذا ذكر الاصفهاني .

ومما يشرف شأن التطهر أن يقول الرسول صلوات الله وسلامه عليه : « مفتاح الصلاة الطهور » وأن الرسول كان يدعو ربه بأن يجعله من المتطهرين ، وجاء في حديث الدعاء : « اللهم اغفر ذنبه وطهّر قلبه » .

وهناك من وراء امام الانبياء نماذج فاضلة زانها ربها بنعمة الطهارة وفضيلة التطهر ، والله جل جلاله يقول لنبيه وعبده عيسى بن مريم :

« إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا »[2] .

أي مطهرك باخراجك من بينهم ، وانجائك منهم فهم أرجاس ، وصيانتك من كفرهم . ولقد عرفنا ان الله تعالى طهر أمه مريم ، أي طهرها بالايمان عن الكفر ، وبالطاعة عن المعصية ، وطهرها من الفاحشة ، وطهرها من الاخلاق السيئة والرذائل الشائنة .

وهؤلاء هم أهل بيت رسول الله عليه الصلاة والسلام ، يزينهم ربهم بالتطهير ، فيقول عنهم في سورة الاحزاب :

« إِنَّما يُرِيدُ اللهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ البَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيراً »[3]

---

(١) سورة الواقعة ، الآيات ٧٧ ــ ٧٩ .
(٢) سورة آل عمران ، الآية ٥٥ .
(٣) سورة الاحزاب ، الآية ٣٣ .

كما يمجد القرآن ذكر قوم سبقوا بالايمان واخلاص العمل والطاعة في المسجد الذي أسس على التقوى ، فيقول في سورة التوبة :

« لَمَسْجِدٌ أُسِّسَ على التَّقْوَى مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَن تَقُومَ فيهِ ، فيهِ رِجالٌ يُحِبُّونَ أَنْ يَتَطَهَّرُوا واللهُ يُحِبُّ المُطَّهِّرِينَ » [1] .

أي المتطهرين في نفوسهم وحواسهم ، التاركين للذنب ، والعاملين للصلاح .

وأزواج المؤمنين في الجنة أزواج مطهرة ، ويذكر القرآن ذلك على انه نعمة وفضل ، وحلية وزينة ، فيقول في سورة البقرة : « ولهم فيها أزواج مطهرة وهم فيها خالدون » . ويقول في سورة آل عمران : للذين اتقوا عند ربهم جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها وأزواج مطهرة ورضوان من الله والله بصير بالعباد » . ويقول في سورة النساء :

« والَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحاتِ سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّات تَجْرِي مِنْ تَحْتِها الأَنْهارُ خَالِدِينَ فِيها أَبَداً لَهُمْ فِيها أَزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ وَنُدْخِلُهُمْ ظِلاًّ ظَلِيلاً » [2] .

وشراب الجنة الذي يسقيه الله لأهل الجنة موصوف بالطهارة، حيث يقول القرآن في سورة الانسان :

---

(١) سورة التوبة ، الآية ١٠٨ .
(٢) سورة النساء ، الآية ٥٧ .

« وَسَقَاهُمْ رَبُّهُمْ شَرَاباً طَهُوراً » [1] .

أي مطهرا يخرج ما في بطونهم من الأذى ، وينزع ما في قلوبهم من الغل والحسد .

وكتب الله تعالى وصحفه يصفها القرآن بالطهارة ، فيقول في سورة عبس :

« فَمَنْ شاءَ ذَكَرَهُ ، في صُحُفٍ مُكَرَّمَةٍ ، مَرْفُوعَةٍ مُطَهَّرَةٍ » [2] .

وقال في سورة البينة :

« رَسُولٌ مِنَ اللهِ يَتْلُو صُحُفاً مُطَهَّرَةً » [3] .

أي منزهة من الضلال والشك ، مطهرة من كل دنس ، مصانة من أن ينالها الكفار ، ومطهرة عن أن تنزل على المشركين . أو لا ينبغي أن يمسها الا المطهرون .



والتطهر معنى أخلاقي كريم يذكرنا بالعفة والتصون عن ارتكاب الفاحشة وارتضاء الخنا . ولقد رأينا الكافرين المجرمين يغيظهم أن يتطهر آل لوط عليه السلام ، ويتحرزوا من اقتراب الفاحشة ، ويأبوا الرضى بها أو السكوت عليها . شأن اللئيم الأثيم يغيظه أن يكون ملطخا بالأوساخ

---

(١) سورة الانسان ، الآية ٢١ .
(٢) سورة عبس ، الآيات ١٢ ـ ١٤ .
(٣) سورة البينة ، الآية ٢ .

الاخلاقية ، وغيره من أهل التطهر يسمو عليه ويرتفع .

ان القرآن المجيد يقول في سورة الاعراف :

« وَمَا كَانَ جَوابَ قَوْمِهِ إلا أَن قالُوا أَخْرِجُوهُم مِن قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أُناسٌ يَتَطَهَّرُونَ » [1] .

ويقول في سورة النمل :

« فَمَا كانَ جَوابَ قَوْمِهِ إلا أَن قالُوا : أَخْرِجُوا آلَ لُوطٍ من قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أُناسٌ يَتَطَهَّرُونَ » [2] .

ويقول في سورة هود :

« وَجَاءَهُ قَوْمُهُ يُهْرَعُونَ إِلَيْهِ ومِنْ قَبْلُ كانُوا يَعْمَلُونَ السَّيِّئاتِ ، قالَ يا قَوْمِ هَؤُلاءِ بنَاتِي هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ فاتَّقُوا اللهَ وَلا تُخْزونِ في ضَيْفِي أَلَيْسَ مِنْكُمْ رَجُلٌ رَشِيدٌ » [3] .

ولقد أغلظ الله جل جلاله الوعيد للذين لم تتطهر قلوبهم . فقال في سورة المائدة :

« وَمَنْ يُرِدِ اللهُ فِتْنَتَهُ فَلَنْ تَمْلِكَ لَهُ مِنَ اللهِ شَيْئاً أُولَئِكَ الذِينَ لَمْ يُرِدِ اللهُ أَن يُطَهِّرَ قُلُوبَهُمْ لَهُمْ في الدُّنْيا

---

(١) سورة الاعراف ، الآية ٨٢ .
(٢) سورة النمل ، الآية ٥٦ .
(٣) سورة هود ، الآية ٧٨ .

خِزْيٌ ، وَلَهُمْ في الآخِرَةِ عَذابٌ عَظِيمٌ »[1] .



ويأتي بعد هذا حديث الصوفية عن الطهارة والتطهر ، فنجدهم يسوقونه على طريقتهم الخاصة بهم التي تهيم مع الجوانب الروحية هياما شديدا ، فنجد أول ما نجد قول معروف الكرخي : «قلوب الطاهرين تشرح بالتقوى ، وتزهر بالبر ، وقلوب الفجار تظلم بالفجور ، وتعمى بسوء النية » .

ونجدهم يتفننون في المقابلة بين طهارة الحس وطهارة النفس ، فنجد القشيري في « لطائف الاشارات » يسوق هذه العبارة :

كما أن في الشريعة لا تصح الصلاة بغير الطهور ، فلا تصح — في الحقيقة — بغير طهور .

وكما أن للظاهر طهارة ، فللسرائر أيضا طهارة ، وطهارة الأبدان بماء السماء ، أي المطر ، وطهارة القلوب بماء الندم والخجل ، ثم بماء الحياء والوجل .

وكما يجب غسل الوجه عند القيام الى الصلاة ، يجب — في بيان الاشارة — صيانة الوجه عن التبذل للاشكال عن طلب خسائس الاعراض.

وكما يجب غسل اليدين في الطهارة يجب قصرهما عن الحرام والشبهة.

وكما يجب مسح الرأس يجب صونه عن التواضع والخفض لكل أحد.

وكما يجب غسل الرجلين في الطهارة ، يجب صونهما في الطهارة الباطنة عن التنقل فيما لا يجوز .

---

(١) سورة المائدة ، الآية ٤١ .

وحينما يتحدث القرآن المجيد عن المسجد الذي أسس على التقــوى من أول يوم ، ويخبر عنه بقوله : « فيه رجال يحبون أن يتطهروا واللــه يحب المطهرين » لا يشتغل الصوفية هنا بالحديث عن طهارة الحس ، بل يستبد بهم الحديث عن الطهارة الاخلاقية ، فيفسرون هذا النص الكريم على الوجه التالي :

يتطهرون عن المعاصي ، وهذه سمة العابدين .

ويتطهرون عن الشهوات والاماني ، وتلك صفة الزاهدين .

ويتطهرون عن محبة المخلوقين ، ثم عن شهود أنفسهم بما يتصفون ، وتلك صفة العارفين . ويتفننون في التعليق عــلى قولــه : « ان الله يحب التوابين ويحب المتطهرين » بالصورة التالية :

يقال : يحب التوابين من الذنوب ، والمتطهرين من العيوب .

ويقال : التوابين من الزلة ، والمتطهرين من التوهم أن نجاتهم بالتوبة.

ويقال : التوابين من ارتكاب المحظورات ، والمتطهرين من المساكنات والملاحظــات .

ويقال : التوابين بماء الاستغفار ، والمتطهرين بصوب مــاء الخجــل بنعت الانكسار .

ويقال : التوابين من الزلة ، والمتطهرين من الغفلة .

ويقال : التوابين من شهود التوبة ، والمتطهرين من توهم أن شيئــا بالزلة ، بل الحكم ابتداء من الله تعالى ...

وحينما يتعرضون للتعليق على قول الله تبارك وتعــالى في ســورة التوبة : « خذ من أموالهم صدقة تطهرهم وتزكيهم بهــا » يذكرون هــذا التفســير :

تطهرهم من طلب الأعواض عليها ، وتزكيهم عن ملاحظتهم اياهــا ، وتطهرهم بها من شح نفوسهم ، وتزكيهم بهــا بأن لا يتكاثروا بأموالهم ، فيروا عظيم منة الله تعالى عليهم بوجود التجرد منها .

وهكذا يمضي الصوفية في فنون وشجون ، فاذا هــم يسيرون في مسالك تدق وتعمق على كثيرين ، وقد تستغلق أمام آخرين ، ولكل وجهة هو موليها .

أما بعد ، فما أجدر المؤمن البصير بأن يتخذ من فضيلة « التطهــر » حصنا يحول بينه وبين الزلل والانحراف ... مــا أجــدره بأن يتطهر في عقيدته ، فيستمسك بعقيدة الصفاء والنقاء ، التي لا ريب فيها ولا التواء : عقيدة التوحيد التي لا يرتضي العقل السليم سواها :

« لَوْ كانَ فِيهِما آلِهَةٌ إلا اللهُ لَفَسَدَتَا » [1] .

وأن يتطهر في عبادته ، فلا يرائي بها أو يخادع ، بل يبتغي بها وجه الحق سبحانه :

« فاعْبُدِ اللهَ مُخْلِصاً لَهُ الدِّينَ » [2] .

وأن يتطهر في كلامه ، فيجعله طيبا صادقا صادعا بالحق ، داعيــا الى الخير ، آمرا بالمعروف ، ناهيا عن المنكر :

« إلَيْهِ يَصْعَدُ الكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصالحُ يَرْفَعُهُ » [3] .

وأن يتطهر في نظره ، فلا يملأ عينه من شيء غيره ، ولا يتطلع الى ما

---

(١) سورة الانبياء ، الآية ٢٢ .
(٢) سورة الزمر ، الآية ٢ .
(٣) سورة فاطر ، الآية ١٠ .

ليس له حق في التطلع اليه ، ولا يتبع عورات الناس ببصره ، فان الحق جل جلاله :

« يَعْلَمُ خائِنَةَ الأَعْيُنِ وما تُخْفي الصُّدُورُ » [١] .

وأن يتطهر في ظنه ، فلا يجعله سيئا دون موجب :

« إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ » [٢] .

وأن يتطهر في معاملته مع غيره ، فيحب للناس ما يحب لنفسه ، ويكره لهم ما يكرهه لنفسه .

وأن يتطهر في مظهره ومخبره ، في أحواله وأعماله ، في انفراده واجتماعه ، وبذلك ينال رضا الله ومحبته : « ان الله يحب التوابين ، ويحب المتطهرين » .

---

(١) سورة غافر ، الآية ١٩ .
(٢) سورة الحجرات ، الآية ١٢ .

المصاحبة بالمعروف

كلمة « المصاحبة » فيها معنى الملازمة ، ولذلك تقول اللغة ان الصاحب هو الملازم ، سواء أكانت المصاحبة حسية بالبدن ـ وهذا هو الأصل والأكثر ـ أم كانت معنوية بالاهتمام والعناية ، على حد قول القائل:

لئن غبتَ عن عيني لما غبتَ عن قلبي

والمصاحبة أبلغ من الاجتماع ، لأن المصاحبة تقتضي طوال اللبث أو الدوام ، ولذلك يقال : كل مصاحبة يكون معها اجتماع ، وليس كل اجتماع يكون مصاحبة ، ومن هنا عبَّر القرآن الكريم عن المقيمين في النعيم بقوله : « أصحاب الجنة » ، وعبر عن الباقين الخالدين في العذاب بأنهم « أصحاب النار » أو « أصحاب الجحيم » .

وقد تطلق كلمة « المعاشرة » على معنى « المصاحبة » ، ولذلك قالت اللغة : صحب وصاحب بمعنى عاشر ، والمصاحبة والمعاشرة بمعنى واحد ، والصاحب هو المعاشر ، ومادة « المعاشرة » تدل على الكثرة ، وجاءت كلمة « العشيرة » تدل على الجماعة التي يتقوى بها الانسان ويتكثر ، وفي المصاحبة أيضا قوة تتحقق بالصاحب الكريم المصاحبة .

و « المعروف » لفظ من مادة « المعرفة » ، وهي ادراك الشيء بتفكر

وتدبر لأثره ، ثم استعملوا هذا اللفظ في الامر المستحسن الذي هو ضد المنكر ، ولذلك قالوا : المعروف اسم لكل فعل يعرف الانسان حسنه بالعقل أو الشرع .

والمفهوم الأخلاقي لفضيلة « المصاحبة بالمعروف » أو « المعاشرة بالمعروف » هو أن يصحب الانسان من يصحبه بحسن الفعال وطيب الاقوال ومحبوب الاحوال ، ومعاملة الصاحب بمثل ما نحب وتتمنى أن يعاملنا به ، وهذه المعاملة فضيلة أخلاقية قرآنية كريمة ، تحدث كتاب الله عنها وحث عليها .

وقد يحسن بنا ـ قبل أن نتعرف الى حديث القرآن عن المصاحبة بالمعروف ـ أن نتذكر أن القرآن المجيد أشار الى ما في الصحبة من تعارف واطلاع كل من الطرفين على أحوال صاحبه ، فيكون أعرف به من غيره ، فعبر القرآن أكثر من مرة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم بأنه « صاحب » فقال في سورة الاعراف :

« أَوَ لَمْ يَتَفَكَّرُوا ما بِصَاحِبِهِمْ مِن جِنَّةٍ إِنْ هُوَ إِلاَّ نَذِيرٌ مُبِينٌ » [1] .

وقال في سورة سبأ :

« قُلْ إِنَّما أَعِظُكُم بِواحِدَةٍ أَن تَقُومُوا للهِ مَثْنَى وفُرادَى ، ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا ما بِصَاحِبِكُمْ مِن جِنَّةٍ إِن هُوَ إِلا نَذِيرٌ لَكُمْ بَيْنَ يَدَي عَذابٍ شَدِيدٍ » [2] .

---

(١) سورة الاعراف ، الآية ١٨٤ .
(٢) سورة سبأ ، الآية ٤٦ .

وقال في سورة النجم :

« ما ضَلَّ صَاحِبُكُمْ ومَا غَوَى »[1] .

وقال في سورة التكوير :

« ومَا صَاحِبُكُم بِمَجْنُونٍ »[2] .

وقد قال أهل التفسير ان وصف « الصاحب » هنا فيه تنبيه على أن قوم الرسول قد صحبوه وجربوه وعرفوه في ظاهره وباطنه ، ولم يجدوا فيه خبلا أو جنونا ، بل عرفوا فيه الصادق الأمين ، والعاقل النبيل .

ولقد كان رسول الله عليه الصلاة والسلام أكرم مثل للمصاحبة بالمعروف والمعاشرة بالحسنى ، مع كل من عرفه أو صاحبه أو اختلط به ، فلم يكن فظا ولا غليظا ، ولا يجزي السيئة بالسيئة ، بل يعفو ويصفح ، وأكد القرآن ذلك بقوله في سورة آل عمران :

« فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللهِ لِنْتَ لَهُمْ ، وَلَوْ كُنْتَ فَظّاً غَلِيظَ الْقَلْبِ لانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ ، فَاعْفُ عَنْهُمْ ، وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ ، وشَاوِرْهُمْ فِي الأَمْرِ ، فإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلى اللهِ ، إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ »[3] .

ولقد جاء في السنة من صفات الرسول صلوات الله وسلامه عليه أنه

---

(١) سورة النجم ، الآية ٢ .
(٢) سورة التكوير ، الآية ٢٢ .
(٣) سورة آل عمران ، الآية ١٥٩ .

كان يكرم أهل الفضل ، ويتألف أهل الشرف بالبر ، ويصل رحمه من غير أن يؤثرهم على من هو أفضل منهم ، ولا يجفو على أحد ، ويقبل معذرة المعتذر اليه ، ويمزح ولا يقول الا حقا ، ويضحك من غير قهقهة ، ويرى اللعب المباح فلا ينكره ، وترتفع الاصوات عليه فيصبر ، ويعامل الناس على قدر عقولهم ... الخ وهذه صفات تجعل صاحبها خير من يطبق المصاحبة بالمعروف .



ومن النماذج العليا للمصاحبة بالمعروف تلك الصحبة الكريمة العظيمة التي نشأت بين الرسول وأبي بكر ، فقد روى أبو بكر للنبي خير الوفاء ، فسبق الى الاسلام في طليعة الرجال ، وأخلص للرسول الحب والتقدير والاجلال والمصاحبة بالمعروف ، وواسى النبي بماله ونفسه وجهده ، وأشار القرآن الكريم الى هذه الصحبة في سورة التوبة ، فمجدها وخلدها ، حيث قال :

« إِلَّا تَنْصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ إِذْ أَخرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُما فِي الغارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنا فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَمْ تَرَوْها وَجَعَلَ كَلِمَةَ الذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَى وَكَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا واللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ » (١) .

وقد قابل الرسول الجميل بالجميل ، والاحسان بالاحسان ، والمصاحبة النبيلة بأزكى منها ، وحسبنا أن نجد النبي يقول : « لو كنت

(١) سورة التوبة ، الآية ٤٠ .

متخذا من أهل الارض خليلا لاتخذت أبا بكر خليـلا ، ولكن صـاحبكم خليل الله » . ويقول : « ان الله بعثني اليكم فقلتم كذبت وقال أبو بكر صدق ، وواساني بنفسه وماله » . ويقول : « ما لأحد عندنا يد الا وقد كافيناه ، ما خلا أبا بكر ، فان له عندنا يدا يكافئه الله بها يوم القيامة ، وما نفعني مال أحد قط ما نفعني مال أبي بكر » . ويقول لأبي بكر : « أنت صاحبي على الحوض ، وصاحبي في الغار » .

ويعلق القشيري على قوله تعالى : « اذ يقول لصاحبه لا تحزن ان الله معنا » فيقول : في الآية دليل على تحقيق صحبة الصدّيق ـ رضي اللـه عنه ـ حيث سماه الله سبحانه صاحبه ، وعدّه ثانيه : في الايمان ثانيـه ، وفي الغار ثانيه ، ثم في القبر ضجيعه ، وفي الجنة يكون رفيقه .



وتأتي المصاحبة بالمعروف التي تلزم الولد نحو والديه ، وقـد عني التنزيل الحكيم بتأكيد هذه الوصية ، فقال في سورة لقمان :

« وَوَصَّيْنَا الإِنْسانَ بِوالِدَيْهِ ، حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهْناً عَلى وَهْنٍ وَفِصَالُهُ في عامَيْنِ أَنِ اشْكُرْ لي وَلِوَالِدَيْكَ إِليَّ المَصِيرُ ، وإِنْ جَاهَدَاكَ عَلى أَنْ تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلا تُطِعْهُما وصَاحِبْهُما في الدُّنْيا مَعْرُوفاً ، واتَّبِـعْ سَبِيلَ مَن أَنَابَ إِليَّ ثُمَّ إِليَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُمْ بِما كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ » [1] .

ويقول في سورة الاحقاف :

---

(١) سورة لقمان ، الآيتان ١٤ و١٥ .

« وَوَصَّيْنَا الإِنْسانَ بِوَالِدَيْهِ إِحْسَاناً ، حَمَلَتْهُ أُمُّهُ كُرْهاً وَوَضَعَتْهُ كُرْهاً ، وَحَمْلُهُ وَفِصَالُهُ ثَلاثُونَ شَهْراً ، حَتَّى إذا بَلَغَ أَشُدَّهُ وبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً قالَ : رَبِّ أَوزِعْني أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عليَّ وعَلى والِدَيَّ ، وَأَنْ أَعمَلَ صَالِحاً تَرْضاهُ وَأَصْلِحْ لي في ذُرِّيَّتِي ، إِنِي تُبْتُ إِلَيْكَ وإِنِي مِنَ المُسْلِمِينَ » [1] .

وكرر قوله : « وبالوالدين احسانا » .

وفصل التنزيل جوانب من مصاحبة الوالدين بالمعروف ، بالاحسان اليهما ، فقال في سورة الاسراء :

« وَقَضَى رَبُّكَ أَلاَّ تَعْبُدُوا إِلاَّ إِيّاهُ وَبِالوَالِدَيْنِ إِحْسَاناً ، إِمّا يَبْلُغَنَّ عِنْدَكَ الكِبَرَ أَحَدُهُما أَوْ كِلاهُما فَلا تَقُلْ لَهُمَا أُفٍّ وَلا تَنْهَرْهُما ، وَقُلْ لَهُمَا قَوْلاً كَرِيماً ، وَاخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ ، وَقُلْ رَبِّ ارْحَمْهُما كَما رَبَّيَانِي صَغِيراً » [2] .

* * *

وتأتي المصاحبة بالمعروف ــ أو المعــاشرة بالمعروف ــ بين الــزوج

---

(١) سورة الاحقاف ، الآية ١٥ .

(٢) سورة الاسراء ، الآيتان ٢٣ و٢٤ .

وزوجته ، وقد سمى القرآن الزوجة « صاحبة » فقـال في سورة عبس :

« يَوْمَ يَفِرُّ المَرْءُ مِنْ أَخِيهِ ، وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ ، وَصَاحِبَتِهِ وَبَنِيهِ »[1] .

فالصاحبة هنا هي الزوجة كما وصفها بأنها « الصاحب بالجنب » ، فقال في سورة النساء :

« وَاعْبُدُوا اللهَ ولا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئاً وَبِالوَالِدَيْنِ إِحْسَاناً وَبِذِي القُرْبَى وَاليَتَامَى وَالمَسَاكِينِ وَالجَارِ ذِي القُرْبَى وَالجَارِ الجُنُبِ وَالصَّاحِبِ بِالجَنْبِ »[2] .

فالصاحب بالجنب هو الزوجة .

وعن فضيلة المصاحبة بالمعروف من الأزواج للزوجات يقول القرآن في سورة النساء :

« وَعَاشِرُوهُنَّ بالمَعْرُوفِ فَإِنْ كَرِهْتُمُوهُنَّ فَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئاً وَيَجْعَلَ اللهُ فِيهِ خَيْراً كَثِيراً »[3] .

أي يجب عليكم أيهـا المؤمنون أن تحسنوا عشـرة نسائكم ، بأن تكون مصاحبتكم ومخالطتكم لهن بالمعروف ، الذي تعرفه وتألفه طباعهن، والذي لا يستنكر شرعا ولا عرفا ولا مروءة ، فالايذاء بالقول أو الفعل،

---

(١) سورة عبس ، الآيات ٣٤ ، ٣٦ .
(٢) سورة النساء ، الآية ٣٦ .
(٣) سورة النساء ، الآية ١٩ .

وكثرة عبوس الوجه وتقطيبه عند اللقاء، كل ذلك ينافي العشرة بالمعروف.

وتتحقق هذه الفضيلة من الزوج بأن يكون حسن الخلق معها ، ويحتمل الأذى منها ، ويحلم عليها عند غضبها ، فقد قال الرسول صلى الله عليه وسلم : « اتقوا الله في النساء » . وأن يضيف الى اللين والحلم واحتمال الأذى ، المداعبة الجميلة والمزاح المحبوب . ولقد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم أرحم الناس بنسائه وألطفهم معهن ، وقال : «أكمل المؤمنين ايمانا أحسنهم خلقا وألطفهم بأهله » . وقال : « خيركم خيركم لنسائه ، وأنا خيركم لنسائي » . وقال عمر رضي الله عنه : ينبغي للرجل أن يكون في أهله مثل الصبي ، فاذا التمسوا ما عنده وجدوه رجلا . وروى بعض السلف ان مصاحبة المرأة بالحسنى يدخل فيها أن يتزين الرجل للمرأة بما يليق به من الزينة ، لانها تتزين له .

ويقول القرآن في سورة البقرة :

« وَلَهُنَّ مِثْلُ الَّذِي عَلَيْهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ » (١) .

وهذه العبارة القرآنية البليغة ــ كما جاء في تفسير المنار ــ تعطي الرجل ميزانا يزن به معاملته لزوجته في جميع الشؤون والأحوال ، فاذا هم أن يطالبها بأمر من الامور ، يتذكر أنه يجب عليه مثله بازائه ، ولهذا قال عبدالله بن عباس رضي الله تعالى عنهما : « انني لأتزين لامرأتي كما تتزين لي » ، وليس المراد بالمثل تماثل أعيان الاشياء وأشخاصها ، وانما المراد ان الحقوق بينهما متبادلة ، وأنهما أكفاء ، فما من عمل تعمله المرأة للرجل الا وللرجل عمل يقابله لها . ان لم يكن مثله في شخصه ، فهو مثله في جنسه ، فهما متماثلان في الحقوق والاعمال ، كما أنهما متماثلان في الذات والاحساس والشعور والعقل ، أي أن كلا منهما

(١) سورة البقرة ، الآية ٢٢٨ .

بشر تام له عقل يتفكر في مصالحه ، وقلب يحب ما يلائمه ويسر به ، ويكره ما لا يلائمه وينفر منه، فليس من العدل أن يتحكم أحد الصنفين بالآخر ، ويتخذه عبدا يستذله ويستخدمه في مصالحه ، ولا سيما بعد عقد الزوجية، والدخول في الحياة المشتركة التي لا تكون سعيدة الا باحترام كل من الزوجين الآخر والقيام بحقوقه .

ويقول القرآن بعد ذلك في سورة البقرة :

« فَإِمْسَاكٌ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحٌ بِإِحْسَانٍ » [1] .

وهذا حث على حسن المعاشرة للزوجة حتى في حالة الطلاق ، فكأن الآية تقول للرجال : ان الواجب عليكم في حالة الطلاق اما ابقاء الزوجة في الحياة الزوجية ، مع المعاشرة الطيبة الحسنة ، المعروفة عند العقلاء ، واما فراقها بالطلاق الاخير ، مع الاحسان اليها أيضا في المعاملة ، باعطائها كل حقوقها وتمتيعها بمال لائق .

ويعود القرآن في السورة نفسها ليقول :

« وَإِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ سَرِّحُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ ، وَلَا تُمْسِكُوهُنَّ ضِرَاراً لِتَعْتَدُوا ، وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ » [2] .

أي اذا قاربن انقضاء العدة فعلى الزوج اما أن يستبقي زوجته على الوجه الفاضل الذي أراده الله تعالى ، من القيام بما يجب لها من النفقة

---

(١) سورة البقرة ، الآية ٢٢٩ .
(٢) سورة البقرة ، الآية ٢٣١ .

وحسن العشرة وغير ذلك ، واما أن يتركها حتى تنقضي عدتها تماما ، فتملك أمر نفسها .

فالنص القرآني هنا قد تضمن ــ كما في لطائف الاشارات ــ الامر بحسن العشرة ، وترك المغايظة مع الزوجة ، وترك المخالفة على وجه اللجاج، فاما تخلية سبيل من غير جفاء ، واما قيام بحق الصحبة على شرط الوفاء .

واذا كان القرآن يطالب الزوج مرة بعد أخرى بأن يصاحب زوجته ويعاشرها بالمعروف والحسنى ، فان الزوجة مطالبة كذلك بأن تحسن مصاحبتها ومعاشرتها لزوجها ، فقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لو أمرت أحدا أن يسجد لأحد لأمرت المرأة أن تسجد لزوجها ، لعظم حقه عليها » ، فينبغي أن تكون الزوجة متحلية مع زوجها بفضيلة المصاحبة بالمعروف ، وأن تتنزه عن الرذائل التي لا تليق بها ولا تحسن منها ، أو التي تسبب ضيقا عند الزوج أو تعبا ، ولتتذكر الزوجة أن بعض العرب قال : « لا تنكحوا من النساء ستة أصناف ، لا أنّانة ، ولا منّانة ، ولا حنّانة ، ولا حدّاقة ، ولا برّاقة ، ولا شدّاقة » .

والانانة : هي التي تكثر الانين والتشكي ، وتعصب رأسها كل ساعة تظاهرا بالمرض والاعياء .

والمنانة : هي التي تمن على زوجها ، فتقول له : فعلتُ لك كذا وكذا .

والحنانة : هي التي تحن الى زوج سابق لها ، أو الى ولدها من زوج آخر أمام زوجها الذي تعيش معه .

والحداقة : هي التي ترمي ببصرها وحدقتها الى كل شيء ، تشتهيه ، وتطالب زوجها به .

والبراقة : هي التي تقضي أغلب نهارها في صقل وجهها وتزيينه ، ليكون لوجهها بريق ولمعان ، أو هي التي تستقل نصيبها من كل شيء ، أو تغضب على الطعام فلا تأكل الا وحدها ، وهذه لغة يمانية ، يقولون : برقت المرأة الطعام ، اذا غضبت عنده .

والشداقة : المتشدقة الكثيرة الكلام بلا موجب .

ولقد صوّر لنا الغزالي صورة مثالية أخاذة للزوجة التي تعطي نموذجا رائعا في مصاحبة زوجها بالمعروف فقال : « فالقول الجامع في آداب المرأة من غير تطويل : أن تكون قاعدة في قعر بيتها ، لازمة لمغزلها ، لا يكثر صعودها واطلاعها ، قليلة الكلام لجيرانها ، لا تدخل عليهم الا في حال يوجب الدخول ، تحفظ بعلها في غيبته ، وتطلب مسرته في جميع أمورها ، ولا تخونه في نفسها وماله ، ولا تخرج من بيتها الا باذنه ، فان خرجت باذنه فمختفية في هيئة رثة ، تطلب المواضع الخالية دون الشوارع والاسواق ، محترزة من أن يسمع غريب صوتها ، أو يعرفها بشخصها ، لا تتعرف الى صديق بعلها في حاجاتها ، بل تتنكر على من تظن انه يعرفها أو تعرفه . همها صلاح شأنها ، وتدبير بيتها ، مقبلة على صلاتها وصيامها .

واذا استأذن صديق لبعلها ، وليس البعل حاضرا ، لم تستفهم ولم تعاوده في الكلام ، غيرة على نفسها وبعلها ، وتكون قانعة من زوجها بما رزق الله ، وتقدم حقه على حق نفسها وحق سائر أقاربها متنظفة في نفسها، مستعدة في الاحوال كلها للتمتع بها ان شاء ، مشفقة على أولادها ، حافظة للستر عليهم ، قصيرة اللسان عن سب الاولاد ومراجعة الزوج ، وقد قال صلى الله عليه وسلم : « أنا وامرأة سعفاء الخدين كهاتين في الجنة : امرأة آمت من زوجها ، وحبست نفسها على بناتها حتى ثابوا أو ماتوا » . وقال صلى الله عليه وسلم : « حرم الله على كل آدمي الجنة يدخلها قبلي ، غير

اني أنظر عن يميني فاذا امرأة تبادرني الى باب الجنة . فأقول : مـــا لهــــذه تبادرني ؟ فيقال لي : يا محمد . هـــذه امرأة كانت حسناء جميلة . وكان عندها يتامى لها ، فصبرت عليهن ، حتى بلغ أمرهن الذي بلغ . فشكر الله لها ذلك »[1] .

ومن آدابها أن لا تتفاخر على الزوج بجمالها . ولا تزدري زوجهـــا لقبحه ، فقد روي أن الاصمعي قال : دخلت البادية فاذا انا بامرأة من أحسن الناس وجها ، تحت رجل من أقبح الناس وجها . فقلت لهـــا : يا هـــذه . أترضين لنفسك أن تكوني تحت مثله ؟. فقالت : يا هذا ، اسكت ، فقـــد أسأت في قولك ، لعله أحسن فيما بينه وبين خالقه فجعلني ثوابه . أو لعلي أسأت فيما بيني وبين خالقي فجعله عقوبتي . أفلا أرضى بما رضي اللـــه لي ؟. فأسكتتني .

وقال الأصمعي : رأيت في البادية امرأة عليهـــا قميص أحمر . وهي مختضبة ، وبيدها سبحة ، فقلت : ما أبعد هذا من هذا . فقالت :

ولله مني جـــانب لا أضيعـــه وللهو مني والبطالة جانب

فعلمت أنها امرأة صالحة لها زوج تتزين له .

ومن آداب المرأة ملازمة الصلاح والانقباض في غيبـــة زوجهـــا . والرجوع الى اللعب والانبساط وأسباب اللذة في حضور زوجهـــا . ولا ينبغي أن تؤذي زوجها بحال . روي عن معاذ بن جبل قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لا تؤذي امرأة زوجها في الدنيا الا قالت زوجتـــه من الحور العين : لا تؤذيه قاتلك الله ، فانما هو عندك دخيل . يوشك أن يفارقك الينا » .

---

(١) للامام العراقي في سند هذين الحديثين كلام . فقد ذكر ان سندهمـــا ضعيف .

وتأتي المصاحبة بالمعروف من الأوصياء لليتامى الصغار الذين لا يحسنون التصرف في أموالهم فهم كالسفهاء في هذا المجال ، فيقول الله تعالى في سورة النساء :

« وَلا تُؤْتُوا السُّفَهَاءَ أَمْوَالَكُمُ الَّتِي جَعَلَ اللهُ لَكُمْ قِيَاماً وارْزُقُوهُمْ فِيها واكْسُوهُمْ وَقُولُوا لَهُمْ قَوْلاً مَعْرُوفاً » (١).

أي عاملوا هؤلاء اليتامى معاملة حسنة طيبة ، فاحفظوا أموالهم . وأعطوهم اذا كبروا وبلغوا الرشد ، فان المال اذا أحسنتم استعماله كان سبب اقامة المصالح الخاصة والعامة ، ومن الواجب عليكم ان تنفقوا من أموالهم في حدود حاجتهم ومصلحتهم ، وقولوا لهم قولا طيبا ، يدل على حسن العشرة والصحبة والتوجيه ، فعلموهم ما يحسن أن يتعلموه وارشدوهم الى الخير .

وكذلك وجه القرآن الى اتباع طريق المعروف حتى في مواطن القصاص، ومواقف الدية، فاذا كان هناك قصاص دعا الى أن يكون المقتص عادلا غير ظالم وغير متجاوز حد العدل ، فقال في سورة الاسراء :

« وَمَنْ قُتِلَ مَظْلُوماً فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِ سُلْطَاناً فَلاَ يُسْرِفْ فِي الْقَتْلِ إِنَّهُ كانَ مَنْصُوراً » (٢) .

واذا ترك صاحب القصاص قصاصه ، وانتقل الامر الى الدية طالب القرآن الطرفين باتباع المعروف ، فقال في سورة البقرة :

« يَا أَيُّها الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ القِصَاصُ في

(١) سورة النساء ، الآية ٥ .
(٢) سورة الاسراء ، الآية ٣٣ .

الْقَتْلَى ، الحُرُّ بِالْحُرِّ ، والْعَبْدُ بِالعَبْدِ ، وَالْأُنْثَى بِالْأُنْثَى ، فَمَنْ عُفِيَ لَهُ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ فَاتِّبَاعٌ بِالْمَعْرُوفِ ، وَأَدَاءٌ إِلَيْهِ بِإِحْسَانٍ ، ذلِكَ تَخْفِيفٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَرَحْمَةٌ ، فَمَنِ اعْتَدَى بَعْدَ ذَلِكَ فَلَهُ عَذابٌ أَلِيمٌ » (١) .

أي على العافي أن يسلك طريقا معروفا غير شديد ، وذلك بأن لا يشدد في طلب الدية والتعجيل بها ، ولا يطالب بأكثر من حقه ، وعلى من يدفع الدية أن لا يؤخرها ولا يسوف في أدائها ، بل يؤديها بمعروف واحسان .

ولا عجب في ذلك ولا غرابة فان الله سبحانه يريد لأمة الاسلام أن تكون أمة معروف واحسان أليس هو القائل في سورة آل عمران :

« وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلى الخَيْرِ ، وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ ، وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ ، وَأُولَئِكَ هُمُ المُفْلِحُونَ »(٢).

حتى الكلمة الطيبة يعدها القرآن نوعا من أنواع المصاحبة بالمعروف والمعاشرة بالحسنى ، فيقول في سورة البقرة :

« قَوْلٌ مَعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِن صَدَقَةٍ يَتْبَعُها أَذىً » (٣) .

أي : كلام طيب جميل يرد به المسؤول على السائل ، ودعاء صالح

---

(١) سورة البقرة ، الآية ١٧٨ .
(٢) سورة آل عمران ، الآية ١٠٤ .
(٣) سورة البقرة ، الآية ٢٦٣ .

له ، أفضل من اعطائه الصدقة مصحوبة بايذاء أو سوء معاملة .

والرسول يؤكد ذلك حين يقول : « ان من موجبات المغفرة بذل السلام وحسن الكلام » . وحين يقول في حديث آخر : « الكلمة الطيبة صدقة » .

* * *

ثم نأتي الى الذين يعنون بتهذيب الارواح وتصفية النفوس من أهل الخشية والمراقبة والاحسان ، فنجدهم يصورون لنا المصاحبة بالمعروف في صور ذات بهاء ورواء وسناء ، فهم يقررون أن الصحبة المثالية التي تنشا بين اثنين تجعلهما روحا واحدة في جسدين ، وقلبا واحدا في بدنين ، وترتفع بهما الى الدرجات العلا التي تتهيأ للاحرار الابرار من الناس .

يقول بعض هؤلاء : اذا قال لك صاحبك : هيا ، فقلت له : الى أين فلست بصديق ومعنى هذا أن الصاحبين هنا قد تلاقيا على الهدى والتقى ، فلا يدعو أحدهما صاحبه الا الى خير أو بر أو معروف .

ويقول بعضهم : مثل المصطحبين مثل النورين ، اذا اجتمعا أبصرا باجتماعهما ما لم يكونا يبصرانه قبل ذلك .

وهم يطالبون بأن تكون المصاحبة للحق وبالحق ومع الحق ، ولذلك يقول ذو النون : « لا تصحب مع الله الا بالموافقة ، ولا مع الخلق الا بالمناصحة ، ولا مع النفس الا بالمخالفة ، ولا مع الشيطان الا بالعداوة والمحاربة »[1] .

ليتنا نحرص على المصاحبة بالمعروف مع من تجمعنا واياهم أودية هذه الحياة لنستجيب لهدى فضيلة زكاها الله ، وحث عليها كتاب الله عز وجل.

---

(١) مثل هذه العبارة جاءت منسوبة للامام احمد الرفاعي في كتابه « البرهان المؤيد » .

الحكمـــة

« الحكمة » كلمة مشتقة من مادة « حكم » . وهذه المادة تدل في الاصل على المنع للاصلاح . ولذلك يقول القائل : « أبني حنيفة أحـــكموا سفهاءكم » أي امنعوهم . ويسمى اللجام حكمة ــ بفتح الحاء والكاف ــ لأنه يمنع الدابة من الشرود ، ومن المادة أيضا : حكم يحكم . بمعنى قضى وفصل في الامر ، لأن الحاكم يمنع الاعتداء بين الناس . ويقال : حكّمـــه في الامر تحكيما ، أي فوض اليه الحكم فيه .

وأحكم فلان الشيء : اتقنه . وذو الحكمة هو من يُحكم الاشياء . ويحسن دقائق الصناعات ويتقنها . والامر الحكيم هو المشتمل على الصواب والحكمة ، وقد تطلق الحكمة على الكلمات البليغة المتضمنة معنى جليـــلا في لفظ قليل .

والحكم أعم من الحكمة ، فكل حكمة حكم . وليس كل حكم حكمة . فقد يكون الحكم مجانبا للرشاد والصواب . واذا كانت كلمة « الحكمة » تطلق بمعنى علمي ، أو عقلي ، أو عملي ، أو بياني . فانها تطلق أيضا بمعنى أخلاقي ، وهذا المعنى الاخلاقي هو المقصود الاساسي لنا في هذا المجال .

ولقد ذكر القرآن الكريم مادة الحكمة في آيات كثيرة . مثل قولـــه في سورة البقرة :

« رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولاً مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آياتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الكِتَابَ وَالحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ العَزِيزُ الحَكِيمُ »[1] .

وقولـه :

« كَمَا أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولاً مِنْكُمْ يَتْلُو عَلَيْكُمْ آياتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ الكِتَابَ وَالحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُمْ مَا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ »[2] .

وقولـه :

« واذْكُرُوا نِعْمَةَ اللهِ عَلَيْكُمْ ومَا أَنْزَلَ عَلَيْكُمْ مِنَ الكِتَابِ والحِكْمَةِ »[3] .

وقوله في سورة النساء :

« فَقَدْ آتَيْنَا آلَ إِبْراهِيمَ الكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وآتَيْنَاهُمْ مُلْكاً عَظِيماً »[4] .

وقد ذكر المفسرون عن معنى الحكمة المذكورة في القرآن آقوالا ،

---

(١) سورة البقرة ، الآية ١٢٩ .
(٢) سورة البقرة ، الآية ١٥١ .
(٣) سورة البقرة ، الآية ٢٣١ .
(٤) سورة النساء ، الآية ٥٤ .

منها أنها النبوة ، أو السنة ، أو تفسير القرآن ، أو فهم حقائقه ... الخ .

ووصف القرآن ربّ العزة بصفة « الحكيم » في عشرات من الآيات. والحكمة من الله سبحانه هي معرفة الاشياء وايجادها على غاية الاحكام . أو هو الذي يعلم أجلّ الاشياء بأجلّ العلوم ، وعلمه أزلي دائم لا يتصور زواله ولا يتطرق اليه خفاء ولا شبهة ، أو هو العادل في التقدير ، المحسن في التدبير ، ذو الحكمة البالغة ، الذي يضع كلّ شيء موضعه . ولا يعرف كنه حكمته غيره سبحانه .

وجاء في التنزيل المجيد وصف القرآن بأنه « الذكر الحكيم » . أي ذو الحكمة ، أو المحكم المتقن الذي لا اختلاف فيه ولا اضطراب ، ولذلك جاء في أول سورة هود :

« الر ، كِتابٌ أُحْكِمَتْ آياتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ » .

ويشير ابن القيم الى قيام دعائم الكون على الحكمة ، فيقول « كل نظام الوجود مرتبط بهذه الصفة ، وكل خلل في الوجود وفي العبد فسببه الاخلال بها ، فأكمل الناس أوفرهم منها نصيبا ، وأنقصهم وأبعدهم عن الكمال أقلهم منها ميراثا » .



واذا كانت كلمة « الحكمة » قد فسرها بعضهم بالعلم . أو الفقه . فقد فسرها كثير من الحكماء بتفسيرات موصولة الاسباب بجوانب الاخلاق . ونحن نستطيع بملاحظة هذه الجوانب أن ننظر الى « الحكمة » على أنها فضيلة من الفضائل الاخلاقية التي دعا اليها القرآن المجيد .

ان الحكمة بهذا المفهوم تطلق على كل ما يتحقق فيه الصواب من

القول والعمل ، وعلى اصابة الحق بالعلم والعقل ، ولذلك قيل في تعريف الحكمة : هي في الانسان معرفة الموجودات وفعل الخيرات ، ولذلك ورد عن مجاهد : « الحكمة معرفة الحق والعمل به ، والاصابة في القول والعمل » . وقال بعض المفسرين : الحكمة هي العلم الصحيح الذي يبعث الارادة الى العمل النافع ، ويقف بالعامل على الصراط المستقيم ، لما فيه من البصيرة وفقه الاحكام وأسرار المسائل .

ويفسر الامام محمد عبده قوله تعالى في سورة البقرة :

« يُؤْتِي الحِكْمَةَ مَنْ يَشاءُ وَمَنْ يُؤْتَ الحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيراً كَثِيراً وَمَا يَذَّكَّرُ إلا أُولو الأَلْبابِ » [1] .

فيذكر ان الحكمة هنا هي العلم الصحيح ، يكون صفة محكمة في النفس ، حاكمة على الارادة ، توجهها الى العمل ، ومتى كان العمل صادرا عن العلم الصحيح كان هو العمل الصالح الطيب النافع الموصل الى السعادة ، فتكون لفضيلة الحكمة منزلتها وثمرتها .

وكم من محصل لصور كثيرة من المعلومات ، خازن لها في رأسه ، ليعرضها في أوقات معلومة ، لا تفيده هذه الصور التي تسمى علما في التمييز بين الحقائق والاوهام ، ولا في التزييل بين الوسوسة والالهام ، لأنها لم تتمكن في النفس تمكنا يجعل لها سلطانا على الارادة ، وانما هي تصورات وخيالات تغيب عند العمل ، وتحضر عند المراء والجدل .

والتفسير الذي ترتضيه النفس لفضيلة الحكمة هو أنها فضيلة تمنع صاحبها من الجهل في القول والعمل ، وتصده عن سوء التصرف والمعاملة ، وتحذره رذيلة الاندفاع والعجلة ، وتعلمه أن يضع كل شيء في موضعه ،

---

(١) سورة البقرة ، الآية ٢٦٩ .

ولذلك قيل ان الحكمة مجموعة معـان من العلم . والعـدل . والتنظيم . والتقويم .

وكأن هذا هو مـا أشار اليـه الحديث القـائل : « في رأس كل عبد حكمة ــ بفتح الحاء والكاف ــ اذا همّ بسيئة فان شـاء اللـه أن يقدعه بها قدعه » أي ان شاء أن يمنعه بها من سوء التصرف منعه . فكأن هذه القوة الاخلاقية الموجودة في نفس الانسان تقف منه موقف الديدبان الحـارس الذي يهتف بصاحبه : حذار أن تفعل هـذا . ولا تنس أن تفعل ذلـك .

ولذلك لم يكن غريبا أن نجد كلمات بليغات لأئمة من السلف عـن الحكمة توحي بمعان أخلاقية فيها . فيقول مالك بن أنس : الحكمة التفكر في أمر الله والاتباع له .

ويقول : الحكمة طاعة الله . والفقه في الدين . والعمل به .

ويقول الحسن : الحكمة الورع .

ويقول الربيع بن أنس : الحكمة الخشية .

ويقول أسلم بن زيد : الحكماء هم العلماء . وهم الراضون عن الله عز وجل اذا سخط الناس . وهم جلساء الله غدا بعد النبيين والصديقين .

ويقول أبو بكر الوراق : الحكماء خلف الانبياء . وليس بعد النبوة الا الحكمة . وهي احكام الأمور .

ولقد أعطى أئمة التوجيـه الروحي والاخـلاقي ملامح للحكمـة وللحكيم . فمن ملامحها الاقتصار على التكلم بالحق والصدق ، ولذلـك يقول أبو عثمان المغربي : « الحكمة هي النطق بالحـق » . وكذلـك من ملامحها الميل الى الصمت أكثر من الميل الى الحديث . مع وزن الكلمة قبل

النطق بها ، ولذلك يقول أبو بكر الوراق : « أول علامات الحكمة طول الصمت ، والكلام على قدر الحاجة » . ومنها انزال الناس منازلهم ، واعطاؤهم حقوقهم . يقول شاه الكرماني : « علامة الحكمة معرفة أقدار الناس » . ومنها عدم الحرص على متاع الحياة الزائل ، وعدم الانشغال به . يقول أبو سليمان الداراني : « اذا ترك الحكيم الدنيا فقد استنار بنور الحكمة » .



ولا شك في أن الحكمة بصورتها الرائعة قد تمثلت في رسل الله عليهم الصلاة والسلام ، وأكملهم في هذه الحكمة هو سيدنا ومولانا رسول الله محمد صلوات الله وسلامه عليه ، وكأن هذا كان استجابة ربانية لدعاء ابراهيم واسماعيل حين قالا كما حكى القرآن في سورة البقرة :

« رَبَّنا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولاً مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آياتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الكِتابَ وَالحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ العَزِيزُ الحَكِيمُ »[1] .

واذا كان هناك من يفسر الحكمة في هذه الآية بالسنة النبوية فان الامام محمد عبده يرى أن ذلك غير مسلَّم على عمومه . ويقرر أن الأصح أن يقال ان الحكمة هي في كل شيء معرفة سره وفائدته ، والمراد بها أسرار الأحكام الدينية والشرائع ومقاصدها ، وقد بين النبي صلى الله عليه وسلم ذلك بسيرته في المسلمين ، وما فيها من الفقه والدين ، والآية تشير الى أن تعليم الكتاب والحكمة لا يكفي في اصلاح الامم واسعادها ، بل لا بد أن

---

(١) سورة البقرة ، الآية ١٢٩ .

يقرن التعليم بالتربية على الفضائل ، والحمل على الاعمال الصالحة بحسن الاسوة والسياسة ، ولذلك قالت الآية : « ويزكيهم » أي يطهر نفوسهم من الاخلاق الذميمة ، وينزع منها تلك العادات الرديئة ، ويعودها الاعمال الحسنة التي تطبع في النفوس ملكات الخير ، ويبغض اليها الاعمال القبيحة التي تغريها بالشر .

والله جل جلاله يأمر رسوله — ومن ورائه اتباعه — بأن يسلك في دعوته طريق الحكمة العاقلة الفاضلة ، فيقول له :

« ادْعُ إلى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالحِكْمَةِ وَالمَوْعِظَةِ الحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ » [1] .

ويشير القرطبي الى أن هذا أمر من الله الى رسوله بأن يدعو الى دين الله وشرعه بتلطف ولين ، دون مخاشنة أو تعنيف .

والقرآن المجيد يذكر لنا أن طائفة من أنبياء الله ورسله قد آتاهم الله الحكمة وزانهم بها ، وجعلهم يقدرونها قدرها ، فمنهم من طلب الى الله أن يؤتيه اياها ، ففي سورة الشعراء جاء على لسان ابراهيم أبي الأنبياء :

« رَبِّ هَبْ لِي حُكْماً (أي حكمة) وَأَلْحِقْنِي بالصَّالِحِينَ » [2] .

وفي سورة البقرة جاء قوله تعالى :

---

(١) سورة النحل ، الآية ١٢٥ .
(٢) سورة الشعراء ، الآية ٨٣ .

« وَقَتَلَ دَاودُ جَالُوتَ وَآتاهُ اللهُ المُلْكَ والحِكْمَةَ »[1] .

وفي سورة ص يقول القرآن عن سليمان :

« وآتَيْنَاهُ الحِكْمَةَ وَفَصْلَ الخِطابِ »[2] .

وفي سورة يوسف جاء عن يوسف :

« وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ آتَيْنَاهُ حُكْماً (أَي حكمة) وَعِلْماً وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ »[3] .

وفي سورة مريم :

« يا يَحْيَى خُذِ الكِتابَ بِقُوَّةٍ وَآتَيْنَاهُ الحُكْمَ صَبِيّاً »[4].

والحكم هنا بمعنى الحكمة . وفي سورة القصص جاء عن موسى :

« وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَاسْتَوَى آتَيْنَاهُ حُكْماً (أَي حكمة) وَعِلْماً وَكَذَلِكَ نَجْزِي المُحْسِنِينَ »[5] .

وفي سورة آل عمران جاء عن عيسى :

« وَيُعَلِّمُهُ الكِتابَ والحِكْمَةَ »[6] .

---

(١) سورة البقرة ، الآية ٢٥١ .
(٢) سورة ص ، الآية ٢٠ .
(٣) سورة يوسف ، الآية ٢٢ .
(٤) سورة مريم ، الآية ١٢ .
(٥) سورة القصص ، الآية ١٤ .
(٦) سورة آل عمران ، الآية ٤٨ .

صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين .

ويقول الله تعالى في سورة لقمان عن لقمان :

« وَلَقَدْ آتَيْنَا لُقْمَانَ الحِكْمَةَ » (١)

ولقد كان لقمان حكيما عبَّر عن حكمته بكلمات حكيمة تهدي الى طائفة من مكارم الاخلاق ، ومنها هذه الكلمات :

« من يقارن قرين السوء لا يسلم » .

« من لا يملك لسانه يُذم » .

« يا بني كن عبدا للاخيار » .

« يا بني ، كن أمينا ، تكن غنيا » .

« جالس العلماء وزاحمهم بركبتيك ، ولا تجادلهم ، خذ منهم اذا ناولوك ، والطف بهم في السؤال » .

« ان ما تأذيت به صغيرا ، انتفعت به كبيرا » .

« كن لاصحابك موافقا في غير معصية » .

« لا تحقرن من الامور صغارها ، فان الصغار غدا تصير كبارا » .

« اياك وسوء الخلق ، والضجر ، وقلة الصبر » .

« ان أردت غنى الدنيا فاقطع طمعك مما في أيدي الناس » ... الخ.

* * *

واذا كان هناك قول بأن المراد بالحكمة هي سنة الرسول صلى الله

---

(١) سورة لقمان ، الآية ١٢ .

عليه وسلم ، فان ذلك القول لا يبعد بكلمة « الحكمة » عن معناها الاخلاقي ، لأن سنة الرسول هي الهادية الى مكارم الاخلاق . وصاحبها هو الذي جاء ليتمم مكارم الاخلاق . وهو الذي أدبه ربه فأحسن تأديبه. وهو الذي قال : « عليكم بسنتي » ، وقال : « تركت فيكم ما ان تمسكتم به لن تضلوا بعدي أبدا ، كتاب الله وسنتي » .

كما ان هناك صلة بين كلمتي « الحكمة » و « الحكم » لأن الحاكم لا يحسن الحكم الا بالحكمة ، ولعل هذا مما يشير اليه الحديث القائل : « الخلافة في قريش ، والحكم في الانصار . فقد ذكر ابن الاثير أن الحديث هنا خصّ الانصار بالحكم ، لان أكثر فقهاء الصحابة فيهم . ومنهم معاذ بن جبل ، وأبي بن كعب ، وزيد بن ثابت .

وقد استعمل الحديث النبوي كلمتي « الحكمة » و « الحكم » بمعنى ، فقال : « ان من الشعر لحكمة » وفي رواية : « ان من الشعر لحكما » أي ان من الشعر كلاما نافعا يمنع من الجهل والسفه . وينهى عنهما ، والمراد به المواعظ والامثال التي ينتفع بها الناس .



وللحكمة أركان تقوم عليها ، وهي العلم والحلم والأناة ، ولها معاول هدم هي الجهل والطيش والعجلة ، فلا حكمة لجاهل ، ولا لطائش، ولا لعجول . هكذا يقول ابن القيم ، كما يقرر أن الحكمة نوعان : حكمة علمية ، وهي الاطلاع على بواطن الاشياء ، ومعرفة ارتباط الاسباب بمسبباتها ، خلقا وأمرا ، قدرا وشرعا ، وحكمة عملية ، وهي وضع الشيء في موطنه، ولذلك ثلاث درجات: الدرجة الاولى أن تعطي كل شيء حقه، ولا تتعدى به حدّه ، ولا تسبق به وقته ، ولا تؤخره عنه ، ويوضح ابن القيم ذلك فيذكر أنه لما كانت الاشياء لها مراتب وحقوق ، تقتضيها شرعا وقدرا ،

ولها حدود ونهايات تصل اليها ولا تتعداها ، ولها أوقات لا تتقدم عنها ولا تتأخر ، كانت الحكمة مراعاة هذه الجهات الثلاث ، بأن تعطي كل مرتبة حقها الذي أحقه الله لها بشرعه وقدره ، ولا تتعدى بها حدها ، فتكون متعديا مخالفا للحكمة ، ولا تطلب تعجيلها عن وقتها فتخالف الحكمة ، ولا تؤخرها عنه فتفوتها .

وهذا حكم عام لجميع الاسباب مع مسبباتها شرعا وقدرا ، فاضاعتها تعطيل للحكمة بمنزلة اضاعة البذر وسقي الارض . وتعدي الحق كسقيها فوق حاجتها ، بحيث يغرق البذر ويفسد الزرع . وتعجيلها عن وقتها كحصاده قبل ادراكه وكماله . وكذلك ترك الغذاء والشراب واللباس اخلال بالحكمة ، وتعدي الحد المحتاج اليه خروج عنها أيضا ، وتعجيل ذلك قبل وقته اخلال بها ، وتأخيره عن وقته اخلال بها .

فالحكمة اذن هي فعل ما ينبغي ، على الوجه الذي ينبغي ، في الوقت الذي ينبغي .

والدرجة الثانية لوضع الشيء في موضعه ، هي أن تعرف الحكمة في وعد الله تعالى ووعيده ، وأنه كما قال في سورة النساء :

« إِنَّ اللهَ لا يَظْلِمُ مِثْقالَ ذَرَّةٍ ، وَإِنْ تَكُ حَسَنَةً يُضاعِفْها وَيُؤْتِ مِنْ لَدُنْهُ أَجْراً عَظِيماً »[1] .

وتعرف الحكمة والعدل في أحكامه ، وقد عرّف أهلُ السنة حكمة الله بقولهم : « انها الغايات المحمودة المطلوبة له سبحانه بخلقه وأمره ، التي أمر لأجلها ، وقدر وخلق لاجلها ، وهي صفته القائمة به كسائر صفاته، من سمعه وبصره ، وقدرته وارادته ، وعلمه وحياته وكلامه » .

---

(١) سورة النساء ، الآية ٤٠ .

والدرجة الثالثة أن تبلغ درجة البصيرة في العلم والادراك ، واليها يشير القرآن الحكيم في قوله :

« قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي وَسُبْحَانَ اللهِ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ »[1] .

***

وقد نوه رسول الله صلوات الله وسلامه عليه بمكانة أهل الحكمة أيما تنويه حين قال : «ان الجنة للمحكّمين» ــ بتشديد الكاف المفتوحة ــ حيث قيل انهم المخصوصون بالحكمة . والذين ينصفون من أنفسهم .

وقيل في تفسير هذا الحديث ان المحكمين هم المجاهدون الذين يقعون في يد الاعداء ، فيخيرهم أعداؤهم بين الشرك والقتل ، فيختارون القتل على الشرك ، كما حدث من المؤمنين من أصحاب الاخدود الذين اختاروا الثبات على الايمان مع القتل ، ومن ذلك حديث كعب الذي وصف فيه الجنة ، وكان من قوله : « ان في الجنة دارا لا ينزلها الا نبي أو صدّيق أو محكَّم في نفسه » .

ولا عجب أن ينال أهل الحكمة تلك المكانة . لأنهم يتصفون بطائفة كريمة من الصفات ، ومنها التجربة ، ولذلك روى البخاري في الأدب : « لا حكيم الا ذو تجربة » . ومنها الصمت الا في الحق ، ولذلك جاء الحديث : « الصمت حكم (أي حكمة) وقليل فاعله » . ومنها خوف الله عز وجل ، ولذلك أخرج الحكيم الترمذي في النوادر : « رأس الحكمة مخافة الله » .

---

(1) سورة يوسف ، الآية ١٠٨ .

هذا ولرجال التربية الروحية كلمات بليغة في فضيلة الحكمة ، منها قول الفضيل بن عياض : « من جلس مع صاحب بدعة لم يعط الحكمة » . وجعل يوسف بن حسين الرازي الحكمة احدى المراحل الموصلة الى رضى الله ، فقال : « بالأدب تفهم العلم ، وبالعلم يصح لك العمل ، وبالعمل تنال الحكمة ، وبالحكمة تفهم الزهد ، وتوفق له ، وبالزهد تترك الدنيا ، وبترك الدنيا ترغب في الآخرة ، وبالرغبة في الآخرة تنال رضى الله » . وقال الحارث المحاسبي : « أكثر شغل الحكيم فيما يوجبه عليه الوقت ، والذي هو أولى به فيه » .

اللهم هبنا فضيلة الحكمة في ظل كتابك وهدي رسولك ، يا نعم المولى ونعم النصير .

طيب الكلام

«الطيّب» كلمة تستعمل بمعنى الحلال . وبمعنى الطاهر . وبمعنى النظيف ، والتطيب هو ازالة الخبث . والطيب في الاصل هو ما تستلذه الحواس والنفس ، والطعام الطيب في الشرع هو ما كان متناولا من حيث ما يجوز ، وبقدر ما يجوز . ومن المكان الذي يجوز . فانه متى كان كذلك كان طيبا عاجلا وآجلا ، والا فانه ــ وان كان طيبا عاجلا ــ لا يطيب آجلا . والطيب من الناس هو من تعرى من خبث الجهل والفسق وقبائح الاعمال ، وتحلى بالعلم والايمان ومحاسن الاعمال .

وطيب القول ــ أو طيب الحديث ــ فضيلة قرآنية جليلة الشأن . لأن المرء بأصغريه قلبه ولسانه ، فاذا رزقه الله تعالى قلبا طاهر الاحساس . ولسانا طيب القول ، فقد أوسع الله لعبده في الفضل والتوفيق . ولذلك يقول بعض الأئمة : « طيب الكلام من جليل عمل البر » . وان الكلمة الطيبة تعمل في الانسان عمل السحر ، فتهدىء روعه ، وتريح نفسه . وتدخل بالطمأنينة والانشراح على صدره . والتوفيق للنطق بالكلمة الطيبة هبة ربانية عظيمة الشأن ، ولذلك يقول الناس : الكلمات هبات . ولا ريب في أن الكلام هو الترجمان والدليل والبرهان على عقل الانسان وطويته ، ولذلك قيل :

ان الكلام لفي الفؤاد ، وانما　　جعل اللسان على الفؤاد دليلا

ولقد حث القرآن المجيد على طيب الكلام في كثير من آياته ، فقال في سورة آل عمران :

« وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلى الخَيْرِ ، وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ ، وَأُولَئِكَ هُمُ المُفْلِحُونَ » (١) .

ويقول في سورة النحل :

« ادْعُ إِلى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالمَوْعِظَةِ الحَسَنَةِ وَجادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ » (٢) .

ويقول في سورة فصلت :

« وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلاً مِمَّنْ دَعا إِلى اللهِ وَعَمِلَ صَالِحاً وَقالَ إِنَّنِي مِنْ المُسْلِمِينَ » (٣) .

ودعا القرآن الحكيم عباد الله الى أن يحرصوا على القول الحسن والكلام الطيب . فقال في سورة الاسراء :

« وَقُلْ لِعِبادِي يَقُولُوا الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ . إِنَّ الشَّيْطانَ

---

(١) سورة آل عمران ، الآية ١٠٤ .

(٢) سورة النحل ، الآية ١٢٥ .

(٣) سورة فصلت ، الآية ٣٣ .

يَنْزَغُ بَيْنَهُمْ ، إِنَّ الشَّيْطانَ كانَ لِلإِنْسانِ عَدُوّاً مُبِيناً » [1] .

أي قل لعبادي المؤمنين ينطقوا بالكلمة الحسنى ، وهي كلمة التوحيد والاقرار بالنبوة ، واذا جادلهم الكافر في أمر التوحيد والعقيدة ، فليقولوا له : هداك الله ، يرحمك الله .

وعليهم ــ من باب أولى ــ أن يحفظوا حسن الأدب وطيب القول فيما بينهم ، وليتذكروا أن فحش الكلام يكون من وسوسة الشيطان اللعين ، لأنه للانسان عدو مبين .

ولقد جعل القرآن الكريم طيب القول أو حسن الكلام جزءا من الميثاق أو العهد الذي أخذه على بني اسرائيل ، فقال عز من قائل في سورة البقرة :

« وَإِذ أَخَذْنا مِيثاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ : لا تَعْبُدُونَ إِلاَّ اللهَ ، وَبِالوَالِدَيْنِ إِحْساناً وَذِي القُرْبَى واليَتَامَى وَالمَسَاكِينِ ، وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْناً ، وَأَقِيمُوا الصّلاةَ وآتُوا الزَّكاةَ ، ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ إلاَّ قَلِيلاً مِنْكُمْ وَأَنْتُمْ مُعْرِضُونَ » [2] .

ويتمثل القول الأحسن في دعوة الى خير ، وأمر بمعروف ، ونهي عن منكر ، وصدق في خبر ، وتلطف في حوار ، وهكذا ...

ويقول الحق جل جلاله في سورة الحج :

« إِنَّ اللهَ يُدْخِلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصّالِحاتِ

---

(1) سورة الاسراء ، الآية ٥٣ . وينزغ بينهم : أي يفسد ويهيج الشر بينهم .
(2) سورة البقرة ، الآية ٨٣ .

جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ ، يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤاً ، وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ ، وَهُدُوا إِلَى الطَّيِّبِ مِنَ القَوْلِ ، وَهُدُوا إِلَى صِراطِ الحَمِيدِ »[1] .

والطيب من القول ــ كما ذكر هنا أهل التفسير ــ قد يكون قرآنا مرتلا ، أو تسبيحا مذكّرا ، أو تذكيرا هاديا ، ولننظر كيف عبر الذكر الحكيم هنا بكلمة « هدوا » كأن النطق بالكلمة الطيبة لون جليل من ألوان الهداية والتوفيق ، وكأن تحقيق التمسك بطيب الكلام انما هو من صفات أهل الاهتداء والاستقامة على الطريق .

ويقول الله عز شأنه في سورة فاطر :

« مَنْ كانَ يُرِيدُ العِزَّةَ فَلِلَّهِ العِزَّةُ جَمِيعاً ، إِلَيْهِ يَصْعَدُ الكَلِمُ الطَّيِّبُ ، وَالعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ ، وَالَّذِينَ يَمْكُرُونَ السَّيِّئاتِ لَهُمْ عَذابٌ شَدِيدٌ ، وَمَكْرُ أُولَئِكَ هُوَ يَبُورُ »[2] .

فانظر كيف صور النص الكريم الكلام الحسن الطيب ، كأنه قوة قادرة على الصعود والتسامي الى مواطن القبول الالهي والرضا القدسي ، أو صالحة لكي تبلغ هذا المبلغ الرفيع الكريم .

وهذا هو عبدالله بن مسعود رضي الله عنه يقول ــ كما يروي ابن كثير في تفسيره ــ : « اذا حدثناكم بحديث أتيناكم بتصديق ذلك من كتاب الله تعالى : ان العبد المسلم اذا قال : سبحان الله وبحمده والحمد لله ، ولا

---

(١) سورة الحج ، الآية ٢٣ ، ٢٤ .
(٢) سورة فاطر ، الآية ١٠ .

اله الا الله ، والله أكبر ، تبارك الله . أخذهن مَلَك" فجعلهن تحت جناحه، ثم صعد بهن الى السماء ، فلا يمر بهن على جمع من الملائكة الا استغفروا لقائلهن ، حتى يجيء بهن وجه الله عز وجل » .

ثم قرأ عبدالله بن مسعود قول ربه تبارك وتعالى :

« إِلَيْهِ يَصْعَدُ الكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ » .

ويقول عبدالله بن عباس رضي الله عنهما : « الكلم الطيب ذكر الله تعالى ، يصعد به الى الله عز وجل ، والعمل الصالح أداء الفريضة ، فمن ذكر الله تعالى في أداء فرائضه ، حمل عمله ذكر الله تعالى ، يصعد به الى الله عز وجل ، ومن ذكر الله تعالى ولم يؤد فرائضه ، ردّ كلامه على عمله، فكان أولى به » .

وفي سورة ابراهيم يقول الذكر المجيد :

« أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللهُ مَثَلاً كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُها ثابِتٌ وَفَرْعُها فِي السَّماءِ ، تُؤْتِي أُكُلَها كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّها ، وَيَضْرِبُ اللهُ الأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ، وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ اجْتُثَّتْ مِنْ فَوْقِ الأَرْضِ مَا لَها مِنْ قَرارٍ ، يُثَبِّتُ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا بالقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الحَياةِ الدُّنْيا وَفِي الآخِرَةِ ، وَيُضِلُّ اللهُ الظَّالِمِينَ وَيَفْعَلُ اللهُ ما يَشاءُ » (١) .

---

(١) سورة ابراهيم ، الآيات ٢٤ ــ ٢٧ .

وقد قيل في التفسير ان المراد هنا بالكلمة الطيبة هي شهادة التوحيد، وقيل ان المؤمن بقوله الطيب وعمله الصالح كشجرة النخلة لا ينقطع لها اثمار ، وكأن الكلمة الطيبة تفيد وتنفع كما تفيد الشجرة وتنفع .

ويروى عن عبدالله بن عمر رضوان الله عليهما انه قال : كنا عند رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال : أخبروني عن شجرة تشبه الرجل المسلم ، لا يتحات ورقها صيفا ولا شتاء ، وتؤتي أكلها كل حين باذن ربها. فوقع في نفسي أنها النخلة ، ورأيت أبا بكر وعمر لا يتكلمان ، فكرهت أن أتكلم .

فلما لم يقولوا شيئا قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : هي النخلة.

فلما قمنا قلت لعمر: يا أبتاه ، والله لقد كان وقع في نفسي أنها النخلة.

قال : ما منعك أن تتكلم ؟.

قلت : لم أركم تتكلمون فكرهت أن أتكلم أو أقول شيئا .

قال عمر : لأن تكون قلتها أحب اليّ من كذا وكذا .

والكلمة الطيبة ـ كما يعبر بعض المفسرين ـ تشبه الشجرة الطيبة ، فهي ثابتة سامقة مثمرة ، لا تزعزعها الاعاصير ، ولا تعصف بها رياح الباطل، ولا تقوى عليها معاول الطغيان ، وهي سامقة متعالية على الشر والظلم والطغيان ، مثمرة لا ينقطع ثمرها ، لأن بذورها تنبت في النفوس المتكاثرة آنا بعد آن .

وان الكلمة الخبيثة كالشجرة الخبيثة ، قد تهيج وتتعالى وتتشابك ، ويخيل الى بعض الناس أنها أضخم من الشجرة الطيبة وأقوى ، ولكنها تظل نافشة هشة ، وتظل جذورها في التربة قريبة ، حتى لكأنها على وجه الارض ، وما هي الا فترة ثم تجتث وتستؤصل من فوق الارض ، فلا قرار لها ولا بقاء .

وفي ظل الشجرة الثابتة التي ضُربت مثلا للكلمة الطيبة « يثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت في الحياة الدنيا وفي الآخرة » . وفي ظل الشجرة الخبيثة المجتثة من فوق الارض ما لها من قرار ولا ثبات « يضل الله الظالمين » بتجاوزهم حدود الطريق ، وبعدهم عن النور الهادي ، « ويفعل الله ما يشاء » .

واذا كان القرآن الكريم قد حض على التمسك بفضيلة طيب الكلام، لأنه عنوان النفس الطاهرة ، فانه مع هذا قد حذر مما ينحرف باللسان الى ما لا يليق من الكلام ، ولذلك قال القرآن الكريم ضمن صفات المؤمنين :

« وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ »[1]

واللغو من الكلام هو ما لا يعتد به ولا فائدة فيه ولا يليق بالمسلم أن يردده ، ويطلق اللغو على الكلام القبيح والقول الخبيث •

وكذلك يقول القرآن في سورة النساء :

« لا يُحِبُّ اللهُ الجَهْرَ بالسُّوءِ مِنَ القَوْلِ إلاَّ مَنْ ظُلِمَ وَكانَ اللهُ سَميعاً عَلِيماً »[2] .

وهو بذلك ينفر من النطق بالكلام السيء الذي يتضمن سبا أو شتما أو طعنا ، اللهم في موطن القضاء أو الدفاع عن الناس أو مقاومة الظالم ، اذ ليس معنى طيب القول أن يضعف المسلم ، أو يتخاذل أمام اعتداء عليه ، أو اغتصاب لحقه ، والكلمة الطيبة قد تكون قوية صارمة رادعة في الموطن المناسب لذلك ، ومن هنا

---

(١) سورة المؤمنون ، لآية ٣ .
(٢) سورة النساء ، الآية ١٤٨ .

قال سيدنا رسول الله عليه الصلاة والسلام : « أفضل الجهاد كلمة حق عند سلطان جائر » .

وطيب القول يستلزم الصدق فيه، والابتعاد عن الكذب ، لأن الكلمة لا تكون طيبة الا اذا كانت صادقة ، ومن هنا قال الرسول صلوات الله وسلامه عليه : « واياكم والكذب ، فان الكذب يهدي الى الفجور » . ولا يتفق الفجور مع الفضيلة بحال من الاحوال .

والقرآن يشير الى الثواب العظيم الذي يترتب على الكلمة الناطقة بالحق ، المتحلية بالرشد والصدق ، فيقول في سورة الاحزاب :

« يا أَيُّها الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللهَ وَقُولُوا قَوْلاً سَدِيداً ، يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمالَكُمْ ، وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ، وَمَنْ يُطِعِ اللهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فازَ فَوْزاً عَظِيماً » [1] .

***

وقد أمر الله في كتابه المسلمين بأن يحرصوا كل الحرص على أدب الحديث وطيب القول وحسن الكلام عند مخاطبة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال القرآن في سورة الحجرات :

« يا أَيُّها الَّذِينَ آمَنُوا لا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ ولا تَجْهَرُوا لَهُ بِالقَوْلِ كَجَهْرِ بعضِكُمْ لِبَعْضٍ أَنْ تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ وَأَنْتُمْ لا تَشْعُرُونَ ، إِنَّ الَّذِينَ يَغُضُّونَ

---

(١) سورة الاحزاب ، الآيتان ٧٠ و٧١ .

أَصْوَاتَهُمْ عِنْدَ رَسُولِ اللهِ أُولَئِكَ الَّذِينَ امْتَحَنَ اللهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَى لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ » [1] .

ومراعاة هذه الفضيلة في حق رسول الله عليه الصلاة والسلام ما زالت قائمة ، فلا ينبغي أن يرفع المسلم صوته في مسجد الرسول ، ولا عند قبره الشريف ، وقد روي عن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضوان الله عليه أنه سمع صوت رجلين في مسجد النبي صلى الله عليه وسلم ، وقد ارتفع صوتهما ، فجاءهما مغضبا وقال لهما : أتدريان أين أنتما ؟ .

ثم قال لهما : من أين أنتما ؟

قالا : من أهل الطائف .

فقال : لو كنتما من أهل المدينة لاوجعتكما ضربا .

ولذلك قرر العلماء أنه يكره رفع الصوت عند قبر النبي صلى الله عليه وسلم ، كما كان يكره في حياته ، لأنه محترم حيا وفي قبره دائما .

ومن شواهد الحض على طيب القول مع الرسول عليه الصلاة والسلام قول القرآن :

« يا أَيُّها الَّذِينَ آمَنُوا لاتَقُولُوا راعِنا وَقُولُوا انْظُرْنا» [2] .

و « راعنا » كلمة كانت تدور على ألسنة الصحابة في مخاطبتهم رسول الله ، ومعناها : راعنا سمعك ، أي اسمع لنا .

ولكن القرآن نهى المسلمين عن قول هذه الكلمة « راعنا » لأنها

---

(١) سورة الحجرات ، الآيتان ٢ و٣ .
(٢) سورة البقرة ، الآية ١٠٤ .

صارت غير طيبة ، حيث استغلها لئام اليهود ، ولووا بها ألسنتهم ، لتوافق كلمة سب عندهم في العبرية .

وأقل ما يقال في شأن رسول الله أنه معلم ، وان المسلمين تلاميذه ، ولا يليق من التلميذ أن يخاطب أستاذه مخاطبة الانداد للانداد ، ولذلك جاء في «تفسير المنار» هذه العبارة :

« لا شك أن من يعامل أستاذه ومرشده معاملة المساواة في القول والعمل ، يقل احترامه له ، وتزول هيبته من نفسه ، حتى تقل الاستفادة منه أو تعدم . واذا لم تزل الاستفادة منه ، من حيث كونه معلما ، فانها تقل وتزول لا محالة من حيث كونه مربيا ، لأن المدار في التربية على التأسي والقدوة ، ومن أراه مثلي لا أرضاه اماما ولا قدوة لي ، فان رضيته بالمواضعة والتقليد ، وكذبتني المعاملة ، فأي قيمة لهذا الرضى ، والعبرة بما في الواقع ونفس الأمر ، وهو أن من اعتقد ان امرأ فوقه علما وكمالا ، وأنه في حاجة الى الاستفادة من علمه وارشاده ، ومن أخلاقه وآدابه ، فانه لا يستطيع أن يسوي نفسه به في المعاملة القولية ولا الفعلية ، الا ما يكون من فلتات اللسان ومن اللمم[١] .

وعن مثل هذا نهي الصحابة رضي الله عنهم ، لئلا يجرهم الأنس به صلى الله عليه وسلم وكرم أخلاقه الى تعدي حدود الادب الواجب معه ، الذي لا تكتمل التربية الا بكماله ، وهو تعالى يقول :

« لَقَدْ كانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ »[٢] .

* * *

(١) اللمم : صغائر الذنوب .
(٢) سورة الاحزاب ، الآية ٢١ .

والقرآن الكـريم يدعو الى الاستمساك بفضيلة طيب القـول مـع الوالدين ، لعظيم شأنهما ورفيع مكانتهما ، ولذلك يقول في سورة الاسراء:

« وَقَضى رَبُّكَ أَلا تَعْبُدُوا إلا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَاناً ، إِمّا يَبْلُغَنَّ عِنْدَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُما أَوْ كِلاهُما ، فَلا تَقُلْ لَهُمَا أُفٍّ وَلاَ تَنْهَرْهُما ، وَقُلْ لَهُمَا قَوْلاً كَرِيماً ، وَاخْفِضْ لَهُما جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ ، وَقُلْ رَبِّ ارْحَمْهُما كَما رَبَّياني صغيراً »[1] .

فحذر القرآن أن يسيء الولد الخطاب مع أبويه ، ولو بما يكون فيه أقل تبرم بهما ، وهو لفظ « أف » ، ونهاه عن أن يزجرهما أو يغلظ عليهما بقول أو عمل أو اشارة ،وطالبه بأن يقول لهما قولا طيبا لطيفا . وأن يدعو لهما ، مثل قوله : رب ارحمهما كما ربياني صغيرا .

ويدعو كتاب الله تعالى الى التمسك بفضيلة « طيب القـول » مـع اليتامى . فيخاطب الناس في شأن هؤلاء الضعفاء قائلا في سورة النساء :

« وَلْيَخْشَ الَّذِينَ لَوْ تَرَكُوا مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً ضِعَافاً خافُوا عَلَيْهِمْ فَلْيَتَّقُوا اللهَ وَلْيَقُولُوا قَوْلاً سَدِيداً »[2] .

أي قولا طيبا عادلا موافقا للدين ، يقاوم المفسدة ، ويحفظ المصلحة.

ويقول القرآن أيضا للناس في شأن اليتامى :

---

(١) سورة الاسراء ، الآيتان ٢٣ و٢٤ .
(٢) سورة النساء ، الآية ٩ .

« وَلاَ تُؤْتُوا السُّفَهَاءَ أَمْوَالَكُمُ الَّتِي جَعَلَ اللهُ لَكُمْ قِيَاماً وَارْزُقُوهُمْ فِيها وَاكْسُوهُمْ ، وَقُولُوا لَهُمْ قَوْلاً مَعْرُوفاً » [1] .

أي كلاما طيبا له فائدته ، ولهم فيه مصلحة ، ويقول الامام محمد عبده : « المعروف هو ما تعرفه النفوس الكريمة وتألفه ، ويقابله المنكر ، وهو ما تنكره وتمجه . فالمعروف هنا يشمل تطييب النفوس بافهام السفيه أن المال ماله ، لا فضل لأحد في الانفاق منه عليه ، ليسهل عليه الحجز . ويشمل النصح والارشاد وتعليم ما ينبغي أن يعلمه السفيه وما يعده للرشد ، فان السفه كثيرا ما يكون عارضا للشخص لا فطريا ، فاذا عولج بالنصح والتأديب حسنت حاله ، فهذا هو القول المعروف الذي أمر الله أولياء السفهاء به ، زيادة على حفظ أموالهم وتثميرها ، والانفاق عليهم منها » .

ويدعو القرآن الى طيب القول مع السائلين ، فيقول في سورة البقرة:

« قَوْلٌ مَعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِنْ صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَا أَذىً » [2] .

أي ان الكلام الجميل الذي تقبله النفوس ، ولا تنكره القلوب الذي ترد به السائل من غير عطاء ، مع ستر حاله وغفران الحاحه ، خير من أن تعطيه شيئا ، ثم تتبعه بالاذى في القول أو العمل .

ويقول القرآن في سورة الاسراء :

« وَإِما تُعْرِضَنَّ عَنْهُمُ ابْتِغَاءَ رَحْمَةٍ مِن رَبِّكَ تَرْجُوها فَقُلْ لَهُمْ قَوْلاً مَيْسُوراً » [3] .

---

(1) سورة النساء ، الآية ٥ .
(2) سورة البقرة ، الآية ٢٦٣ .
(3) سورة الاسراء ، الآية ٢٨ .

والخطاب هنا من الله لرسوله ، أي اذا أعرضت يا محمد عن اعطاء سائليك لضيق يدك ، وعدم وجود شيء عندك ، فقل لهم قولا طيبا لينا لطيفا . أي أحسن القول ، وابسط لهم العذر ، وادع لهم بسعة الرزق ، وقل لهم مثلا : اذا جاءني من فضل الله شيء أعطيتكم . أو قل لهم : يرزقنا الله واياكم من فضله ..

ولقد أحسن من قال في هذا المجال :

الا تكن وَرِق" يوما أجود بها ... للسائلين ، فاني لين العود
لا يعدم السائلون الخير منخُلقي ... إما نوالي،وإما حسن مردودي

و « الورق » ـ بفتح فكسر ـ هي الفضة ، ويقصد بها النقود . والمردود : يعني الرد .

* * *

ويدعو القرآن الى طيب القول حتى مع المخالف في الدين والاعتقاد، فيقول في سورة العنكبوت :

« وَلاَ تُجَادِلُوا أَهْلَ الكِتَابِ إلاَّ بالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ، إلاَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ ، وَقُولُوا آمَنَّا بالَّذِي أُنْزِلَ إلينا وَأُنْزِلَ إلَيْكُمْ ، وَإلٰهُنَا وَإلٰهُكُمْ وَاحِدٌ ، وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ »[1] ..

بل وأكثر من هذا ، ان القرآن يدعو الى طيب القول مع طاغي الطغاة، مع فرعون ، فالله تعالى يقول لموسى وهارون في سورة طه :

---

(١) سورة العنكبوت ، الآية ٤٦ .

« اذْهَبا إلى فِرْعَوْنَ إنَّهُ طَغَى ، فَقُولا لَهُ قَوْلاً لَيِّناً لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى »[1] .

* * *

ثم تأتي السنة النبوية المطهرة على صاحبها أفضل الصلاة والسلام :

لقد كان الرسول مثلا أعلى في طيب القول ولين الكلام وسهولة المعاملة . حتى وصفه الله تعالى بقوله :

« فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللهِ لِنْتَ لَهُمْ ، وَلَوْ كُنْتَ فَظّاً غَلِيظَ القَلْبِ لانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ »[2] .

وحث الرسول كثيرا على فضيلة طيب القول فقال : « من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيرا أو ليصمت » .

وجاءت هذه الطائفة الكريمة من الاحاديث :

« كفَّ لسانك الا من خير » .

« أفش السلام ، وأطب الكلام » .

« لا يستقيم ايمان عبد حتى يستقيم قلبه . ولا يستقيم قلبه ، حتى يستقيم لسانه » .

« اتقوا النار ولو بشق تمرة ، فان لم يكن فبكلمة طيبة » .

« الكلمة الطيبة صدقة » .

---

(١) سورة طه ، الآيتان ٤٣ و٤٤ .

(٢) سورة آل عمران ، الآية ١٥٩ .

« ثلاث تصفين لك ودّ أخيك : تسلّم عليه اذا لقيته ، وتوسع له في المجلس ، وتدعوه بأحب أسمائه اليه » .

« المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده » .

وكما حث الرسول على طيب القول بهذه الصورة الرائعة حذر من الكذب والاختلاق، وقال فيما قال : «بئس مطية الرجل زعموا» لأن الزعم ليس قائما على الصدق أو اليقين .

أما بعد ، فليت كل مسلم يعود لسانه طيب المقال وحسن الكلام ، وأن يتذكر على الدوام قول خالقه جل جلاله :

« مَا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إلاَّ لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ » [1] .

---

(١) سورة ق ، الآية ١٨ .

الدفع بالحسنى

مادة « الدفع » في اللغة العربيــة تدل في الاصل عــلى ردّ الشيء بقوة ، ويقال : دفع فلان عن عرضه أو شرفه أو ماله ، أي حماه وصانه ، وصرف عنه الشر والأذى ، والله جل جلاله يدافع عن أوليائه ، أي يحميهم ويكفيهم شر أعدائهم ، وقد جاء في سورة الحج :

« إِنَّ اللهَ يُدَافِعُ عَنِ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ اللهَ لا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٍ كَفُورٍ » [1] .

وقد جاءت مادة « الدفع » في عدة آيات من الكتاب الحكيم ، ففي سورة آل عمران :

« وَقِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا قَاتِلُوا في سَبِيلِ اللهِ أَوِ ادْفَعُوا » [2] .

وفي سورة البقرة :

« وَلَوْلاَ دَفْعُ اللهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَفَسَدَتِ الأَرْضُ ،

(١) سورة الحج ، الآية ٣٨ .
(٢) سورة آل عمران ، الآية ١٦٧ .

وَلَكِنَّ اللهَ ذُو فَضْلٍ عَلى العَالَمِينَ » [1] .

وفي سورة الحج :

« وَلَوْلاَ دَفْعُ اللهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَهُدِّمَتْ صَوامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيها اسْمُ اللهِ كَثيراً وَلَيَنْصُرَنَّ اللهُ مَنْ يَنْصُرُهُ إنَّ اللهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ » [2] .

وفي سورة الطور :

« إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَاقِعٌ ، مَا لَهُ مِن دَافع » [3] .

و « الحسنى » من مادة الحُسن ، والحسن هو كون الشيء جميلا ومقبولا مرغوبا فيه ، ويكون في الحسيات والمعنويات ، ويقال لكل من النعمة والخير والطاعة والمثوبة حسنة . والأحسن : أفعل تفضيل من الحسن. والحسنى مؤنث الاحسن ، أي الحالة الفضلى والطريقة الخيِّرة . وأسماء الله الحسنى ، هي الاسماء البالغة في الدلالة على العظمة ، وقد وردت مادة « الحسنى » في القرآن المجيد في جملة مواطن ، ففي سورة الاعراف :

« وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ الحُسْنَى » [4] .

وفي سورة التوبة :

---

(١) سورة البقرة ، الآية ٢٥١ .
(٢) سورة الحج ، الآية ٤٠ .
(٣) سورة الطور ، الآيتان ٧ و٨ .
(٤) سورة الاعراف ، الآية ١٣٧ .

« قُلْ هَلْ تَرَبَّصُونَ بِنا إلاَّ إحْدَى الحُسْنَيَيْنِ » [1] .

وفي سورة يونس :

« للَّذينَ أَحْسَنُوا الحُسْنَى وَزِيَادَةٌ » [2] .

وفي سورة الرعد :

« لِلَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمُ ٱلْحُسْنَى » [3] .

وفي سورة الانبياء :

« إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُمْ مِنَّا الحُسْنَى أُولَئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ » [4] .

وفي سورة الليل :

« فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَاتَّقَى ، وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى ، فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَى » [5] .

والدفع بالحسنى ، أو بالتي هي أحسن ، فضيلة اسلامية جليلة يعرف قدرها وأثرها الاخيار من الناس ، والدفع بالحسنى خلق مجيد من أخلاق القرآن ، يحث صاحبه على أن يعامل الناس أطيب معاملة ، وأن يلقاهم

---

(١) سورة التوبة ، الآية ٥٢ .
(٢) سورة يونس ، الآية ٢٦ .
(٣) سورة الرعد ، الآية ١٨
(٤) سورة الانبياء ، الآية ١٠١ .
(٥) سورة الليل ، الآيات ٥ ـ ٧ .

أحسن اللقاء ، وأن يقابلهم بالجميل حتى ولو أساءوا في بعض الاحيان . وان يحتمل منهم ما يبدر عنهم من هنات قابلة للاحتمال .

وها هوذا القرآن الكريم يتحدث عن هذه الفضيلة فيقول في سورة المؤمنين :

« ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ السَّيِّئَةَ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَصِفُونَ »[1] .

ويتعرض شيخ المفسرين ابن جرير الطبري للحديث عن هذه الآية فيقول فيما يقول : « يقول الله تعالى ذكره لنبيه : ادفع يا محمد بالخَلَّة التي هي أحسن ، وذلك الاغضاء والصفح عن جهلة المشركين ، والصبر على أذاهم ، وذلك أمره اياه قبل أمره بحربهم . وعنى بالسيئة أذى المشركين اياه ، وتكذيبهم له فيما أتاهم به من عند الله . يقول تعالى ذكره : اصبر على ما تلقى منهم في ذات الله ... » .

ثم يضيف : « نحن أعلم بما يصفون الله به ، وينحلونه من الاكاذيب والفرية عليه ، وبما يقولون فيك من السوء ، ونحن مجازوهم على جميع ذلك ، فلا يحزنك ما تسمع منهم من قبيح القول » .

ويذكر ابن كثير أن الله تعالى يرشد نبيه صلى الله عليه وسلم الى الترياق النافع في مخالطة الناس ، وهو الاحسان الى من يسيء اليه . ليستجلب خاطره ، فتعود عداوته صداقة ، وبغضه محبة ، ولذلك قال : « ادفع بالتي هي أحسن السيئة » .

ويتعرض النيسابوري في « غرائب القرآن » لهذه الآية الكريمة ،

---

(١) سورة المؤمنون ، الآية ٩٦ .

فيقول : « أمره بالصفح عن سيئاتهم ، ومقابلتها بما يمكن من الاحسان ، حتى اذا اجتمع الصفح والاحسان ، وبذل الاستطاعة فيه ، كان أحسن ، لانها حسنة مضاعفة بازاء سيئة ، أو تقول : المكافأة حسنة ، ولكن العفو أحسن » .

ويروى عن ابن عباس ان الحسنة المرادة هنا هي شهادة أن لا اله الا الله ، وأن السيئة هي الشرك . وعن مجاهد أن الحسنة هي أن يسلم عليه اذا لقيه . واذا كان هناك من قال ان هذه الآية منسوخة بآية السيف ، فان الاولى أن يقال انها محكمة ، لان المداراة مستحبة ، ما لم تؤد الى محذور. وقد يؤكد هذا قوله تعالى في ختام الآية : « نحن أعلم بما يصفون » أي يفترونه عليك ، وهو أقدر على جزائهم ، فليفوض أمرهم الى الله ، وليدفع أذاهم بالكلام الجميل ، والسلام ، وبيان الادلة على أحسن الوجوه .

ويعود التنزيل المجيد الى الحث على فضيلة الدفع بالحسنى ، وذلك في سورة فصلت حيث يقول :

« وَلا تَسْتَوِي الحَسَنَةُ وَلا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَداوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ ، وَما يُلَقَّاها إِلا الَّذِينَ صَبَرُوا وَما يُلَقَّاها إِلاَّ ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ »[1] .

ويذكر ابن كثير أن هناك فرقا عظيما بين الحسنة والسيئة ، فهما لا تستويان أبدا ، واللائق بالمسلم أن يدفع بالتي هي أحسن ، فمن أساء اليك فادفعه عنك بالاحسان اليه ، وهذا عمر الفاروق يقول لك : « ما

---

(١) سورة فصلت ، الآيتان ٣٤ و٣٥ .

عاقبتِ من عصى الله فيك بمثل أن تطيع الله فيه » .

وأنت اذا أحسنت الى من أساء اليك قادته تلك الحسنة الى مصافاتك ومحبتك والحنو عليك ، حتى يصير كأنه صديق قريب اليك من الشفقة عليك والاحسان معك ، وهذه فضيلة لا يؤدي حقوقها الا من كان صاحب نصيب وافر من التوفيق والسعادة في الدنيا والآخرة .

وفي موطن آخر يقول ابن كثير انه لا يلهم هذه الوصية ، أو هذه الخصلة ، أو هذه الصفة ، الا الذين صبروا على أذى الناس ، فعاملوهم بالجميل أمام القبيح منهم . والصبر هنا يشمل الاحتمال والحلم والعفو وضبط النفس وقوة الارادة ، ولذلك يقول ابن عباس : « أمر الله المؤمنين بالصبر عند الغضب ، والحلم عند الجهل ، والعفو عند الاساءة ، فاذا فعلوا ذلك عصمهم الله من الشيطان ، وخضع لهم عدوهم كأنه ولي حميم » .

ومما ينبغي تدبره والاعتبار به ان سورة فصلت بعد ان تورد الامر بالدفع بالتي هي أحسن ، تقول عقب ذلك مباشرة : « واما ينزغنك من الشيطان نزغ فاستعذ بالله انه هو السميع العليم» وكأن السورة تريد أن تقول لنا ان الشيطان بنزغه واضلاله وافساده هو الذي يزين للانسان أن يدفع بالتي هي أسوأ ، والواجب على المسلم أن يحذر نزغ الشيطان ووسوسته ، حتى لا ينحرف عن سواء السبيل .

ولذلك نراه أيضا يقول في سورة الاعراف :

« خُذِ العَفْوَ وَأْمُرْ بِالعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الجَاهِلِينَ ، وَإِمَّا يَنْزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللهِ ، إِنَّهُ سَمِيعٌ

عَلِيمٌ » (١) .

وكذلك يقول في سورة المؤمنون :

« ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ السَّيِّئَةَ نَحْنُ أَعْلَمُ بِما يَصِفُونَ ، وَقُلْ رَبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَاتِ الشَّيَاطِينِ ، وَأَعُوذُ بكَ أَنْ يَحْضُرُونِ » (٢) .

ها نحن أولاء نرى في المواطن الثلاثة أن القرآن الحكيم يحذر من نزغ الشيطان الذي يحرض الانسان على أن يدفع بالسيئة ، مع أن القرآن يوصيه أن يدفع بالتي هي أحسن .

* * *

وحسب فضيلة « الدفع بالحسنى » شرفا وعلوّ مكانة وسمو منزلة أن يحكم عليها أصدق القائلين بأنها فضيلة لا يتمرس بأسبابها الا أهل الصبر على المكاره ، والثبات على المشاق ، والذين لهم نصيب كبير في المبرات والمكارم ، فيقول بعد آية الدفع بالحسنى :

« وَمَا يُلَقَّاها إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا ، وَمَا يُلَقَّاها إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ » (٣) .

وقد أمر القرآن المجيد بالدفع بالحسنى في القول ، فجاء في سورة البقـرة :

---

(١) سورة الاعراف ، الآيتان ١٩٩ و ٢٠٠ .
(٢) سورة المؤمنون ، الآيات ٩٦ ـ ٩٨ .
(٣) سورة فصلت ، الآية ٣٥ .

« وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْناً » [1] .

وجاء فيها :

« قَوْلٌ مَعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِنْ صَدَقَةٍ يَتْبَعُها أَذًى وَاللهُ غَنِيٌّ حَلِيمٌ » [2] .

وجاء في سورة الاسراء :

« وَقُلْ لِعِبَادِي يَقُولُوا الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ، إِنَّ الشَّيْطانَ يَنْزَغُ بَيْنَهُمْ ، إِنَّ الشَّيْطَانَ كانَ لِلإِنْسانِ عَدُوّاً مُبِيناً » [3] .

ولنتدبر كيف جاء هنا الحديث عن نزغ الشيطان وعداوته للانسان بعد الدعوة الى الدفع بالتي هي أحسن في القول ، ولنربط ذلك بما سبق أن دللنا عليه من أن الشيطان هو الذي يحرض الانسان على الدفع بالتي هي أسوأ » .

كما جاء في سورة الفرقان :

« وَعِبادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الأَرْضِ هَوْناً وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الجَاهِلُونَ قَالُوا سَلاماً » [4] .

وجاء في سورة العنكبوت :

---

(١) سورة البقرة ، الآية ٨٣ .
(٢) سورة البقرة ، الآية ٢٦٣ .
(٣) سورة الاسراء ، الآية ٥٣ .
(٤) سورة الفرقان ، الآية ٦٣ .

« وَلاَ تُجَادِلُوا أَهْلَ الكِتابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ »[1] .

واذا كان القرآن قد أباح للانسان أن يأخذ حقه في معاقبة من اعتدى عليه ، فانه يضيف الى ذلك ان المقابلة بالحسنى خير وأفضل ، فيقول في سورة النحل :

« وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعاقِبُوا بِمِثْلِ ما عُوقِبْتُمْ بِهِ وَلَئِنْ صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِلصَّابِرِينَ ، وَاصْبِرْ وَما صَبْرُكَ إِلَّا بِاللهِ وَلا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلا تَكُ فِي ضِيقٍ مِمَّا يَمْكُرُونَ ، إِنَّ اللهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوا وَالَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ »[2] .

ويقول في سورة الشورى :

« وَجَزَاءُ سَيِّئَة سَيِّئَةٌ مِثْلُها فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلى اللهِ إِنَّهُ لا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ ، وَلَمَنِ انْتَصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِ فَأُولَئِكَ ما عَلَيْهِمْ مِنْ سَبِيلٍ ،إِنَّما السَّبِيلُ عَلى الَّذِينَ يَظْلِمُونَ النَّاسَ وَيَبْغُونَ فِي الأَرْضِ بِغَيْرِ الحَقِّ أُولئِكَ لَهُمْ عَذابٌ أَلِيمٌ ، وَلَمن صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الأُمورِ »[3] .

ومع ادراكنا هذا ينبغي أن ندرك أن الدفع بالتي هي أحسن لا يليق عند الاعتداء على العقيدة ، أو مع الخارجين على أمر الله بغيا وعدوانا ، أو

(١) سورة العنكبوت ، الآية ٤٦ .
(٢) سورة النحل ، الآيات ١٢٦ ــ ١٢٨ .
(٣) سورة الشورى ، الآيات ٤٠ ــ ٤٣ .

الخائنين للامة والوطن ، فهؤلاء المتمردون المتجبرون لا بد من أخذهم أخذا وبيلا ، وعقابهم عقابا أليما ، والا ضاعت الحرمات وتهدم المجتمع .

ان الدفع بالحسنى لا يتعارض مع تأديب الفاسقين ، وكبح جماح المتجبرين ، ومقاومة العتاة الطاغين . فانما يجمل الدفع بالحسنى مع الذين يصلح شأنهم بذلك الاسلوب ، واما الذين يتمردون ويتجبرون ويتجردون من دواعي الاستجابة لروح المعاملة بالحسنى . فأولئك يستحقون الردع والقمع ، ومن هنا جاء قول الله العظيم لنبيه الرحيم :

« يا أَيُّها النَّبِيُّ جاهِدِ الكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ ، وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ المَصِيرُ » [1] .

ويجمل بنا ان تتذكر كلمة العربي الذي قال : « اللهم من ظلمني مرة فاجزه ، ومن ظلمني مرتين فاجزني ولا تجزه ، ومن ظلمني ثلاث مرات فاجزني ولا تجزه » . ويا لها من كلمة ذات مدلول عميق !.

* * *

واذا انتقلنا من مائدة القرآن الكريم الى روضة السنة المطهرة وجدنا لرسول الله صلى الله عليه وسلم طائفة من الاحاديث الكريمة التي توجه الى الدفع بالحسنى في شتى ميادين الحياة : في القول والعمل ، في السلوك والمعاملة ، ومنها هذه الرقائق السامية :

« من أقال مسلما عثرته أقال الله عثراته يوم القيامة » .

« اتق الله حيثما كنت ، واتبع السيئة الحسنة تمحها ، وخالق الناس بخلق حسن » .

---

(١) سورة التوبة ، الآية ٧٣ .

« لا يحل لمسلم أن يهجر أخاه المسلم فوق ثلاث ليال : يلتقيان فيعرض هذا ويعرض هذا ، وخيرهما الذي يبدأ بالسلام » .

« من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيرا ، أو ليصمت » .

* * *

ومن وراء روضة السنة تطالعنا هـذه الكلمات الرقيقـة المحببة في فضيلة الدفع بالحسنى ، كتلك الكلمة النبيلة المنسوبة الى عبدالله ورسوله عيسى بن مريم عليه الصلاة والسلام ، وفيها يقول : « ليس الاحسان أن تحسن الى من أحسن اليك ، فتلك مكافأة [1] ، وانما الاحسان أن تحسن الى من اساء اليك » .

وكقول سعيد بن العاص : « ما شاتمت أحدا مذ صرت رجلا ، لأني لا أشاتم الا أحد رجلين : اما كريما فأنا أحق أن أحتمله ، أو لئيما فأنا أول من يرفع رأسه عنه » .

* * *

ويمكننا أن نلقي نظرة الى طريقة الصوفيـة الخاصـة بهم في فهـم « الدفع بالحسنى » ، فنقرأ الآية الكريمـة الواردة في سورة المؤمنون : « ادفع بالتي هي أحسن السيئة نحن أعلم بما يصفون » ثم نعـود الى القشيري لنجده في تفسيره « لطائف الاشارات » يقول عن الآية :

« الهمزة في (أحسن) يجوز ألا تكون للمبالغة ، ويكون المعنى : ادفع بالحسن السيئة . أو أن تكون للمبالغة ، فتكون المكافأة[1] جائزة ، والعفو عنها ــ في الحُسْنِ ــ أشدّ مبالغة .

---

(١) المراد بالمكافأة هنا هو مقابلة السيئة بسيئة مثلها .

ويقال : ادفع الجفاء بالوفاء ، وجُرمَ أهل العصيان بحكم الاحسان.

ويقال : ادفع ما هو حظك ، اذا حصل ما هو حق لك .

ويقال : اسلك مسلك الكرم ، ولا تجنح الى طريق المكافأة .

ويقال : الأحسنُ ما أشار اليْه القلب ، والسيئة ما تدعو اليه النفس.

ويقال : الأحسن ما كان باشارة الحقيقة ، والسيئة ما كان بوساوس الشيطان .

ويقال : الأحسن نور الحقائق ، والسيئة ظلمة الخلائق » .

ونقرأ الآيتين الواردتين في سورة فصلت : « ولا تستوي الحسنة ولا السيئة ، ادفع بالتي هي أحسن ، فاذا الذي بينك وبينه عداوة كأنه ولي حميم ، وما يلقاها الا الذين صبروا ، وما يلقاها الا ذو حظ عظيم » .
ونعود الى « لطائف الاشارات » لنجد فيه هذه العبارة :

« قوله جل ذكره : (ولا تستوي الحسنة ولا السيئة ادفع بالتي هي أحسن) الآية : ادفع بالخصلة التي هي أحسن السيئة ، يعني بالعفو عن المكافأة [1] ، وبالتجاوز والصفح عن الزلة ، وترك الانتصاف . (فاذا الذي بينك وبينه عداوة كأنه ولي حميم) : يشبه الوليّ الحميم ، ولم يصر وليا مخلصا ، وهذا من جملة حسن الادب في الخدمة في حق صحبتك مع الله، تحلم مع عباده لاجله ، ومن جملة حسن الخُلُق في الصحبة مع الخَلْق ألا تنتقم لنفسك ، وأن تعفو عن خصمك .

قوله جل ذكره : (وما يلقاها الا الذين صبروا وما يلقاها الا ذو حظ عظيم) : لا يقوم بحق هذه الاخلاق الا من أكرم بتوفيق الصبر ، ورُقّي

---

(١) المراد بالمكافأة هنا هو مقابلة السيئة بسيئة مثلها .

عن سفساف الشيم الى معالي الأخلاق ، ولا يصل أحسن الدرجات الا من صبر على مقاساة الشدائد » .



وحين نجول في روضة الادب العربي الذي نزل بلغته القرآن المجيد تلقانا فيها رياحين مزهرة وثمرات يانعة ، تحببنا في فضيلة الدفع بالحسنى، فهذا شاعر يترجم عن نفسه العالية القادرة على الانتصاف والانتقام ، ولكنه يتحصن بحلمه ورزانته ، ويتجلى فيه التسامي على سفاهة السفهاء، فيقول :

وجهل رددناه بفضل حلومنا ... ولو أننا شئنا رددناه بالجهل
رجحنا وقد خفت حلوم كثيرة[1] ... وعدنا على أهل السفاهة بالفضل

وهذا ثان يضرب مثلا رائعا في الدفع بالتي هي أحسن ، فيعطي قومه كل ما يستطيع ، ويضحي من أجلهم بكل ما يقدر عليه ، ويعطي ولا ينتظر أن يأخذ ، ويحسن ولا يتوقع المقابلة بالمثل ، فيقول :

وان الذي بيني وبين بني أبي
وبين بني عمي لمختلف جدا
أراهم الى نصري بطاء ، وان هم
دعوني الى نصر أتيتهم شدا
وان يأكلوا لحمي وفرت[2] لحومهم
وان يهدموا مجدي بنيت لهم مجدا
وان زجروا طيرا بنحس تمر بي
زجرت لهم طيرا تمر بهم سعدا

---

(1) حلوم : جمع حلم وهو العقل .
(2) وفرت : حفظت وصنت .

وان ضيَّعوا غيبي حفظت غيوبهم
وان هم هووا غيي هويت لهم رشدا
ولا أحمل الحقد الدفين عليهم
فليس كريم القوم من يحمل الحقدا
لهم جل مالي ان تتابع لي غنى
وان قلَّ مالي لم أكلفهم رفدا[1]

وهذا ثالث ، يعرف نفسه ، ويصون قدره ، ولا يقبل أن يكون مماثلا للعامة من الناس ، بل يسمو ويعلو ، معتصما بمكارم الاخلاق ، متباعدا عن سفاسف الامور ، منصفا لغيره من نفسه ، فيقول :

اذا كان دوني من بُليت بجهله
أبيت لنفسي أن أقابل بالجهل
فان كنت أدنى منه في العلم والحجا
عرفت له حق التقدم بالفضل
وان كان مثلي في محل من النهى
أردت لنفسي أن أجل عن المثل

ما أنبل الانسان حين يقتدر على الانتصاف والانتقام ، ولكنه يترفع عن ذلك ، ويأبى الا أن يكون من الذين يدفعون السيئة بالحسنة ، ليكون ممن رضي الله عنهم ورضوا عنه . والله نصير الاخيار من الناس .

(1) رفدا : عطاء .

الشهادة

قد يبدو عجيبا عند بعض الناس أن نعد « الشهادة » خلقا من أخلاق القرآن الكريم ، ولكن لغة الكتاب العزيز تعطي كلمة « الشـــهادة » في طائفة من المواطن معنى أخلاقيا خاصـــا ، يجعل معناهـــا القرآني في حمى المعاني الاخلاقية العظيمة .

وكلمة « الشهادة » في لغة العرب ـــ لغة القرآن ـــ تعطي أولا معنى الحضور مع المشاهدة ، اما بالبصر أو البصيرة، والشهادة أيضا قول صادر عن علم يحصل بمشاهدة بصيرة أو بصر ، ومن معاني الشهادة أيضا الدلالة القاطعة بقول أو غيره . وقد جاءت الكلمة بمعنى الايمان في قول الله تبارك وتعالى في سورة آل عمران :

« رَبَّنا آمَنَّا بِما أَنْزَلْتَ واتَّبَعْنا الرَّسُولَ فَاكْتُبْنا مَعَ الشَّاهِدِينَ » (١) .

أي اكتبنـــا مـــع المؤمنـــين من أمـــة محمد صـــلى اللـــه عليـــه وسلم ، وأثبت أسماءنا مع أسمائهم، واجعلنا من جملتهم، واجعلنا مع الذين

---

(١) سورة آل عمران ، الآية ٥٣ .

شهدوا لأنبيائك بالصدق .

والشهادة في لغة القرآن تقتضي حضور العقل والقلب ، كما في قول الحق جل جلاله في سورة ق :

« إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرَى لِمَنْ كانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ » (1) .

أي يشهدون ما يسمعونه بقلوبهم ، ويشهدون بأذهان وعقول حاضرة متفطنة لما تسمع ، واذا استمع أحدهم الكلام وعاه ، وتعقله بعقله وتفهمه بلبه . ولقد علق الامام ابن القيم في كتابه « مدارج السالكين » على هذه الآية الكريمة فقال :

« جعل الله سبحانه كلامه ذكرى ، لا ينتفع بها الا من جمع هذه الامور الثلاثة :

أحدها : أن يكون له قلب حي واع ، فاذا فقد هذا القلب لم ينتفع بالذكرى .

الثاني : أن يصغي بسمعه ، فيميله كله نحو المخاطب ، فان لم يفعل لم ينتفع بكلامه .

الثالث : أن يحضر قلبه وذهنه عند المكلم له . وهو « الشهيد » أي الحاضر غير الغائب ، فان غاب قلبه ، وسافر في موضع آخر ، لم ينتفع بالخطاب .

وهذا كما أن المبصر لا يدرك حقيقة المرئي الا اذا كانت له قوة مبصرة ، وحدّق بها نحو المرئي ، ولم يكن قلبه مشغولا بغير ذلك ، فان

---

(1) سورة ق ، الآية ٣٧ .

فقد القوة المبصرة ، أو لم يحدق نحو المرئي ، أو حدق نحوه ، ولكن قلبه كله في موضع آخر ، لم يدركه ، فكثيرا ما يمر بك انسان أو غيره ، وقلبك مشغول بغيره ، فلا تشعر بمروره ، فهذا الشأن يستدعي صحة القلب وحضوره وكمال الاصغاء » .

ثم ذكر ابن القيم أن « المشاهدة » كما يقرر الهروي هي المسقطة للحجاب ، وان أهل الاستقامة يريدون من الشهادة أو المشاهدة قوة اليقين ، ومزيد العلم ، وارتفاع الحجب المانعة من ذلك ، ونستطيع بعد هذا أن نفهم أن الشهادة هي أن يكون الانسان حاضر القلب يقظ العقل شفاف الروح ، وكأنه يستجيب لداعي الخير بحسه ونفسه ، وعقله وقلبه، وروحه ووجدانه .

والشهادة التي تعد فضيلة من فضائل الاسلام ، وخلقا من أخلاق القرآن ، هي تلك الصفة التي تدفع صاحبها الحاضر القلب، اليقظ العقل، الشفاف الروح ، الى الابتعاد عن الآثام والسيئات ، والى التحصن بالحسنات والطاعات ، وبذلك يصبح أفضل من غيره من الضالين أو المقصرين ، وبذلك يصلح أن يكون شاهدا على غيره ، حيث لا يصلح لهذه الشهادة الا من شهد الحق فلزمه وخضع له ، وفاق غيره ايمانا وعملا وسلوكا وقولا .

وهذا المعنى القرآني للشهادة يرمز اليه كتاب الله عز شأنه حين يقول في سورة النساء :

« إِنَّ اللَّهَ لا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ ، وَإِنْ تَكُ حَسَنَةً يُضَاعِفْهَا وَيُؤْتِ مِنْ لَدُنْهُ أَجْراً عَظِيماً ، فَكَيْفَ إِذا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ ، وَجِئْنَا بِكَ عَلَى هَؤُلاءِ شَهِيداً »[1] .

---

(١) سورة النساء ، الآيتان ٤٠ و٤١ .

وقد أوضح الاستاذ الامام محمد عبده جوانب لفضيلة الشهادة ، حين تعرض للكلام عن هذا النص المجيد ، فقال : « اذا كان الله لا يضيع من عمل عامل مثقال ذرة ، فكيف يكون حال الناس اذا جمعهم الله ، وجاء بالشهداء عليهم ، وهم الانبياء ، فما من أمة الا ولها بشير ونذير ؟!.

هذه الشهادة هي التي غفل عنها الناس ، وبكى لها النبي ــ صلى الله عليه وسلم ــ اذ أمر بعض الصحابة بأن يقرأ عليه شيئا من القرآن ، وهو صلى الله عليه وسلم أعلم الناس بالقرآن .

هذه الشهادة يوم يجمع الله الناس مع أنبيائهم ، هي عبارة عن مقابلة عقائدهم وأخلاقهم وأعمالهم بعقائد الانبياء وأعمالهم وأخلاقهم .

تعرض أعمال كل أمة على نبيها ، لا فرق بين اليهود والنصارى والمسلمين ، وسائر أتباع الانبياء ، فمن شهد لهم نبيهم ، بعد معرفة أعمالهم وظهورها بأنهم على ما جاء به وعمل ، وأمر الناس بالعمل به ، فهم الناجون .

ان كل أمة من أتباع الانبياء تدّعي اتباع نبيها ، وان كانت قلوبهم مملوءة بالحقد والحسد والغل ، وأعمالهم كلها شرورا ومفاسد عليهم وعلى الناس ، فهؤلاء يتبرأ الانبياء منهم ، وان ادعوا أنهم أتباعهم ومنتمون اليهم » .

* * *

والشهادة فيها معنى الرقابة على الغير ، وذلك كما في قول الحق جل جلاله في سورة يونس :

« وَلاَ تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إلاَّ كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُوداً إذْ تُفِيضُونَ فيهِ »[1] .

أي كنا رقباء عليكم .

---

(1) سورة يونس ، الآية ٦١ .

ولا يصلح المرء للرقابة على غيره الا اذا كان الرقيب أفضل من غيره، لان في الرقابة معنى من الولاية ، وحق الفاضل أن يتولى المفضول ، ولذلك كان الرسول عليه الصلاة والسلام أحق الافراد بالشهادة على أتباعه ، وفي هذا يقول القرآن المجيد في سورة المزمل :

« إِنَّا أَرْسَلْنا إِلَيْكُمْ رَسُولاً شَاهِداً عَلَيْكُمْ »[1] .

ويقول في سورة المائدة على لسان عيسى بن مريم عليه الصلاة والسلام :

« وَكُنْتُ عَلَيْهِمْ شَهِيداً ما دُمْتُ فِيهِمْ »[2] .

ويقول القرآن الكريم في سورة البقرة :

« وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطاً لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيداً »[3] .

وخلاصة المعنى في ذلك كما تحدث تفسير المنار أن الله جعلهم أمة ذات عدل وتوسط ، لأن الزيادة على المطلوب في الامر افراط ، ولأن النقص عنه تقصير وتفريط ، وكل من الافراط والتفريط ميل عن الصراط المستقيم، فالخيار هو الوسط بين طرفي الامر ، أي المتوسط بينهما .

وانما جعلكم كذلك لتكونوا شهداء بالحق على الناس بما فرطوا في جنب الدين أو أفرطوا فيه ، فأنتم تشهدون على الذين فرطوا فأنكروا

---

(١) سورة المزمل ، الآية ١٥ .
(٢) سورة المائدة ، الآية ١١٧ .
(٣) سورة البقرة ، الآية ١٤٣ .

البعث وقالوا : « ما هي الا حياتنا الدنيا » بأنهم أخلدوا الى البهيمية ، وقضوا على استعدادهم بالحرمان من المزايا الروحية .

وتشهدون على الذين أفرطوا بالغلو في الدين الزاعمين أن الدين حبس للارواح ، وعقوبة لها ، فلا بد من اجتناب كل اللذات ، وتعذيب الاجساد والنفوس ، تشهدون على هؤلاء بأنهم انحرفوا عن جادة الاعتدال ... تشهدون على هؤلاء وهؤلاء ، وتسبقون الامم باعتدالكم وتوسطكم في الامور كلها ، ذلك بأن ما اهتديتم اليه هو الكمال الانساني الذي يستحق صاحبه أن يتحلى بفضيلة «الشهادة» التي تتضمن معنى السبق والقوامة الناشىء عن اجتناب السوء والتزام الخير والعدل ، لأن صاحب هذه الشهادة يعطي كل ذي حق حقه : يؤدي حقوق ربه ، وحقوق روحه ، وحقوق بدنه ، وحقوق الناس .

وما دام الرسول عليه الصلاة والسلام هو الاسوة الحسنة والقدوة الطيبة والمثل الاعلى لكم ، والنموذج الاكمل لمرتبة الوسط ، فانه سيكون عليكم شهيدا ، وأنتم الشهداء على غيركم ، وهو القاضي بين الناس فيمن اتبع سنته ، ومن ابتدع لنفسه تقاليد أخرى في الدين ، أو حذا حذو المبتدعين .

فكما تشهد هذه الأمة الوسط على الناس بسيرتها وحسن جمعها بين مطالب الروح ومطالب الجسد ، وتظهر الفرق بينها وبين غيرها من أهل الافراط أو التفريط ، يشهد لها الرسول بما وافقت فيه سنته ، وما كان لها من القدوة الحسنة فيه ، بأنها استقامت على الطريق ، والتزمت الصراط .

ولقد جاء في صحيح البخاري حديث يتعلق بموضوع الآية السابقة، فعن أبي سعيد الخدري قال :

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « يُدعى نوح عليه السلام يوم القيامة ، فيقول : لبيك وسعديك يا رب . فيقول : هل بلغت ؟. فيقول : نعم .

فيقال لأمته : هل بلغكم ؟.

فيقولون : ما أتانا من نذير .

فيقول : من يشهد لك ؟.

فيقول : محمد وأمته .

فيشهدون أنه قد بلغ ، ويكون الرسول عليكم شهيدا ، فذلك قوله عز وجل : « وكذلك جعلناكم أمة وسطا لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيدا » .

ثم جاء في رواية الحديث : « فتقول تلك الأمم : كيف يشهد علينا من لم يدركنا ؟.

فيقول لهم الرب سبحانه : كيف تشهدون على من لم تدركوا ؟.

فيقولون : ربنا بعثت الينا رسولا ، وأنزلت الينا عهدك وكتابك ، وقصصت علينا أنهم قد بلغوا ، فشهدنا بما عهدت الينا .

فيقول الرب : صدقوا .

فذلك قوله عز وجل : « وكذلك جعلناكم أمة وسطا ـ والوسط العدل ـ لتكونوا شهداء على الناس ، ويكون الرسول عليكم شهيدا » .

وعن عبادة بن الصامت قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « أعطيت أمتي ثلاثا لم تعط الا الانبياء : كان الله اذا بعث نبيا قال له : « ادعني أستجب لك ، وقال لهذه الأمة : ادعوني أستجب لكم ، وكان الله اذا بعث النبي قال له : ما جعل عليك في الدين من حرج ، وقال لهذه الأمة : وما جعل عليكم في الدين من حرج ، وكان الله اذا بعث النبي جعله

شهيدا على قومه ، وجعل هذه الامة شهداء على الناس » .



ومن تكريم فضيلة الشهادة أن يصف القرآن الكريم بها رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ أكثر من مرة ، فهو يقول في سورة الاحزاب :

« يا أَيُّها النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شاهِداً وَمُبَشِّراً وَنَذِيراً ، وَدَاعِياً إِلى اللهِ بِإِذْنِهِ وَسِرَاجاً مُنِيراً » (١) .

والمعنى كما يذكر القشيري هو : يا أيها المشرّف من قبلنا ، انا أرسلناك شاهدا بوحدانيتنا ، وشاهدا تبشر بمتابعتنا ، وتحذّر من مخالفة أمرنا ، وتعلم الناس مواضع الخوف منا .

أو : يا أيها النبي ، انا أرسلناك شاهدا على أمتك يوم القيامة ، أو شاهدا على الرسل والكتب ، أو : شاهدا لأمتك بتوحيدنا .

ويقول القرآن في سورة النساء :

« فَكَيْفَ إِذا جِئْنا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ ، وَجِئْنَا بِكَ عَلى هَؤُلاءِ شَهِيداً » (٢) .

وعن عبدالله بن مسعود قال : قال لي رسول الله صلى الله عليه وسلم : اقرأ عليّ (يعني القرآن) .

قلت : يا رسول الله ، أقرأ عليك وعليك أنزل ؟!

---

(١) سورة الاحزاب ، الآيتان ٤٥ و٤٦ .
(٢) سورة النساء ، الآية ٤١ .

قال : نعم ، أحب أن أسمعه من غيري .

فقرأت سورة النساء ، حتى أتيت هذه الآية : « فكيف اذا جئنا من كل أمة بشهيد ، وجئنا بك على هؤلاء شهيدا » .

فقال : حسبك الآن .

فاذا عيناه تذرفان » .

وهناك للحديث رواية أخرى جاء فيها : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : اقرأ عليّ .

قلت : أقرأ عليك وعليك أنزل ؟.

قال : اني أحب أن أسمعه من غيري .

فقرأت عليه سورة النساء حتى بلغت : « فكيف اذا جئنا من كل أمة بشهيد ، وجئنا بك على هؤلاء شهيدا » ، فرفعت رأسي — أو غمزني رجل الى جنبي — فرأيت دموعه تسيل .

وعن محمد بن فضالة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أتاهم في بني ظفر ، فجلس على الصخرة التي في بني ظفر ، ومعه ابن مسعود ومعاذ وناس من أصحابه ، فأمر قارئا يقرأ ، حتى اذا أتى على هذه الآية : « فكيف اذا جئنا من كل أمة بشهيد ، وجئنا بك على هؤلاء شهيدا » بكى رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى اخضلت وجنتاه ، فقال : يا رب ، هذا شهدت على من انا بين ظهرانيهم ، فكيف من لم أرهم ؟.

ولقد قال العلماء : ان بكاء النبي صلى الله عليه وسلم انما كان لعظيم ما تضمنته الآية من هول المطلع ، وشدة الامر ، اذ يؤتى بالانبياء شهداء على أممهم بالتصديق والتكذيب ، ويؤتى به صلى الله عليه وسلم يوم القيامة شهيدا .

هذا ولقد علق « تفسير المنار » على الآية بهذه الكلمات : « فليت شعري ، هل يعتبر المسلمون بهذا وهم المشهود عليهم ، كما اعتبر الشهيد الاعظم ، فيبكون لتذكر ذلك اليوم كما بكى ؟ ويستعدون ـ باتباع سنته، واجتناب جميع البدع والتقاليد الدينية التي لم تكن في عهده ـ لأن يكونوا كأصحابه أمة وسطا ، لا تفريط عندها في الدين ولا افراط ، لا في أمور الجسد ، ولا في أمور الروح ، أم يظلون سادرين في غلوائهم ، مقلدين لآبائهم ؟ ألا يعلمون كيف يكون حال الكافرين والعاصين في ذلك اليوم » ؟.



والشهادة قد تكون بمعنى تقرير الحق وذكره ، حتى لا تضيع الحقوق ، والقيام بهذه الشهادة أمر واجب ، والقائم بها صاحب خلق وفضيلة ، كما أن مهملها أو منكرها صاحب اثم ورذيلة ، وقد وردت في القرآن الحكيم آيات كثيرة تحض على أداء الشهادة ، وتذم تضييعها أو انكارها ، ومنها هذه الآيات :

١ ـ في سورة البقرة :

« وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَتَمَ شَهادَةً عِنْدَهُ مِنَ اللهِ » [١] .

٢ ـ وفيها أيضا :

« وَلا تَكْتُمُوا الشَّهَادَةَ ، وَمَنْ يَكْتُمْها فَإِنَّهُ آثِمٌ قَلْبُهُ » [٢] .

---

(١) سورة البقرة ، الآية ١٤٠ .
(٢) سورة البقرة ، الآية ٢٨٣ .

٣ ـ وفي سورة المائدة :

« وَلا نَكْتُمُ شَهادَةَ اللهِ إِنَّا إِذاً لَمِنَ الآثِمِينَ » [١] .

٤ ـ وفي سورة المعارج :

« وَالَّذِينَ هُمْ بِشَهَادَاتِهِمْ قائِمُونَ » [٢] .

وقد أمر القرآن بالصدق والتزام الحق في النهوض بالشهادة ، سواء أكانت للقريب ام للغريب ، للصديق أم للعدو ، ولذلك قال في سورة المائدة :

« يا أَيُّها الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ للهِ شُهَدَاءَ بالقِسْطِ ، وَلا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلى أَلاَّ تَعْدِلُوا ، اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى ، وَاتَّقُوا اللهَ إِنَّ اللهَ خَبِيرٌ بما تَعْمَلُونَ » [٣] .

أي : لقد أتممت عليكم نعمتي ، فكونوا قوامين بالعدل ابتغاء وجه الله ، لتنالوا ثواب الله ، واشهدوا بالحق من غير ميل الى أقاربكم ، ومن غير ظلم لاعدائكم ، ولا تحملنكم عداوة قوم من الناس على ترك العدل أو هضم الحق .

وعاد القرآن يؤكد الحث على هذه الفضيلة ، فقال في سورة النساء :

---

(١) سورة المائدة ، الآية ١٠٦ .
(٢) سورة المعارج ، الآية ٣٣ .
(٣) سولة المائدة ، الآية ٨ .

« يا أَيُّها الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بالقِسْطِ شُهَدَاءَ للهِ وَلَوْ عَلى أَنْفُسِكُمْ أَوِ الوَالِدَيْنِ وَالأَقْرَبينَ ، إنْ يَكُنْ غَنِيّاً أَوْ فَقِيراً فَاللهُ أَوْلَى بِهِما ، فَلا تَتَّبِعُوا الهوَى أَنْ تَعْدِلُوا ، وَإنْ تَلْوُوا أَوْ تُعْرِضُوا فَإنَّ اللهَ كانَ بِما تَعْمَلُونَ خَبيراً »[1] .

أي حافظوا على الحق والعدل في شهادتكم ، ولو على أنفسكم أو آبائكم وأمهاتكم ، أو أقاربكم ، لأن هؤلاء مظنة المودة والتعصب .

ولقد كانت فضيلة الشهادة بالحق سببا في تبرئة نبي الله يوسف عليه السلام ، فذلك حيث يقول الحق جل جلاله في سورة يوسف :

« قالَ هِيَ رَاوَدَتْنِي عَنْ نَفْسِي ، وَشَهِدَ شاهِدٌ مِنْ أَهْلِها إنْ كانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِنْ قُبُلٍ فَصَدَقَتْ وَهُوَ مِنَ الكاذِبينَ ، وَإنْ كانَ قَميصُهُ قُدَّ مِنْ دُبُرٍ فَكَذَبَتْ وَهُوَ مِنَ الصَّادِقِينَ ، فَلَمَّا رأَى قَمِيصَهُ قُدَّ مِنْ دُبُرٍ قالَ إنَّهُ مِنْ كَيْدِكُنَّ إنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ ، يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هذا وَاسْتَغْفِري لِذَنْبِكِ إنَّكِ كُنْتِ مِنَ الخاطِئِينَ »[2] .

وكذلك توسعت السنة المطهرة في الدعوة الى أداء الشهادة لوجه الله ووجه الحق ، فقال الحديث : « خير الشهداء الذي يأتي بشهادته قبل ان

---

(١) سورة النساء ، الآية ١٣٥ .
(٢) سورة يوسف ، الآيات ٢٦ ــ ٢٩ .

يُسألها » . وكأن هذا حث على التطوع بالشهادة الصادقة ، حتى ولو لم يطلبها أحد من الشهيد ، ولا تعارض بين هذا الحديث والحديث الآخر الذي جاء فيه :

« ان خيركم قرني ، ثم الذين يلونهم ، ثم الذين يلونهم ، ثم الذين يلونهم ، ثم يكون بعدهم قوم يشهدون ولا يُستشهدون ، ويخونون ولا يؤتمنون ، وينذرون ولا يوفون ، ويظهر فيهم السِّمَن » .

لا تعارض بين الحديثين ، لأن المراد في الحديث الاخير هو شاهد الزور ، اذ يشهد بما لم يستشهد ، أي بما لم يتحمّله ، أو يراد به الذي يدفعه الشره ويحمله على تنفيذ ما يشهد به ، فيبادر مسرعا بالشهادة قبل أن تُطلب منه ، فهذا شهادته مردودة ، لأن تسرعه يدل على وجود هوى غالب عند الشاهد .

* * *

وكأن الله جل جلاله أراد ــ وهو سبحانه أعلم بمراده ــ أن يعرّض بالذين يكتمون الحق ويكتمون الشهادة ، فذلك حين أعلم عباده أن اعضاء الضالين واطراف الآثمين ، تشهد عليهم بالحق يوم القيامة ، مع انها لا لسان لها في الدنيا ولا بيان ، وقد ورد هذا التعريض البليغ في مواطن عدة منها :

١ ــ في سورة النور :

« يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ بِما كانُوا يَعمَلُونَ » [١] .

٢ ــ في سورة يس :

(١) سورة النور ، الآية ٢٤ .

« الْيَوْمَ نَخْتِمُ على أَفْوَاهِهِمْ وَتُكَلِّمُنا أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُمْ بما كانُوا يَكْسِبُونَ » [1] .

٣ ــ في سورة فصلت :

« وَيَوْمَ يُحْشَرُ أَعْدَاءُ اللهِ إلى النَّارِ فَهُمْ يُوزَعُونَ . حَتَّى إذا ما جاءُوها شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وأَبْصَارُهُمْ وَجُلُودُهُمْ بما كانُوا يَعْمَلُونَ ، وَقالُوا لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدْتُمْ عَلَيْنا ؟ قالُوا أَنْطَقَنا اللهُ الَّذِي أَنْطَقَ كُلَّ شَيءٍ ، وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ . وَمَا كُنْتُمْ تَسْتَتِرُونَ أَنْ يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلا أَبْصَارُكُمْ وَلا جُلُودُكُمْ ، وَلَكِنْ ظَنَنْتُمْ أَنَّ اللهَ لا يَعْلَمُ كَثِيراً مِمّا تَعْمَلُونَ » [2] .

ولقد علق القشيري في « لطائف الاشارات » على قوله تعالى : «اليوم نختم على أفواههم وتكلمنا أيديهم وتشهد أرجلهم بما كانوا يعملون» بهذه العبارات :

« اليوم[3] سخَّر الله أعضاء بدن الانسان بعضها لبعض ، وغدا ينقض هذه العادة ، فتخرج بعض الأعضاء على بعض ، وتجري بينها الخصومة والنزاع ، فأما الكفار فشهادة أعضائهم عليهم مبيدة ، وأما

---

(١) سورة يس ، الآية ٦٥ .

(٢) سورة فصلت ، الآيات ١٩ ــ ٢٢

(٣) يقصد بكلمة « اليوم » ايام الدنيا ، ويقصد بكلمة « غدا » يوم القيامة . .

العصاة من المؤمنين فقد تشهد عليهم بعض أعضائهم بالعصيان ، ولكن تشهد لهم بعض أعضائهم أيضا بالاحسان » وكما قيل :

بيني وبينك يا ظلوم الموقف والحاكم العدل الجواد المنصفُ

وفي بعض الأخبار المروية المسندة أن عبدا تشهد عليه أعضاؤه بالزلة ، فيتطاير شعره من جفن عينيه ، فتستأذن بالشهادة له ، فيقول الحق: تكلمي يا شعرة جفن عبدي ، واحتجي عن عبدي ، فتشهد له بالبكاء من خوفه ، فيغفر له ، وينادي مناد : « هذا عتيق الله بشعرة » .

ولقد تعرض الصوفية ـ على طريقتهم الخاصة ـ لفضيلة الشهادة ، فقال عمرو بن عثمان المكي : « المشاهدة وصل بين رؤية القلوب ورؤية العيان » . وقال أبو سعيد الخراز : « من شاهد الله بقلبه خنس عنه ما دونه ، وتلاشى كل شيء ، وغاب عند وجود عظمة الله تعالى ، ولم يبق في القلب الا الله عز وجل » .

أما بعد ، فان الشهادة التي عدها القرآن المجيد خلقا من أخلاقه ، وفضيلة من فضائله ، يراد بها حياة قلب ، ويقظة عقل ، وصفاء روح ، وطاعة بدن ، واستقامة طريق ، وعدالة رأي ، وبهذا يصير صاحب هذه الفضيلة كأنه يعلم الحق ويراه ، ويلازمه في غدوه ورواحه ، فيصبح جديرا بأن يكون ممن قال الله فيهم : « وكذلك جعلناكم أمة وسطا لتكونوا شهداء على الناس ، ويكون الرسول عليكم شهيدا » .

الستر

« الستر » كلمة خفيفة على اللسان ، شائعة الاستعمال بين النـــاس . ولـكن مضمونها الاخلاقي القرآني عميق واسع ، وبعض النـــاس يظن أن كلمة الستر لفظة عامية مبتذلة ، مع أنها لفظة قرآنية نستطيع أن نلمح منها معاني لها مكانتها .

والمعنى اللغوي لكلمة « الستر » يدل على التغطية والاخفاء ، يقال : ستره يستره سترا ، أي غطاه ، واستتر أو تستر ، أي تغطى ، وقد تستعمل كلمة « الستر » بمعنى الخوف والحياء ، وجاء في « أساس البلاغة » فلان لا يستتر من الله بستر : لا يتقي الله . وفيه أيضا : « الله ستار العيوب »، وقد روى النسائي وأبوداود هذا الحديث : « ان الله حيّ ستّير ، يحـــب الحياء والستر » .

والمعنى الاخلاقي للستر هو أن يكون في الانسان روح الميـــل الى اخفاء ما ينبغي اخفاؤه ، وأن يتنزه عن الرغبة في اظهار العورات أو ابداء العيوب أو كشف الحرمات ، وأن يخفي بعض القربات التي تكون أقرب الى الاخلاص فيها اذا قام بها صاحبها في طي الكتمان بلا تظاهر أو اعلان.

وقد وردت مادة «الستر» في القرآن ثلاث مرات ، الاولى في سورة

الاسراء ، حيث يقول الحق جل جلاله :

« وَإِذا قَرَأْتَ القُرْآنَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بالآخِرَةِ حِجاباً مَسْتُوراً »[1] .

وجاء في سبب نزول الآية أن أسماء بنت ابي بكر رضي الله تعالى عنهما قالت : لما نزلت سورة : « تبت يدا أبي لهب » أقبلت العوراءُ أم جميل بنت حرب ، ولها ولولة ، وفي يدها فِهْر (أي حجر) وهي تقول : « مُذمَّما عصينا ، وأمره أبينا ، ودينه قَلينا »[2] .

والنبي صلى الله عليه وسلم قاعد في المسجد ، ومعه أبو بكر رضي الله عنه ، فلما رآها أبو بكر قال : يا رسول الله ، لقد أقبلت وأنا أخاف أن تراك .

فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : انها لن تراني . وقرأ قرآنا فاعتصم به . وقرأ : « واذا قرأت القرآن جعلنا بينك وبين الذين لا يؤمنون بالآخرة حجابا مستورا » .

فوقفت على أبي بكر رضي الله عنه ، ولم تر رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقالت : يا أبا بكر ، أخبرتُ أن صاحبك هجاني .

فقال : لا وربِّ هذا البيت ما هجاك .

فولت وهي تقول : قد علمت قريش أني ابنة سيدها .

وعن سعيد بن جبير رضي الله عنه أنه لما نزلت : « تبت يدا أبي لهب » جاءت امرأة أبي لهب الى النبي صلى الله عليه وسلم ، ومعه أبو بكر رضي الله عنه ، فقال أبو بكر للنبي : لو تنحيت عنها لئلا تسمعك ما

(١) سورة الاسراء ، الآية ٤٥ .

(٢) قلينا : كرهنا وابغضنا .

يؤذيك فانها امرأة بذيئة .

فقال النبي صلى الله عليه وسلم : « انه سيحال بيني وبينها » . فلم تره .

فقالت لأبي بكر : يا أبا بكر ، هجانا صاحبك .

فقال : والله ما ينطق بالشعر ولا يقوله .

فقالت : وانك لمصدقه ؟!. واندفعت راجعة .

فقال أبو بكر : يا رسول الله ، أما رأتك ؟.

قال : لا ، ما زال ملك بيني وبينها يسترني حتى ذهبت .

* * *

والمرة الثانية جاءت في سورة الكهف حيث يقول الحق جل جلاله عن ذي القرنين :

« حَتَّى إِذا بَلَغَ مَطْلِعَ الشَّمْسِ وَجَدَها عَلى قَوْمٍ لَمْ نَجْعَلْ لَهُمْ مِنْ دُونِها سِتْراً » [1] .

أي أمة ليس لهم بناء يكنهم ، ولا أشجار تظلهم أو تسترهم عن حر الشمس .

والمرة الثالثة في سورة فصلت حيث يقول الحق جل جلاله :

« وَيَوْمَ يُحْشَرُ أَعْداءُ اللهِ إِلى النَّارِ فَهُمْ يُوزَعُونَ ، حَتَّى إِذا ما جَاءُوها شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصارُهُمْ وَجُلُودُهُمْ بِما كانُوا يَعْمَلُونَ ، وَقالُوا لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدْتُمْ عَلَيْنا ؟ قالُوا أَنْطَقَنا اللهُ الَّذِي أَنْطَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ

---

(١) سورة الكهف ، الآية ٩٠ .

وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ . وَما كُنْتُمْ تَسْتَتِرُونَ أَنْ يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلا أَبْصارُكُمْ وَلا جُلُودُكُمْ وَلَكِنْ ظَنَنْتُمْ أَنَّ اللهَ لا يَعْلَمُ كَثِيراً مِمَّا تَعْمَلُونَ » (١) .

ويعلق الامام ابن كثير على الآية الاخيرة بهذه العبارة : « وقوله تعالى : (وما كنتم تستترون أن يشهد عليكم سمعكم ولا أبصاركم ولا جلودكم) أي تقول لهم الاعضاء والجلود ، حين يلومونها على الشهادة عليهم : ما كنتم تكتمون منا الذي كنتم تفعلونه ، بل كنتم تجاهرون الله بالكفر والمعاصي ، ولا تبالون منه في زعمكم ، لأنكم كنتم لا تعتقدون أنه يعلم جميع أفعالكم ، ولهذا قال تعالى : (ولكن ظننتم أن الله لا يعلم كثيرا مما تعملون ، وذلكم ظنكم الذي ظننتم بربكم أرداكم) أي هذا الظن الفاسد، وهو اعتقادكم أن الله تعالى لا يعلم كثيرا مما تعملون ، هو الذي أتلفكم وأرداكم عند ربكم (فأصبحتم من الخاسرين) ، أي في مواقف القيامة خسرتم أنفسكم وأهليكم » .

ومما يدل على دعوة القرآن المجيد الى الحرص على فضيلة «الستر» قول الله سبحانه في سورة النور :

« إِنَّ الَّذِينَ يُحِبُّونَ أَنْ تَشِيعَ الفاحِشَةُ فِي الَّذِينَ آمَنُوا لَهُمْ عَذابٌ أَلِيمٌ فِي الدُّنْيا والآخِرَةِ ، وَاللهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لا تَعْلَمُونَ » (٢) .

---

(١) سورة فصلت ، الآيات ١٩ ـ ٢٢ . ويوزعون : يحبس سوابقهم ليلحقهم تاليهم .
(٢) سورة النور ، الآية ١٩ .

وفي الآيـة وعيد شديد لأولئـك الـذين يكشفون العـورات ، ويتتبعون العيوب ، ويعملون على اذاعـة الفواحش والآثام بين المؤمنين ، حتى يسهل أمرها على الراغبين فيها ، أو المتطلعين اليهـا ، وتصبح أمـرا معروفا مألوفا ، يتجارأ عليه من كان بالامس يجهله أو يهابه ويخشاه .

ويقول الشيخ الجبالي في كتابه « شفاء الصـدور بتفسير سـورة النور » هذه العبارة : « وانك اذا تأملت في تعليق الشيوع بالفاحشـة نفسها ـ مع أن المراد شيوع خبرها والحديث فيها ـ وجدت بابا آخر من الارشاد . ذلك أن الاسماع التي لم يطرقها حديث الفحشاء ، تجد أصحابها في أكمل نفرة من خطراتها على نفوسهم ، فاذا ما طرق سمع أحدهم حديث فحش مرة اشمأزت نفسه وأكبرت الامر ، وملكه من الهلع والذعر الشيء الكبير ، فاذا ما تكرر على سمعه مرة أخرى كان اشمئزازه أخف . ونفرته أقـل .

فلا يزال يتكرر حديث الفحش حتى يصبح أمرا مألوفا لا يستنكره ولا ينفر منه ، وقد يزيد حتى يستمرىء الحديث ويصغي اليـه . وهنـا تنفتح أمامه هوة التدهور ، فيتردى فيه . وقد مات حارسه ، وهو عاطفة الاستنكار والنفرة .

فترى بذلك أن حب شيوع الحديث كحب شيوع نفس الفاحشة . فلا جَرَمَ عبر به عنه .

ومما يزيدك استبصارا في هذا ، ما ترى من تحرج الآباء عن ذكـر مثل هذه الاخبار أمام أبنائهم الاحداث . فما ذاك الا لما وقر في النفوس من أن ذكر الفحش يلفت النفوس اليه فتردى فيه .

وهل يشك أحد في أن من أساليب الترغيب في الشيء ـ خيرا كان أو شرا ـ تكرار ذكر حوادثه وتفاصيل شؤونه » ؟.

ومما يشير الى حرص المجتمع الاسلامي على ستر هذه الامور الشائنة التي يجب أن تعالج في دائرتها بلا اذاعة أو اشاعة ، أنه حينما أخبر هـزّال ابن يزيد رسول الله عليه الصلاة والسلام بأن ماعز بن مالك قـد ارتكب الفاحشة قال له الرسول : « يا هزال ، لو سترته بثوبك لكان خيرا لك » . يقول ابن الأثير : « انما قال ذلك حبا لاخفاء الفضيحة، وكراهية لاشاعتها».

ولو انتقلنا الى روضـة السـنة المطهـرة ــ وهي المفسرة للقرآن ، المفصلة لاحكامه ، الكاشفة عن مراميه ــ لوجدنا أن مادة « الستر » قد تكررت عشرات المرات ، ويكفي أن نعود الى المجلد الثاني من كتاب «معجم ألفاظ الحديث النبوي » لنجد هذه المادة قد شغلت خمس صفحات كبيرة الحجم [١] .

وها هوذا رسول الله صلى الله عليه وسلم يتهـدد أولئـك الـذين يتوقحون بكشف الاستار وهتك الاسرار ، فيقول : « كل أمتي معافى الا المجاهرين ، وان من المجانة أن يعمل الرجل بالليل عملا ، ثم يصبح وقـد ستره الله ، فيقول : يا فلان ، عملت البارحة كذا وكذا ، وقـد بات يستره الله ، ويصبح يكشف ستر الله عنه » وقد بسطتُ شرح هذا الحـديث في كتابي « من أدب النبوة » ، وكان مما قلته : « مما يعيب الانسان أشد العيب ، ويجعله عرضة لأشد النقمة والعذاب ، أن يستخف بالاثم يأتيـه دون مبالاة أو مداراة ، وكأن الوقاحة قد استبدت به ، فجعلته لا يكتفي بارتكاب المعصية ، بل يعالن بها ويجاهر » .

وكذلك أرشدت السنة المطهرة الى ستر حديث النفس السيء ، حتى لا تؤاخذ النفس على هذا ، فجاء الحديث : « ان الله تجـاوز لأمتي عمـا حدّثت به أنفسها ما لم تكلم أو تعمل » .

---

(١) المعجم المفهرس لالفاظ الحديث النبوي ، المجلد الثاني ، ص ٤١٠ــ٤١٥ .

وتحدثنا بأن الله يستر بفضله على من يشاء من عباده في الدنيا والآخرة ، فيقول الحديث : « لا يستر الله على عبد في الدنيا الا ستره الله يوم القيامة » . ويروي البخاري : « يدنو المؤمن من ربه حتى يضع عليه كنفه فيقرره بذنوبه : تعرف ذنب كذا ؟ فيقول : أعرف ، رب أعرف . فيقول الله تعالى سترتها عليك في الدنيا وأغفرها لك اليوم ».

وتحث السنة المسلم على أن يكون سمحا كريما اذا اطلع على عيب لأخيه ، فيكتمه عليه ويستره ، ولا يفضحه ، فيقول الحديث : « من ستر على مسلم عورة فكأنما أحيا ميتا » ويقول : « من ستر أخاه المسلم في الدنيا فلم يفضحه ستره الله يوم القيامة »[1] .

وتحذر السنة المسلم أن يتتبع عورات الناس ليفضحهم ، لأن وبال ذلك يعود اليه ويجني عليه ، فيقول الحديث : « يا معشر من آمن بلسانه ولم يدخل الايمان قلبه ، لا تتبعوا عورات الناس لتفضحوهم ، فان من تتبع عورات الناس تتبع الله عورته ، ومن تتبع الله عورته فضحه ولو في عقر بيته » . ويقال أيضا : « لا تؤذوا عباد الله ولا تعيروهم ، ولا تطلبوا عوراتهم ، فانه من طلب عورة اخيه المسلم طلب الله عورته حتى يفضحه في بيته » .



ودعا الهدى النبوي الى الاستتار في مواضع ، منها الاغتسال ، وقضاء الحاجة ، وكشف العورة ، والمعاشرة الزوجية ، والتبول ، فوردت هذه الأحاديث :

١ ــ « ان الله حييٌ ستّير ، يحب الحياء والستر ، فاذا اغتسل أحدكم فليستتر » .

(١) من أدب النبوة ، ص ٢١٦ . نشر المجلس الاعلى للشؤون الاسلامية بالقاهرة .

٢ ــ « من أتى الغائط فليستتر » .

٣ ــ عن ميمونة رضي الله عنها قالت : « وضعت للنبي صلى الله عليه وسلم ماء وسترته فاغتسل » .

٤ ــ « لا ينظر الرجل الى عورة الرجل ، ولا المرأة الى عورة المرأة».

٥ ــ عن بعض الصحابة أنه قال : يا رسول الله ، عورتنا ما نأتي منها وما نذر ؟. قال : احفظ عورتك الا من زوجتك أو ما ملكت يمينك . قلت : يا رسول الله ، اذا كان القوم بعضهم في بعض ؟. قال : ان استطعت ألا يرينّها أحد فلا يرينها . قلت : يا رسول الله ، اذا كان أحدنا خاليا ؟. قال : الله أحق أن يستحيى منه من الناس .

٦ ــ ذكر النبي صلى الله عليه وسلم الشخصين اللذين يعذّبان في قبرهما ، وقال عن سبب عذاب أحدهما انه كان لا يستتر في بوله .



والاسلام يطالب المرأة بأن تستر أسرار زوجها ، وأسرار بيته وشؤونه الداخلية التي جرى العرف السليم على طيها وعدم الحديث عنها ، وأن تستر عورتها فلا تكشفها ولا تنبه اليها ، والقرآن الكريم يقول :

« وَلا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ ما يُخْفِينَ مِنْ زِينَتِهِنَّ»(١).

بعد أن قال في سورة النور :

« وَقُلْ لِلْمُؤْمِناتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصارِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ وَلا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا ما ظَهَرَ مِنْها ، وَلْيَضْرِبْنَ

(١) سورة النور ، الآية ٣١ .

بِخُمُرِهِنَّ عَلى جُيُوبِهِنَّ » .

ويقول في سورة الاحزاب :

« يا أَيُّها النَّبِيُّ قُلْ لأَزْواجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِساءِ المُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِنْ جَلابِيبِهِنَّ ذَلِكَ أَدْنَى أَنْ يُعْرَفْنَ فَلا يُؤْذَيْنَ وَكانَ اللهُ غَفُوراً رَحِيماً » (١) .

ويقول الرسول عليه الصلاة والسلام : « ما من امرأة تخلع ثيابها في غير بيتها الا هتكت ما بينها وبين الله تعالى » . أي مزقت عهد الحياء والستر المأخوذ عليها .

ولله در المرحوم مصطفى صادق الرافعي حين صور هذه المهازل التي ترتكبها بعض النساء من تبرج وتفحش وتعر على الشواطىء في الصيف ، وذلك في مقال له بعنوان « لحوم البحر » وهو يقصد النساء المتجردات من ثيابهن على مرأى ومشهد من الاجانب ، وفي هذا المقال هذه الكلمات :

« ألا ان البهيمية والعقلية في هذا الانسان مجموعهما شيطانية .

ألا وانه ما من شيء جميل أو عظيم الا وفيه معنى السخرية به .

هنا تتعرى المرأة من ثوبها ، فتتعرى من فضيلتها .

هنا يخلع الرجل ثوبه ، ثم يعود اليه ، فيلبس فيه الأدب الذي خلعه .

رؤية الرجل لحم المرأة المحرمة نظر بالعين والعاطفة .

يرمي ببصره الجائع كما ينظر الصقر الى لحم الصيد .

---

(١) سورة الاحزاب ، الآية ٥٩ .

ونظر المرأة لحم الرجل رؤية فكر فقط .

تحول بصرها أو تخفضه ، وهي من قلبها تنظر .

يا لحوم البحر ، سلخك من ثيابك جزار .

يا لحوم البحر ، سلخك جزار من ثيابك .

جزار لا يذبح بألم ، ولكن بلذة .

ولا يحز بالسكين ، ولكن بالعاطفة .

ولا يميت الحي الا موتا أدبيا .

الى الهيجاء يا أبطال معركة الرجال والنساء .

فهنا تلتحم نواميس الطبيعة ونواميس الاخلاق .

للطبيعة أسلحة العري والمخالطة والنظر والأنس والتضاحك ونزوع المعنى الى المعنى .

وللاخلاق المهزومة سلاح من الدين قد صدىء ، وسلاح من الحياء مكسور .

يا لحوم البحر ، سلخك من ثيابك جزار » .



وفضيلة « الستر » تدعو صاحبها الى كتمان أسراره ، وستر أموره الخاصة به ، كما تدعو الى ستر ما يؤتمن عليه من أسرار غيره ، وهناك أسرار عائلية يظن الجهلاء أن الحديث عنها لا بأس به ولا حرج فيه ، ومن ذلك ما يكون بين الزوج وزوجته من علاقة أو معاشرة ، وهذا هو الحديث الشريف يقول : « ان أشر الناس منزلة يوم القيامة الرجل يفضي الى امرأته

وتفضي اليه ، ثم ينشر سرها ، انما مثل ذلك مثل شيطانة لقيت شيطانا في السكة ، فقضى منها حاجته والناس ينظرون اليه » .

وفضيلة « الستر » تدعو صاحبها الى ستر « الصدقة » واخفائها ، فان ذلك في مواطنه أجمل وأحسن ، والقرآن الكريم يقول في سورة البقرة :

« إِنْ تُبدُوا الصَّدَقاتِ فَنِعِمّا هِيَ ، وَإِنْ تُخْفُوها وَتُؤْتُوها الفُقَرَاءَ فَهوَ خَيْرٌ لَكُمْ ، وَيُكَفِّرْ عَنْكُمْ مِنْ سَيِّئَاتِكُمْ وَاللهُ بِما تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ » [1] .

ولقد أثنى رسول الله صلى الله عليه وسلم على الرجل الذي يستر صدقته ويخفيها ، حتى لا تدري شماله ما أعطت يمينه .

وهذه الفضيلة توجه صاحبها الى ستر الرؤيا السيئة التي يراها في النوم ، وروى البخاري هذا الحديث : « اذا رأى أحدكم رؤيا يحبها فانما هي من الله ، فليحمد الله وليتحدث بها ، واذا رأى غير ذلك مما يكره فانما هي من الشيطان ، فليستعذ من شرها ، ولا يذكرها لاحد فانها لا تضره » .

وفضيلة الستر توجه صاحبها الى التستر والاستخفاء ، للتخلص من عدوان أو طغيان ، فقد روى البخاري عن ابن أبي أوفى : « اعتمر رسول الله صلى الله عليه وسلم واعتمرنا معه ، فلما دخل مكة طاف وطفنا معه ، وأتى الصفا والمروة وأتيناهما معه ، وكنا نستره من أهل مكة أن يرميه أحد » .

وفضيلة الستر من أخلاق الانبياء والمرسلين ، وقد ورد أن نبي الله

---

(١) سورة البقرة ، الآية ٢٧١ .

موسى عليه السلام كان رجلا حييّا ستيرا ، فقد روي ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « ان موسى عليه السلام كان رجلا حييا ستيرا ، لا يرى من جلده شيء استحياء منه » .

نسأل الله عز شأنه أن يستر عوراتنا ، وأن يمحو زلاتنا ، انه رؤوف رحيـــم .

التعوذ

التعوّذ من مادة الاستعاذة ، والاستعاذة في معنى الاستجارة وطلب الامتناع من المكروه ، والتعوذ هو الالتجاء الى الغير والتعلق به . والعياذ هو الملجأ . والتعوذ له معنى شرعي ، وهو قول الانسان : أعوذ بالله ، أو نحو ذلك . وله معنى أخلاقي ، وهو التدثر بروح الالتجاء الى الله ، والتحصن بجنابه ، والاعتماد عليه .

والاستعاذة بهذا المفهوم هي الاستعانة بالله في دفع الشر ، وقال أهل التفسير ان كلمة : « معاذ الله » تفيد أن قائلها يلتجيء الى ربه ويستنصر به ، ليصونه من فعل ما لا يليق به أو يحسن منه ، كما في قوله تعالى :

« قالَ مَعَاذَ اللهِ إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ » [1] .

وقوله :

« قالَ مَعاذَ اللهِ أَنْ نَأْخُذَ إِلَّا مَنْ وَجَدْنا مَتاعَنا عِنْدَهُ » [2] .

---

(١) سورة يوسف ، الآية ٢٣ .

(٢) سورة يوسف ، الآية ٧٩ .

وقد فرقوا بين كلمتي « العياذ » و « اللياذ » فذكروا أن العياذ لدفع الشر ، واللياذ يكون لطلب جلب الخير ، ولذلك قال الشاعر :

يا من ألـوذ بـه فيمـا أؤملـه ومَن أعـوذ بـه مما أحـاذره
لا يجبر الناسُ عظما أنت كاسـره ولا يهيضون[1] عظما أنت جابره

وتعوذ الانسان بالله فيه اقرار من العبد بأن علم الله أوسع من علمه، ولذلك يلجأ اليه ويستعين به ، وفي هذا التعوذ ـ أيضا ـ تفويض الى الله ليقضي بالحق بين المتعوذ وخصمه الذي يتعوذ منه ، وفي التعوذ كذلـك معنى الخضوع لله جل جلاله ، وعدم اغترار الانسان بقوتـه ، لأن اللـه أقوى وأقدر . ومن هنا قال بعض العلماء ان التعوذ عنوان صـادق عـلى امتلاء قلب المؤمن بمعنى اللجوء الى الله ، وقوة عزيمته في طرد الوساوس والشكوك ، واستقبال الهداية بقلب طاهر ، وعقـل واع ، وايمان ثابت ، ويقين وطيد .

وكلمة : « أعوذ بالله » يقولها الانسان في العادة وهو يعاني ضيقا شديدا من قبح تصرف ، أو سوء خلق ، أو قبح معاملة ، أو انحراف سلوك عند غيره ، وكأن الانسان لا يطيق احتمال هذا الضيق ، فهو يلجأ الى الله ليعينه على دفع هذا البلاء ، والصبر في مجال هذا الابتلاء .

ولقد أعطانا الامام الرازي تصويرا دقيقـا مفصـلا لفضيلة التعوذ والمعنى الاخلاقي فيه ، وبيان أنه لا يتم الا بعلم وحال وعمل ، على الوجـه التالي :

« الاستعاذة لا تتم الا بعلم وحال وعمل . أما العلم فهو كون العبد عالما بكونه عاجزا عن جلب المنافع الدينية والدنيوية ، وعن دفـع جميـع

---

(1) يهيضون : هاض العظم كسره ، وانهاض : انكسر .

المضار الدينية والدنيوية ، وأن الله تعالى قادر على ايجاد جميع المنافع الدينية والدنيوية وعلى دفع جميع المضار الدينية والدنيوية ، قدرة لا يقدر أحد سواه على دفعها عنه .

فاذا حصل هذا العلم في القلب ، تولد عن هذا العلم حصول حالة في القلب ، وهي انكسار وتواضع ، ويعبّر عن تلك الحالة بالتضرع الى الله تعالى والخضوع له . ثم ان حصول تلك الحالة في القلب يوجب حصول صفة أخرى في القلب ، وصفة في اللسان . أما الصفة الحاصلة في القلب ، فهي أن يصير العبد مريدا لأن يصونه الله تعالى عن الآفات ، ويخصه بافاضة الخيرات والحسنات . وأما الصفة التي في اللسان فهي أن يصير العبد طالبا لهذا المعنى بلسانه من الله تعالى ، وذلك الطلب هو الاستعاذة ، وهو قوله : أعوذ بالله .

اذا عرفت ما ذكرنا يظهر لك أن الركن الاعظم في الاستعاذة هو علمه بالله ، وعلمه بنفسه . أما علمه بالله فهو أن يعلم كونه سبحانه وتعالى عالما بجميع المعلومات ، فانه لو لم يكن الامر كذلك لجاز أن لا يكون الله عالما به ولا بأحواله ، فعلى هذا التقدير تكون الاستعاذة به عبثا . ولا بد ان يعلم كونه قادرا على جميع الممكنات ، والا فربما كان عاجزا عن تحصيل مراد العبد . ولا بد أن يعلم أيضا كونه جوادا مطلقا ، اذ لو كان البخل عليه جائزا ، لما كان في الاستعاذة فائدة . ولا بد أيضا وأن يعلم أنه لا يقدر أحد سوى الله تعالى على أن يعينه على مقاصده ، اذ لو جاز أن يكون غير الله يعينه على مقاصده لم تكن الرغبة قوية في الاستعاذة بالله .

وذلك لا يتم الا بالتوحيد المطلق ، وأعني بالتوحيد المطلق أن يعلم أن مدبر العالم واحد ، وأن يعلم أيضا أن العبد غير مستقل بأعمال نفسه ، اذ لو كان مستقلا بأعمال نفسه ، لم يكن في الاستعاذة بالغير فائدة .

فثبت ما ذكرنا ان العبد ــ ما لم يعرف عزة الربوبية وذلة العبودية ــ

لا يصح منه أن يقول : أعوذ بالله من الشيطان الرجيم . ومن الناس من يقول لا حاجة في هذا الذكر الى العلم بهذه المقدمات ، بل الانسان اذا جوّز كون الامر كذلك حَسُنَ منه أن يقول : أعوذ بالله ، على سبيل الاجمال . وهذا ضعيف جدا ، لأن ابراهيم عليه السلام عاب أباه في قوله: « لم تعبد ما لا يسمع ولا يبصر ولا يغني عنك شيئا » .

فبتقدير أن لا يكون الاله عالما بكل المعلومات ، قادرا على جميع المقدورات ، كان سؤاله سؤالا لمن لا يسمع ولا يبصر ، وكان داخلا تحت ما جعله ابراهيم عليه السلام عيبا على أبيه .

وأما علم العبد بحال نفسه فلا بد وأن يعلم عجزه وقصوره عن رعاية مصالح نفسه على سبيل التمام ، وأن يعلم أيضا أنه بتقدير أن يعلم تلك المصالح بحسب الكيفية والكمية ، لكنه لا يمكنه تحصيلها عند عدمها ، ولا ابقاؤها عند وجودها .

اذا عرفت هذا فتقول : انه اذا حصلت هذه العلوم في قلب العبد ، وصار مشاهدا لها ، متيقنا فيها ، وجب ان يحصل في قلبه تلك الحالة المسماة بالانكسار والخضوع ، وحينئذ يحصل في قلبه الطلب ، وفي لسانه اللفظ الدال على ذلك الطلب ، وذلك هو قوله : « أعوذ بالله من الشيطان الرجيم » .

اذن ليس التعوذ بالمعنى الاخلاقي القرآني الذي نعنيه ، هو مجرد التلفظ بعبارة الاستعاذة ، بل ان الامر محتاج الى حالة عقلية وقلبية ونفسية تجعل صاحبها يفر من حوله وقوته الى حول الله وقوته ، ويتحصن دائما بحصن الله القوي المتين .



ولقد ذكرت مادة « التعوذ » أو « الاستعاذة » في القرآن المجيد

نحو خمس عشرة مرة ، ودلنا التنزيل الحميد على أن التعوذ أمر مطلـــوب في كثير من المواقف والاحوال ، وكأن كتاب الله قد أراد أن يرفع من شأن هذه الفضيلة حين لفت أبصارنا وبصائرنا الى أن التعوذ من صفات الانبياء والرسل كما فصل الرازي فجاء في سورة هود عن نوح :

« قالَ رَبِّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْأَلَكَ ما لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ » (١) .

أي أحتمي بجنابك ، وأعتصم بتوفيقك من أن أسألك ما ليس لي به علم صحيح بأنه جائز ولائق .

وعندما تعوذ نوح بربه كما سبق أعطاه الله منحتين ، هما الســـلام والبركات ، فذلك في قوله تعالى :

« قِيلَ يا نُوحَ اهْبِطْ بِسَلامٍ مِنَّا وَبَرَكاتٍ عَلَيْكَ » (٢) .

وهذا موسى يستعيذ بالله . فيقول القرآن في سورة البقرة :

« قالَ أَعُوذُ بِاللهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ الجاهِلِينَ » (٣) .

أي ألتجىء الى الله ليعصمني بتأديبه لي من الاستهزاء بالنـــاس . وعندما تعوذ موسى كما رأينا منّ الله عليه بمنتين هما ازالة التهمة واحياء القتيل كما في قصة البقرة :

« فَقُلْنَا اضْرِبُوهُ بِبَعْضِها كَذَلِكَ يُحْيِي اللهُ الْمَوْتى

(١) سورة هود ، الآية ٤٧ .
(٢) سورة هود ، الآية ٤٨ .
(٣) سورة البقرة ، الآية ٦٧ .

وَيُرِيكُمْ آياتِهِ »[1] .

وكذلك ذكر القرآن في سورة غافر أن موسى قد استعاذ بربه من المتكبرين الكافرين ، فقال :

« وَقَالَ مُوسَى إِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُمْ مِنْ كُلِّ مُتَكَبِّرٍ لا يُؤْمِنُ بِيَوْمِ الحِسابِ »[2] .

وقال أيضا في سورة الدخان :

« وَإِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُمْ أَنْ تَرْجُمُونِ »[3] .

وكانت النتيجة لذلك التعوذ الصادق المخلص ان حقق الله لموسى وأتباعه أمره ، حيث أهلك عدوهم ، وأورثهم أرضهم وديارهم .

وهذا يوسف يذكر القرآن في سورة يوسف أنه تحلى بفضيلة « التعوذ » فقال :

« مَعَاذَ اللهِ إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ إِنَّهُ لا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ »[4] .

أي أعوذ بالله معاذا ، وأتحصن به ، فهو الذي يعيذني بفضله وتوفيقه أن أكون من الجاهلين الفاسقين . وكانت نتيجة ذلك التعوذ أن منحه الله منحتين ، حيث صرف عنه السوء ، وصرف عنه الفحشاء ، وذلك في قوله :

---

(١) سورة البقرة ، الآية ٧٣ .
(٢) سورة غافر ، الآية ٢٧ .
(٣) سورة الدخان ، الآية ٢٠ .
(٤) سورة يوسف ، الآية ٢٣ .

« كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالفَحْشَاءَ إِنَّهُ مِنْ عِبادِنا المُخْلَصِينَ »[1] .

وحينما قال إخوة يوسف له : « خذ أحدنا مكانه » تعوذ بالله من ذلك وقـــال :

« مَعاذَ اللهِ أَنْ نَـأْخُذَ إلّا مَنْ وَجَدْنَا مَتَاعَنَا عِنْدَهُ إنا إذاً لَظالِمُونَ »[2] .

فأثابه الله على فضيلته بقوله :

« وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى العَرْشِ ، وَخَرُّوا لَهُ سُجَّداً »[3] .

وهذه امرأة عمران ــ أم مريم ــ تعيذ ابنتها مريم بقولها في سورة آل عمران :

« وَإِنِّي أُعِيذُها بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ الشَّيْطانِ الرَّجِيمِ »[4] .

وتأتي العاقبة : « فتقبلها ربها بقبول حسن وأنبتها نباتا حسنا » .

وتقبل بعد ذلك مريم ، فتتـــدثر بفضيلة التعوذ بربهـــا ، فحينما ترى جبريل مقبلا عليها ، وهي في وحدتها ، قالت :

« إِنِّي أَعُوذُ بالرَّحْمَنِ مِنْكَ إِنْ كُنْتَ تَقِيّاً »[5] .

فوهبها الله نعمتين : وهبها ولدا من غير أب ، وأنطق هذا الولد وهو في المهـــد ببراءتها :

---

(١) سورة يوسف ، الآية ٢٤ .
(٢) سورة يوسف ، الآية ٧٩ .
(٣) سورة يوسف ، الآية ١٠٠ .
(٤) سورة آل عمران ، الآية ٣٦ .
(٥) سورة مريم ، الآية ١٨ .

« قالَ إنِّي عَبْدُ اللهِ آتانِي الكِتابَ وَجَعَلَنِي نَبِيّاً » [1].

ويقبل خاتم الانبياء والمرسلين محمد عليهم جميعا الصلاة والسلام ، فيكون للتعوذ في حياته شأن ، فقد روى أهل التفسير أن أول ما نزل به جبريل على رسول الله هو أنه قال له : قل يا محمد : أستعيذ بالله السميع العليم من الشيطان الرجيم . ثم قال : قل بسم الله الرحمن الرحيم ، اقرأ باسم ربك الذي خلق .

ثم يأمر الله نبيه صلى الله عليه وسلم عدة مرات بأن يتعوذ بالله فيتوجه اليه ربه والى أتباعه من ورائه بهذه الآيات الكريمات :

في سورة المؤمنون :

« وَقُلْ رَبِّ أَعوذُ بِكَ مِنْ هَمَزاتِ الشَّيَاطِينِ ، وأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَن يَحْضُرُونِ » [2] .

وفي سورة الاعراف :

« وَإِمَّا يَنْزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللهِ إِنَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ » [3] .

وفي سورة الفلق :

« قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الفَلَقِ ، مِنْ شَرِّ ما خَلَقَ ، وَمِنْ

---

(١) سورة مريم ، الآية ٣٠ .
(٢) سورة المؤمنون ، الآيتان ٩٧ و٩٨ .
(٣) سورة الاعراف ، الآية ٢٠٠ .

شَرِّ غاسِقٍ إذا وَقَبَ وَمِنْ شَرِّ النَّفَّاثاتِ فِي العُقَدِ ، وَمِنْ شَرِّ حاسِدٍ إِذا حَسَدَ » .

وفي سورة الناس :

« قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ ، مَلِكِ النَّاسِ ، إِلٰهِ النّاسِ ، مِنْ شَرِّ الوَسْوَاسِ الخَنَّاسِ ، الَّـذِي يُوَسْوِسُ فِي صُدُورِ النَّاسِ ، مِنَ الجِنَّةِ والنَّاسِ » .

وفي سورة فصلت :

« وَإِمَّا يَنْزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ العَلِيمُ » [1] .

والمعنى : ان حاول الشيطان بمكره ووسوسته أن يثير في نفسك داعية الشر أو الفساد ، فافزع الى ربك مستعصما به ، متعوذا بجنابه ، حتى يصونك ويحفظك . ومثل هذه الآيات برهان قاطع على وجود الشيطان الموسوس للانسان وفي « تفسير المنار » جاءت هذه العبارة :

« ثبت في وحي الله تعالى الى رسله أن في عالم الغيب خلقا خفيا اسمه الشيطان ، لا تدركه حواسنا له أثر في أنفسنا ، فهو يتصل بها ، ويقوي داعية الشر فيها ، بما سماه الوحي وسواسا ونزغا ومسا ، ونحن نجد أثر ذلك في أنفسنا ، وان لم ندرك مصدره .

وقد شبهنا تأثير هذه الشياطين الخفية في الارواح بتأثير النسم

(١) سورة فصلت ، الآية ٣٦ .

الخفية المادية المسماة بالبكتيريا وبالميكروبات في الاجساد ، فقد مرت القرون التي لا يحصيها الا رب العالمين ، والناس يجهلون هذه النسم الخفية، ويجهلون فعلها ، لعجز الابصار عن ادراكها بنفسها ، وعن رؤية فعلها لدقتها وتناهيها في اللطف والصغر ، الى أن اخترعت في هذا العصر المرايا أو النظارات المكبرة ، التي ترى الجسم أضعاف أضعاف جرمه ، وعلم ما يحدث بسببها في المواد السائلة والرخوة وكل ذات رطوبة من التحول والتغيير كالاختمار والفساد وغيرها ، ومن الامراض المعدية في الانسان والحيوان ...

وحكمة اخبار الله تعالى ايانا على ألسنة رسله عليهم السلام بهذا العالم الغيبي المعادي لنا ، الضار بأرواحنا كضرر نسم الامراض بأجسادنا ، أن نراقب أفكارنا وخواطرنا ، ولا نغفل عنها ، كما نراقب ما يحدث في أجسادنا من تغير في المزاج ، وخروج الصحة عن الاعتدال ، فنبادر الى علاجه ، فمتى فطنَّا بميل من أنفسنا الى الشر أو الباطل عالجناه بما وصفه الله تعالى من العلاج » .

ولقد كان سيدنا رسول الله صلوات الله عليه يكثر من التعوذ بالله ، ليكون مرتبطا بالله عقلا وقلبا ، حسا ونفسا ، وكان من تعوذه قوله : «أعوذ برضاك من سخطك ، وأعوذ بعفوك من غضبك ، وأعوذ بك منك ، لا أحصي ثناء عليك ، أنت كما أثنيت على نفسك » .

وقوله : « اللهم اني أعوذ بك من الهرم ، وأعوذ بك من الهدم والغرق ، وأعوذ بك أن يتخبطني الشيطان عند الموت » .

وقوله : « باسم الله أعوذ بكلمات الله التامة ، من غضبه وعقابه ، ومن شر عباده ، ومن همزات الشياطين ، وأن يحضرون » .



هذا ، ولقد طلب القرآن الكريم الاستعاذة عند قراءة القرآن الكريم ، فقال في سورة النحل :

« فَإِذَا قَرَأْتَ القُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ »(١).

وهذا الطلب على سبيل الندب لا على سبيل الوجوب ، وبعض الفقهاء أوجب الاستعاذة في الصلاة . وطلب القرآن التعوذ بالله من شر الوسواس الخناس ، ومن شر الخلق ، ومن شر الغاسق اذا وقب ، ومن شر النفاثات في العقد ، ومن شر حاسد اذا حسد ، وفي كل موطن يتوجس الانسان فيه شرا .

وانما آكد القرآن وكرر طلب التعوذ من الشيطان ، لأنه عدو مبين للانسان ، ولا يقبل مصادقة ولا احسانا ، ولا يبتغي غير هلاك ابن آدم ، لشدة العداوة بينه وبين أبيه آدم من قبل ، وحينما يقول الانسان : «أعوذ بالله من الشيطان الرجيم » كأنه يقول : أستجير بحول الله جل جلاله من الشيطان اللعين ، أن يضرني في ديني أو دنياي ، أو يصدني عن فعل ما أمرني الله به ، أو يحثني على فعل ما نهاني الله عنه .

واذا كان في الجن شياطين ، فكذلك في الانس شياطين ، ودليل ذلك من القرآن قوله تعالى :

« مِنْ شَرِّ الوَسْوَاسِ الخَنَّاسِ ، الَّذِي يُوَسْوِسُ فِي صُدُورِ النَّاسِ ، مِنَ الجِنَّةِ وَالنَّاسِ » (٢) .

ودليله من السنة أنه جاء في مسند أحمد أن الرسول صلى الله عليه

---

(١) سورة النحل ، الآية ٩٨ .
(٢) سورة الناس ، الآيات ٤ ـ ٦ .

وسلم قال لأبي ذر : « يا أبا ذر تعوذ بالله من شياطين الانس والجن » .

فقال أبو ذر : أوللانس شياطين ؟. قال النبي : نعم .

ويقول أمير الشعراء أحمد شوقي على لسان الجن :

وكـم متعـوذ باللـه منـا تعوذ الأرضُ منه والسماء



ومما يدل على ثمرة التعوذ وفائدته ما رواه مسلم : استب رجـلان عند النبي صلى الله عليه وسلم ، فغضب أحدهما ، واحمر وجهه ، وانتفخت أوداجه ، فقال النبي : « اني لأعلم كلمة لو قالها لذهب هذا عنه : أعوذ بالله من الشيطان الرجيم » .

ويقول الامام ابن كثير : « ومن لطائف الاستعاذة انها طهارة للفـم مما كان يتعاطاه من اللغو والرفث ، وتطييب له ، وهو لتلاوة كلام الله ، وهي استعانة بالله ، واعتراف له بالقدرة ، وللعبد بالضعف والعجز عـن مقاومة هذا العدو المبين الباطني ، الذي لا يقدر على منعه ودفعه الا اللـه الذي خلقه ، ولا يقبل مصانعة ، ولا يدارى بالاحسان ، بخلاف العدو من نوع الانسان » .

ويأتي الصوفية ليتكلموا عن فضيلة التعـوذ بطريقتهم واسلوبهم ، فعند قوله تعالى : «وإما ينزغنك من الشيطان نزغ فاستعذ بالله انه سميع عليم » يقول القشيري في « لطائف الاشارات » هذه العبارة :

« ان سنح في باطنك من الوساوس أثر ، فاستعذ بالله يدركك بحسن التوفيق ، وان هجس في صدرك من الحظوظ خاطر فاستعذ بالله يدركك بازالة كل نصيب ، وان لحظتك في بذل الجهد فترة فاستعذ بالله يدركـك بادامة آلائه ، وان اعترتك في الترقي الى محل الوصول وقفة فاستعذ بالله يدركك بادامة التحقيق » .

وعند قوله تعالى :

« فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ » .

يقول : « شيطان كل واحد ما يشغله عن ربــه ، فمن تسلطت عليه نفسه ، حتى شغلته عن ربه ــ ولو بشهود طاعة ، أو استحلاء عبادة ، أو ملاحظة حال ــ فذلك شيطانه ، والواجب عليه أن يستعيذ بالله من شــر نفسه ، وشر كل ذي شر » .

ان فضيلة التعوذ بالله جل جلاله أمان واطمئنان ، وثقة بوعد اللــه وأمل في فضله ، وهذه الفضيلة شعار المؤمنين الذاكرين :

« الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللَّهِ ، أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ » [1] .

---

(1) سورة الرعد ، الآية ٢٨ .

المجاهدة

« المجاهدة » كلمة مأخوذة من مادة « الجهـد » . وهي تـدل في الاصل على المشقة ، وتدل كذلك على الجد والمبالغة في الشيء ، ومن ذلك قولهم : جَهَدَ الرجلُ دابته ، أي حمل عليها في السير فوق طاقتها .

والمجاهدة هي بذل الوسع في المدافعة والمغالبة ، وقد تطلق المجاهدة على استفراغ الوسع في مدافعة العدو . ولكن المجاهدة حين تستعمل في المجال الاخلاقي يراد بها مقاومة الشهوات والاهواء ، ولعل هذا هو مـا أشار اليه الحسن البصري حين قال : « ان الرجل ليجاهد وما ضرب يوما من الدهر بسيف » .

ومجاهدة النفس كما يراها أهل التهذيب والتربية الروحية والتصفية الاخلاقية هي منع النفس عن اتيان الحرام ، والابتعاد بها عن حمى الاثم ، وعماد ذلك حياة القلب وطهارته ، كما أشار الى ذلك الحـديث القـائل : « الحلال بيِّن ، والحرام بيِّن ، وبينهما أمور مشتبهات لا يعلمهن كثير من الناس ، فمن أبقى الشبهات فقد استبرأ لدينه وعرضه، ومن واقع الشبهات وقع في الحرام ، كالراعي يرعى حول الحمى يوشك ان يقع فيه ، ألا وان لكل ملك حمى ، ألا وان حمى الله محارمه ، ألا وان في الجسد مضغة اذا صلحت صلح الجسد كله، واذا فسدت فسد الجسد كله، ألا وهي القلب».

واذا كان ذهن الكثير من الناس ينصرف في الغـالب ــ عند سماع كلمتي الجهاد والمجاهدة ــ الى جهاد الاعداء في الميدان، فان المجاهدة عند الاخلاقيين يتسع مفهومها ، حتى يشمل ما يذكره حاتم الاصم بقولـه : « الجهاد ثلاثة : جهاد في سرك مع الشيطان حتى تكسـره ، وجهـاد في العلانية ، في اداء الفرائض حتى تؤديها كما أمر الله ، وجهاد مع أعداء الله في غزو الاسلام » . ويؤكد الاصفهاني ذلك حين يذكر ان للجهاد أضربـا ثلاثة : مجاهدة العدو الظاهر ، ومجاهـدة الشيطان ، ومجاهـدة النفس ، وتدخل الثلاثة في قول الله سبحانه :

« وَجاهِدُوا فِي اللهِ حَقَّ جِهادِهِ » [1] .

ولا يختلف عاقلان في أن جهاد الاعداء بالمال والنفس فريضة قائمة باقية واجبة ، كلما نهضت دواعيهـا ، ولكن ينبغي أن نلاحظ أن الجهـاد الحسي بالمال والنفس انما يكون على وجهه وصدقه ، بعد التحلي بفضيلة المجاهدة النفسية الروحية ، التي تجعل صاحبها يزهد في المال ، ويقدمـه طائعا مختارا في سبيل ربه ، بلا شح ولا بخل ولا تردد ، وتجعله يفضـل ارضاء الله على البقـاء في الحياة ، وبذلـك يكون ضمن أولئك المؤمنين الأخيـار ، الذين قال عنهم ربهم في سورة البقرة :

« إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللهِ أُولَئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَةَ اللهِ وَاللهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ » [2] .

وقال عنهم في سورة الانفال :

« إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِم

---

(١) سورة الحج ، الآية ٧٨ .
(٢) سورة البقرة ، الآية ٢١٨ .

فِي سَبِيلِ اللهِ ، وَالَّذِينَ آوَوْا وَنَصَرُوا أُولَئِكَ بَعْضُهُم أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ » [1] .

وقال عنهم في سورة التوبة :

« الَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ أَعْظَمُ دَرَجَةً عِنْدَ اللهِ وَأُولَئِكَ هُمُ الفَائِزُونَ » [2] .



ولعل مجاهدة الانسان نفسه هي أشد الواجبات وأثقلها على الانسان، لأن سلطان الهوى عنيف ، والشهوات كثيرة ، والجوارح الطالبة متعددة، فللعين شهواتها ، وللاذن شهواتها ، وللسان شهواته ، وللبطن شهواته ، وللفرج شهواته ، وهكذا ...

والمغريات كثيرة ، والشيطان بالمرصاد ، ونفس الانسان الأمارة بالسوء تغري صاحبها بالشهوات واللذات ، واذا سيطر الهوى على الانسان ، غطى قلب الانسان ـ كما يقول بعض العلماء ـ بدخان الشهوات ، فيحول بينه وبين النظر الى نور العقل ، فتحدث للقلب غفلة عما يليق به ، ويؤدي به ذلك الى الطغيان والاستعلاء ، لمحاولة الوصول الى ما يشتهيه ، والحصول على ما يريد .

وقد يفرح الانسان بذلك ، ولكنه الفرح الذي ذمه القرآن المجيد حين قال :

---

(١) سورة الانفال ، الآية ٧٢ .
(٢) سورة التوبة ، الآية ٢٠ .

« لا تَفْرَحْ إنَّ اللهَ لا يُحِبُّ الفَرِحِينَ »[1] .

وانما الفرح الحقيقي العظيم المحمود هو فرحة المؤمن بفضل ربه ونعمته ، ولذلك يقول التنزيل المجيد :

« قُلْ بِفَضْلِ اللهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِمّا يَجْمَعُونَ »[2] .

وحين نعقل هذه الحقائق التي سلفت يتأكد لدينا أن تحلي الانسان بفضيلة المجاهدة واجب ثقيل وهدف جميل . ولقد تحدث القرآن الحكيم عن هذه «المجاهدة» في أكثر من موطن ، فهو يقول في سورة الحج :

« وَجَاهِدُوا فِي اللهِ حَقَّ جِهَادِهِ »[3] .

أي جاهدوا في ذاته ، ومن أجله ، حق جهادكم فيه فلا تفعلوا هذا الجهاد رغبة في الدنيا ، ولكن لابتغاء وجه الله . وقد فسّر ابن عباس هذه الآية بقوله : « لا تخافوا في الله لومة لائم » . وفسرها الضحاك بقوله : « اعملوا لله حقّ عمله » . وقيل ان المعنى : استفرغوا وسعكم في احياء دين الله ، واقامة حقوقه ، وردوا أنفسكم عن الهوى والميل . وقال عبدالله بن المبارك : ان حق الجهاد هو مجاهدة النفس والهوى . ولذلك قيل ان الرسول صلى الله عليه وسلم حينما رجع من غزوة تبوك قال : رجعنا من الجهاد الاصغر الى الجهاد الاكبر، وهو يعني بهذا ــ اذا صحت الرواية ــ مجاهدة النفس .

---

(١) سورة القصص ، الآية ٧٦ .
(٢) سورة يونس ، الآية ٥٨ .
(٣) سورة الحج ، الآية ٧٨ .

وقوله تعالى : « وجاهدوا في الله حق جهاده » تعبير جامع شامل ، يضم جهاد النفس ، وجهاد الفساد ، وجهاد الشر ، وجهاد العدو . وهـذا الجهاد يتطلب تعبئة ضخمة واعدادا واسعا ، ولعل هذا هو ما يوحي به جو الآية التي جاءت فيها هذه العبارة ، وما تضمنه النص الالهي من توجيه الى صفات وواجبات ، فالنص يسير هكذا :

« يا أَيُّها الَّذِينَ آمَنُوا ارْكَعُوا واسْجُدُوا ، وَاعْبُدُوا رَبَّكُمْ ، وَافْعَلُوا الخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ، وَجاهِدُوا فِي اللهِ حَقَّ جِهادِهِ ، هُوَ اجْتَبَاكُمْ ، وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّين مِنْ حَرَجٍ ، مِلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ ، هُوَ سَمَّاكُمُ المُسْلِمِينَ مِنْ قَبْلُ وَفِي هَذا لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيداً عَلَيْكُمْ ، وَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ ، فَأَقِيمُوا الصَّلاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ ، وَاعْتَصِمُوا بِاللهِ هُوَ مَوْلاكُمْ ، فَنِعْمَ المَوْلى وَنِعْمَ النَّصِيرُ »[1] .

ويذهب القشيري في « لطائف الاشارات » الى أن « حق الجهاد » هو موافقة أمر الله في القدر والوقت والنوع ، فاذا حصلت مخالفة في شيء من الامر فليس ذلك بحق الجهاد ، ثم يضيف هذا التفصيل :

« ويقال : المجاهدة على أقسام : مجاهدة بالنفس ، ومجاهدة بالقلب، ومجاهدة بالمال ، فالمجاهدة بالنفس ألاّ يدخر العبد ميسورا الا بذله في الطاعـة ، يتحمل المشاق ، ولا يطلب الرخص والارفـاق [أي التخفيف والتسهيل] .

---

(١) سورة الحج ، الآيتان ٧٧ و٧٨ .

والمجاهدة بالقلب صونه عن الخواطر الرديئة ، مثل الغفلة والعزم على المخالفات ، وتذكر ما سلف أيام الفترة والبطالات .

والمجاهدة بالمال : بالبذل والسخاء ، ثم بالجود والايثار .

ويقال : حق الجهاد الأخذ بالأشق ، وتقديم الاشق على الاسهل ، وان كان في الاخف أيضا حظ .

ويقال : حق الجهاد ألا يفتر العبد عن مجاهدة النفس لحظة » .



ويعود القرآن في موطن ثان ليقول عن المجاهدة في سورة العنكبوت:

« وَمَنْ جَاهَدَ فإنما يُجاهِدُ لِنَفْسِهِ ، إِنَّ اللهَ لَغنِيٌّ عَنِ العَالَمِينَ » (1) .

واذا كان الله جل جلاله قد كلّف عباده أن يجاهدوا أنفسهم ، فانما ذلك لاصلاحهم وتكميلهم ــ كما يقول بعض أهل التفسير ــ وتحقيق الخير لهم في دنياهم وأخراهم ، فالمجاهدة تُصلح من نفس المجاهد وقلبه ، وترفع من مشاعره وآفاقه ، وتجعله يتأبى على البخل والشح ، وتثير فيه أفضل المزايا والدوافع .

ولذلك يذكر القشيري أن من اتبع طريق الاحسان فانه يطلب بذلك نجاة نفسه وسعادة حاله ، ومن اتبع طريق السوء فقد استوجب لنفسه الشقاء والعقاب ، وثواب المطيعين عنهم مصروف ، وعذاب العاصين عليهم موقوف .



(1) سورة العنكبوت ، الآية ٦ .

ويعود الذكر الحكيم الى الحديث عن المجـاهدة في موطن ثالث ، فيقول في سورة العنكبوت :

« وَالَّذِينَ جاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنا وَإِنَّ اللهَ لَمَعَ المُحْسِنِينَ » [1] .

أي ان الـذيـن قـاومـوا شـهواتهـم وطهـروا نفـوسـهم وصانوا قلوبهم ، ابتغاء وجه ربهم يهبهم الله الهداية والوقاية والرعـاية ، لأنه يكون معهم بفضله وتأييده ، ومن كان الله معه فقد سعد وفاز .

ولقد أتى القرآن الكريم بهذه الآية في ختام سورة العنكبوت بعد أن ذكر قبلها مباشرة الفريق الخاسر الشقي فذلك حيث يقول :

« وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللهِ كَذِباً أَوْ كَذَّبَ بالحَقِّ لَمَّا جَاءَهُ ، أَلَيْسَ في جَهَنَّمَ مَثْوىً لِلْكَافِرِينَ » [2] .

ثم يعقب ذلك بمسك الختام في حديثه عن أهل المجاهدة، وهم ــ كما يقول بعض المفسرين ــ : « الذين جاهدوا في الله ليصلوا اليه ويتصلوا به ، الذين احتملوا في الطريق اليه ما احتملوا ، فلم ينكصوا ولم ييأسوا. الذين صبروا على فتنة النفس وفتنـة النـاس . الذين حملوا اعبـاءهم ، وساروا في ذلك الطريق الطويل الشاق الغريب ... أولئك لن يتركهم الله وحدهم ، ولن يضيع ايمانهم ، ولن ينسى جهادهم . انه سينظر اليهم مـن عليائه فيرضاهم ، وسينظر الى جهادهم فيه فيهديهم ، وسينظر الى محاولتهم الوصول فيأخذ بأيديهم ، وسينظر الى صبرهم واحسانهم فيجازيهم خـير

---

(١) سورة العنكبوت ، الآية ٦٩ .
(٢) سورة العنكبوت ، الآية ٦٨ .

الجزاء: « والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا ، وان الله لمع المحسنين »

ويقرر الرازي أن من جاهد بالطاعة هداه الله سبيل الجنة ، وأن قوله: « وان الله لمع المحسنين » اشارة الى قوله :

« لِلذينَ أَحْسَنُوا الحُسْنَى وَزِيادَةٌ »[1] .

فقوله : « لنهدينهم » اشارة الى الحسنى ، وقوله :

« وَإِنَّ اللهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ » .

اشارة الى المعية والقربة التي تكون للمحسن زيادة على حسناته .

ويرى النيسابوري أن الآية آية جامعة ، فيها تسلية قلوب المؤمنين المتطهرين ، والمراد منها أن من جاهد النفس أو الشيطان — من أجل رضا الله سبحانه — فان الله يهديه طريق الجنة أو طريق الخير ، باعطائه مزيدا من الألطاف والتوفيق .

ويذهب عباس الهمداني الى أن معنى الآية هو : الذين يعملون بما يعلمون ، يهديهم الله الى ما لا يعلمون .

ولقد أعجب سليمان الداراني بهذا التفسير ، وعلق عليه بقوله : « ليس ينبغي لمن ألهم شيئا من الخير أن يعمل به حتى يسمعه في الأثر ، فاذا سمعه في الأثر عمل به ، وحمد الله حين وافق ما في قلبه » .

ويأبى القشيري الا أن يصور المجاهدة هنا على طريقته ، فيذكر أن الجهاد يكون أولا بترك المحرمات ، ثم بترك الشبهات ، ثم بترك الفضلات، ثم بقطع العلاقات ، والتنقي من الشواغل في جميع الاوقات . ويضيف قول

---

(١) سورة يونس ، الآية ٢٦ .

من قال : الجهاد هنا يكون بحفظ الحواس لله ، وبعدّ الأنفاس مع الله .



ويشير القرآن الكريم الى المجاهدة حين يقول في سورة القتال :

« وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّى نَعْلَمَ الْمُجَاهِدِينَ مِنْكُمْ وَالصَّابِرِينَ وَنَبْلُوَ أَخْبَارَكُمْ »[1] .

وعن طريق الابتلاء والامتحان ــ كما يعبر صاحب لطائف الاشارات ــ تتبين جواهر الرجال فيظهر المخلص ، ويفتضح المماذق[2] ، وينكشف المنافق ، فالذين آمنوا وأخلصوا ، نجوا وتخلصوا ، والذين كفروا ونافقوا، وقعوا في الهوان وأذلوا ، ووُسموا بالشقاوة وقُطعوا .



فاذا انتقلنا من روضة القرآن الحكيم الى روضة السنة النبوية وجدناها تعطي المجاهدة مكانتها وحقها ، فيروي ابن حنبل والترمذي قول الرسول عليه الصلاة والسلام : « المجاهد من جاهد نفسه » . ويذكر الاصبهاني في « المفردات » حديثا يقول : « جاهدوا أهواءكم كما تجاهدون أعداءكم » .

كما أن الرسول عليه صلوات الله وسلامه جعل الاحسان الى الوالدين والقيام بحقوقهما مجاهدة تنوب عن الجهاد في الميدان ، فقد روى البخاري قصة الفتى الذي أراد أن يخرج غازيا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقال له الرسول : أحيّ والداك ؟. قال الفتى : نعم .

---

(١) سورة محمد ، الآية ٣١ .
(٢) المماذق : غير المخلص .

قال النبي : ففيهما فجاهد .



ثم يأتي حديث المجاهدة عند الصوفية ، وهو حديث يسير على طريقتهم التي انفردوا بها . وقد شغلوا أنفسهم كثيرا بموضوع المجاهدة ، وهي عندهم تحتاج الى قوة وصبر واخلاص قصد ، ولذلك نجد في كتاب « اللمع » هذا النص :

« ان طبقة من الصوفية غلطت في العبادات ، والمجاهدات ، ورياضات النفوس والمكابدات ، فلم تُحكم في ذلك أسبابها ، ولم تضع الاشياء في مواضعها ، فانهزمت ونكصت على أعقابها القهقرى . وذلك أنهم حين سمعوا بمجاهدات المتقدمين ، وما نشر الله بذلك أعلامهم في خَلقه ، بالثناء الجميل والقبول عند الناس واظهار الكرامات ، طمعت نفوسهم وتمنوا ، فتكلفوا شيئا من ذلك ، فلما طالت المدة ولم يصلوا الى مرادهم كسلوا ، فاذا دعاهم داعي العلم الى المجاهدة والعبادة ورياضة النفس ، فلا يقام لذلك عندهم وزن .

ولو جذبهم الحق جذبة الى خدمته ، وأرادهم بالمداومة على طاعته ، وأدركهم بلطفه وعنايته ، لازدادت رغباتهم ، وقويت نياتهم ، ودامت على ما كانت عليه نياتهم ، فلما لم يكونوا مرادين بذلك ـ لضعف دعائمهم وفساد قصدهم ـ توهموا أن ذلك فتور . وقد غلطوا في ذلك ، لأن الفتور ما تتروح به قلوب المجتهدين وقتا دون وقت ، ثم تعود الى الحال .

فأما ما وقع فيه هؤلاء فهو الكسل والتواني والاماني الكاذبة » .

ويرى الصوفية أن الطريق الى المجاهدة عمادها وأساسها تطهير الباطن ليتزين الظاهر ، والحارث المحاسبي يقول : « من صحّ باطنه بالمراقبة والاخلاص ، زيّن الله ظاهره بالمجاهدة واتباع السنة » . ويقول منصور

ابن عمار : « الناس رجلان : عارف بنفسه ، فشغله في المجاهدة والرياضة، وعارف بربه ، فشغله بخدمته وعبادته ومرضاته » .

ولقد أسرف بعض الصوفية في تصوير المجاهدة اسرافا لا يتواءم مع سماحة الدين ويسر الاسلام ، وهذا مثلا هو الحكيم الترمذي يرى أن جهاد النفس يشمل صدها عن الحرام ، وعن الاقتراب من حمى الاثم ، بل منعها عن الحلال في أول الامر ، حتى لا تطمع في الحرام ، ويصور ذلك بأن الانسان يلزم نفسه الصمت عن الكلام حتى تتعود السكوت ، وتموت عندها شهوة الكلام ، وبذلك يقوى الانسان على الصدق بعد ذلك ، فلا يتكلم الا بحق ، وبذلك يصير سكوته عبادة ، وكلامه عبادة ، لأنه ان نطق نطق بحق ، وان سكت سكت بحق .

ويتوسع الترمذي توسعا غير جميل وغير مقبول ، فيقول : « وفي الجملة ينبغي أن يتفقد كل حال وكل أمر للنفس فيه فرح واستبشار ، من نعمة أو وجود لذة أو أنس بشيء ، فيقطعه عنها ، وانه كلما هويت النفس شيئا أعطاها فرحت به ، فينبغي له أن يمنعها ، ولو شربة من ماء باردة تريد أن تشربها ، فيمنعها في تلك الفورة التي تشوفت لوجود بردها ولذتها ، حتى تسكن تلك الفورة ، وينغص عليها ، ثم يسقيها بعد ذلك ، حتى يملأها غما ، ويوقرها هما[1] ، لأن من شأنها اذا حبس عنها هذه الافراح بهذه الاشياء وبهذه الاحوال ، فكأنه صيّرها في سجن ، فيتقرب الى الله عز وجل بغمها وهمها ، فيعجل الله عز وجل له ثوابه نورا على القلب ، فيزداد القلب بذلك النور قوة على منع النفس شهواتها ، وعلى أخذ سلطانها ، ويستولي عليها وهي تذل وتذبل ، والعدو يخسا ويتحير ، ويبطل كيده ومكره » .

---

(١) يوقرها : يثقلها ويملؤها .

هكذا يتحدث الترمذي ، ولكنا نتذكر قول الله جلت حكمته في سورة الأعراف :

« يَا بَنِي آدَمَ خُذُوا زينتَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ ، وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلاَ تُسْرِفُوا إِنَّهُ لا يُحِبُّ المُسْرِفِينَ . قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ والطَّيِّبات مِنَ الرِّزْقِ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ آمنوا في الحياةِ الدنيا خَالِصَةً يومَ القيامَةِ كذلكَ نُفَصِّلُ الآياتِ لِقومٍ يَعْلَمُونَ . قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّي الفواحِشَ ما ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالاثْمَ ؛ والبَغْيَ بغير الحَقِّ وَأَنْ تُشْرِكُوا باللهِ مَا لم يُنَزِّلْ بِهِ سُلطاناً وَأَنْ تَقُولُوا عَلى اللهِ مَا لا تعلمونَ » [1] .

ان الصورة الحلوة التي تتطلبها للمجاهدة هي أن يقيم الانسان المؤمن من ارادته وعزيمته ومراقبته على نفسه ما يصده عن الخنا والأذى ، وما يربطه على الدوام بالتقى والهدى ، وما يجعله يقاوم الشهوات والاهواء، دون أن يحرم ما أحل الله :

« وَعَلَى اللهِ قَصْدُ السَّبِيلِ وَمِنْهَا جَائِرٌ ، وَلَوْ شَاءَ لَهَداكُمْ أَجْمَعِينَ » [2] .

---

(١) سورة الاعراف ، الآيات ٣١ ــ ٣٣.
(٢) سورة النحل ، الآية ٩ .

اليقــين

كلمة « اليقين » تدل على معنى الثبات مع الوضوح ، واليقــين هو العلم الذي انتفت عنه الشكوك والشبهات ، ويقال : أيقن الانسان الامر وأيقن به ، اذا علمه علما لا شك فيه ، واستيقن الامر وأيقنــه : علمــه ، والايقان عند الاطلاق يراد به الايقان بما يجب الايمــان به في الــدين . واليقين ــ عند علماء التوحيد ــ هو الاعتقاد المطابق للواقع الذي لا يقبل الشك ولا الزوال .

واليقين ــ كما يقول الاصفهاني ــ فوق المعرفة والدراية وأخواتها ، ولذلك يقال : علم يقين ، ولا يقال : معرفة يقين . واليقين سكون الفهم مع ثبات الحكم[1] .

وقد يطلق اليقين في لغة القرآن على الموت ، لأنه واقع محتوم ، لا مفر منه ولا شك ، فيقول في سورة الحجر :

« وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّى يَأْتِيَكَ اليَقِينُ »[2] .

---

(١) للصوفية تصوير آخر للمعرفة ، ليس هنا مجال بحثه .
(٢) سورة الحجر ، الآية ٩٩ .

ويقول في سورة المدثر :

« وَكُنَّا نُكَذِّبُ بِيَوْمِ الدِّينِ ، حَتَّى أَتَانَا الْيَقِينُ »[1] .

واليقين بالمعنى الاخلاقي فضيلة من أعظم الفضائل وأجلها ، لأنها تعلِّم صاحبها استقرار الايمان ، وثبات الروح ، وزكاة النفس ، ولذا نرى ابن القيم يقول في تصوير اليقين : « هو من الايمان بمنزلة الروح من الجسد ، وبه تفاضل العارفون ، وفيه تنافس المتنافسون ، واليه شمَّر العاملون . وعملُ القوم انما كان عليه ، واشاراتهم كلها اليه . واذا تزوج الصبر باليقين وُلد بينهما حصول الامامة في الدين . قال تعالى وبقوله يهتدي المهتدون :

« وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ »[2] .

ويقول أيضا : « اليقين روح أعمال القلوب ، التي هي أرواح أعمال الجوارح ، وهو حقيقة الصديقية ، وهو قطب هذا الشأن الذي عليه مداره » .

وحق له أن يقول ذلك . لأن اليقين هو استقرار العلم الذي لا ينقلب ولا يتحول ولا يتغير ، ولأن اليقين يعطينا معنى الاحسان الذي يقول فيه رسول الله عليه الصلاة والسلام : « الاحسان أن تعبد الله كأنك تراه ، فان لم تكن تراه فانه يراك » .

وهذا اليقين الجازم الدائم الثابت يقتضي كمال التصديق لرسول

---

(١) سورة المدثر ، الآيتان ٤٦ و٤٧ .

(٢) سورة السجدة ، الآية ٢٤ .

الله صلى الله عليه وسلم فيما أخبر به ، حتى يقول المؤمن الموقن كما قال عامر بن عبد قيس : « لو كشف الغطاء ما ازددتُ يقينا » . وكما قال بعضهم : رأيت الجنة والنار حقيقة . فعجب من سمعه فقال : وكيف ؟. فأجاب : رأيتهما بعيني رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ورؤيتي لهما بعينيه آثر عندي من رؤيتي لهما بعينيّ ، فان بصري ، قد يطغى ويزيغ ، بخلاف بصره صلى الله عليه وسلم ، فهو المقول فيه :

« ما زَاغَ البَصَرُ وَمَا طَغَى »[1] .



ولقد جاء ذكر اليقين في مواطن كثيرة من القرآن الكريم ، فقال تعالى في سورة البقرة :

« قَدْ بَيَّنَّا الآياتِ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ »[2] .

وقال في سورة الرعد :

« يُدَبِّرُ الأَمْرَ يُفَصِّلُ الآيَاتِ لَعَلَّكُمْ بِلِقَاءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ »[3] .

وقال في سورة النمل :

« تِلْكَ آيَاتُ القُرْآنِ وَكِتَابٍ مُبِينٍ ، هُدًى وَبُشْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ ، الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ

(١) سورة النجم ، الآية ١٧ .
(٢) سورة البقرة ، الآية ١١٨ .
(٣) سورة الرعد ، الآية ٢ .

بِالآخِرَةِ هُمْ يُوْقِنُونَ » (١) .

وقال في سورة الجاثية :

« هَذَا بَصائِرُ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ » (٢) .

والقرآن يحدثنا عن اليقين ، وحق اليقين ، وعلم اليقين ، وعين اليقين، ويقول العلماء ان اليقين هو الاعتقاد الجازم ، وعلم اليقين هو ما ظهر من الحق ، وهو الدين وأحكامه ، وقبول ما غاب للحق ، وهو الايمان بالغيب كأمور الآخرة ، والوقوف على ما قام بالحق ، كمعرفة أسماء الله وصفاته وأعماله ، وعين اليقين هو معاينة الحق . وحق اليقين هو تذوق الحق والفناء فيه ، وهو مقصور على الرسل صلوات الله وسلامه عليهم .

وهذا هو ابن القيم يحاول أن يقرّب الينا هذا ، فيقول : « الفرق بين علم اليقين وعين اليقين كالفرق بين الخبير الصادق والعيان ، وحق اليقين فوق هذا . وقد مثّلت المراتب الثلاث بمن أخبرك أن عنده عسلا ، وأنت لا تشك في صدقه ، ثم أراك اياه فازددت يقينا ، ثم ذقتَ منه .

فالأول علم اليقين ، والثاني عين اليقين ، والثالث حق اليقين . فعلمنا الآن بالجنة والنار علم يقين ، فاذا أزلفت الجنة في الموقف للمتقين ، وشاهدها الخلائق ، وبرّزت الجحيم للغاوين ، وعاينها الخلائق ، فذلك عين اليقين ، فاذا أدخل أهل الجنة الجنة ، وأهل النار النار ، فذلك حينئذ حق اليقين » .

وفي سورة التكاثر نجد الحق جل جلاله يقول :

---

(١) سورة النمل ، الآيات ١ ـ ٣ .
(٢) سورة الجاثية ، الآية ٢٠ .

« كَلاَّ لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ اليَقِينِ ، لَتَرَوُنَّ الجَحِيمَ ، ثُمَّ لَتَرَوُنَّها عَيْنَ اليَقِينِ » [1] .

وقد علق الاستاذ الامام محمد عبده على الآية الاولى بقوله : « جرت سنة الغافلين اذا نُبِّهوا ، والذاهلين اذا ذُكِّروا بعواقب ما هم فيه ، أن يحدِّثوا أنفسهم بأنهم يعلمون ذلك ، وأنهم يفعلون ما يفعلون عن يقظة وارشاد بصيرة ، وأنهم محيطون بما ينشأ عن فعالهم ، ويُسَلّون أنفسهم بذلك ليستمروا في لهوهم .

فحارب الله هذه الهواجس ، وقاتل هذه الخواطر بقوله :

« كَلاَّ لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ اليَقِينِ » .

أي ارتدعوا عن تغريركم بأنفسكم ، بدعوى أنكم تعلمون عاقبة ما أنتم فيه من اللهو بالتكاثر ، فان هذا الذي تسمونه علما ليس على الحقيقة بعلم ، وانما هو وهم وظن ، لا يلبث أن يتغير مهما استحكم عقده من قلوبكم ، لأنه لا يطابق واقعا .

والجدير بأن يسمى علما هو علم اليقين ، أي العلم الذي هو من أفراد اليقين . واليقين هو الاعتقاد الذي يطابق الواقع عن عيان أو دليل صحيح ، مقدماته بديهية أو منتهية الى البديهيات ، بحيث يستحيل تغيره .

والنفس اذا ملكت هذا النوع من العلم ملكا هو ارادتها ، وعاد المصرِّف لها في شؤونها . فلو تعلمون هذا العلم لرفعكم عن هذا التكاثر ، ودفعكم الى السعي فيما تصلح به ظواهركم ، وتخلص به لله سرائركم ، وتتحد به في تأييد الحق هممكم ، لأن التحقق من سوء العاقبة ينأى بالنفس عما يفضي اليها ، ويدفعها الى طلب ما هو أحسن منها » .

---

(١) سورة التكاثر ، الآيات ٥ ـ ٧ .

ثم علق الامام على قوله تعالى : « ثم لترونها عين اليقين » بقولـه : أي لترونّها رؤية هي اليقين نفسه ، وعلم العيـان والمشاهدة من أفـراد اليقين ، يسمى عين اليقين ، لأنه هو الذي تنتهي اليه جميع العلوم اليقينية، لأن العلم البرهاني ان لم ينته الى علم عياني لا يعد يقينا ، فالعياني هو ذات اليقين ، وبقية العلوم تضاف اليه متى استوفت شرائطها » .

والامام قد ربط بين اليقين العلمي واليقين الاخلاقي ، حينما قرر أن علم اليقين هو الذي يصلح النفس ويصونها من الانحراف ، فهو الـذي ينهى النفس عن التكاثر الباطل الزائل ، وهو الذي يدفع الى السعي فيما تصلح به الظواهر وتتطهر السرائر .



وفي حديث القرآن الكريم عن اليقين عدة ظواهر ، منها ما ربط بين اليقين ومشاهد الكون ، أو بين اليقين والتدبر والنظر في ملكون السموات والارض ، وفي الدلائل والآيات . يقول القرآن في سورة الرعد :

« اللهُ الَّذي رَفَعَ السَّمَوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَها ، ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى العَرْشِ ، وَسَخَّرَ الشَّمْسَ والقَمَرَ ، كُلٌّ يَجْرِي لأَجَلٍ مُسَمًّى ، يُدَبِّرُ الأَمْرَ ، يُفَصِّلُ الآياتِ لَعَلَّكُمْ بِلِقَاءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ » [1] .

ويقول في سورة الجاثية :

« وَفِي خَلْقِكُمْ وَما يَبُثُّ مِنْ دابَّةٍ آياتٌ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ » [2].

---

(١) سورة الرعد ، الآية ٢ .
(٢) سورة الجاثية ، الآية ٤ .

ويقول في سورة الطور :

« أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الخالِقُونَ ، أَمْ خَلَقُوا السَّمَوَاتِ والأَرْضَ بَلْ هُمْ لا يُوقِنُونَ » (١) .

ويقول في سورة الذاريات :

« وَفِي الأَرْضِ آياتٌ لِلْمُوقِنِينَ ، وَفِي أَنْفُسِكُمْ أَفلا تُبْصِرُونَ ، وَفي السَّماءِ رِزْقُكُمْ وَما تُوعَدونَ » (٢) .

ومن الظواهر في هذا الحديث الربط بين اليقين والفرائض والواجبات . يقول القرآن في سورة البقرة :

« الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ ، وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِما أُنزِلَ إِلَيْكَ وَما أُنزِلَ مِنْ قَبْلِكَ وَبالآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ » (٣) .

ويقول في سورة لقمان :

« الَّذِينَ يُقيمُونَ الصَّلاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكاةَ وَهُمْ بالآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ » (٤) .

---

(١) سورة الطور ، الآيتان ٣٥ و٣٦ .
(٢) سورة الذاريات ، الآيات ٢٠ ــ ٢٢ .
(٣) سورة البقرة ، الآيتان ٣ و٤ .
(٤) سورة لقمان ، الآية ٤ .

ومن الظواهر الربط بين اليقين والـدار الآخـرة . يقول القرآن في سورة البقرة : :

« وبالآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ »[1] .

ويقول في سورة الرعد :

« لَعَلَّكُمْ بِلِقاءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ »[2] .

ويقول في سورة النمل :

« وَهُمْ بالآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ »[3] .

وكأن اليقين ينبثق من ينبوع البحث والتأمل ، وسعة التدبر والتفكر، فيغمر نور الايمان قلب الانسان، ويدفعه ذلك الى أداء الفروض والواجبات، ويجعله على الدوام متذكرا لقاء الله ، فيحسن الاستعداد لهذا اللقاء .

وهنا يحسن بنا أن نتأمل عبارة للامام الرازي في تفسيره يقول فيها « اليقين هو العلم بالشيء ، بعد أن كان صاحبه شاكا فيه ، فلذلك لا يقول القائل : تيقنت وجود نفسي ، وتيقنت أن السماء فوقي ، لما أن العلم بـه غير مستدرك . ويقال ذلك في العلم الحادث بالامور ، سواء أكان ذلـك العلم ضروريا أو استدلاليا ، فيقول القائل : تيقنت ما أردته بهذا الكلام ، وان كان قد علم مراده بالاضطرار . ويقول : تيقنت أن الاله واحد ، وان كان قد علمه بالاكتساب ، ولذلك لا يوصف الله تعالى بأنه يتيقن الاشياء».

ثم أضاف الرازي في تفسير قوله تعالى : « وبالآخرة هم يوقنون »

---

(۱) سورة البقرة ، الآية ٤ .
(۲) سورة الرعد ، الآية ٢ .
(۳) سورة النمل ، الآية ٣ .

هذه العبارة : « ان الله تعالى مدحهم على كونهم متيقنين بالآخرة ، ومعلوم أنه لا يمدح المرء بأن يتيقن وجود الآخرة فقط ، بل لا يستحق المدح الا اذا تيقن وجود الآخرة مع ما فيها من الحساب والسؤال ، وادخال المؤمنين الجنة ، والكافرين النار .

رُوي عنه عليه السلام أنه قال : يا عجبا من الشاك في الله ، وهو يرى خلقه ، وعجبا ممن يعرف النشأة الاولى ثم ينكر النشأة الآخرة ، وعجبا ممن ينكر البعث والنشور ، وهو في كل يوم وليلة يموت ويحيا ــ يعني النوم واليقظة ــ وعجبا ممن يؤمن بالجنة وما فيها من النعيم ثم يسعى لدار الغرور ، وعجبا من المتكبر الفخور ، وهو يعلم أن أوله نطفة مذرة، [1] وآخره جيفة قذرة » .



وتقبل مائدة السنة النبوية المطهرة ، فاذا هي تعطي فضيلة اليقين ما تستحقه من عناية ، فيقول الرسول عليه الصلاة والسلام : « سلوا الله تعالى العفو والعافية ، واليقين في الدنيا والآخرة» . ويرد في كتاب «مدارج السالكين » لابن القيم هذا الحديث : « لا تُرضين أحدا بسخط الله ، ولا تحمدن أحدا على فضل الله ، ولا تذمن أحدا على ما لم يؤتك الله ، فان رزق الله لا يسوقه اليك حرص حريص ، ولا يرده عنك كراهية كاره ، وان الله بعدله وقسطه جعل الرَّوْح والفرح في الرضى واليقين ، وجعل الهم والحزن في الشك والسخط » .

ويروي الترمذي وأحمد قول رسول الله صلى الله عليه وسلم : « ادعوا الله وأنتم موقنون بالاجابة » .

ولقد ضرب أصحاب الرسول عليه الصلاة والسلام أمثلة باهرة في

---

(١) مذرة : قذرة فاسدة .

التحلي بفضيلة اليقين ، ومنهم المجاهد الشهيد العارف بربه : حارثة بن سراقة الانصاري الذي قلت عنه في كتابي : « فدائيون في تاريخ الأسلام » هذه العبارة : « وكان حارثة شابا نقيا ، انشرح صدره لهدى الله تعالى ، فاستحوذ عليه وتمكن منه ، فهو لا يفكر ولا ينطق ولا يعمل ولا يتحرك ولا يسلك الا في نطاق الايمان والمراقبة والمعرفة بالله عز وجل.

ولقد لقيه الرسول صلى الله عليه وسلم ذات صباح فقال له : كيف أصبحت يا حارثة ؟.

فأجاب : أصبحت مؤمنا حقا .

فقال له النبي : انظر ماذا تقول يا حارثة ؟ فان لكل قول حقيقة .

فقال حارثة : يا رسول الله ، عزفت نفسي عن الدنيا ، فأسهرتُ ليلي ، وأظمأت نهاري ، وكأني بعرش ربي عز وجل بارزا ، وكأني أنظر الى أهل الجنة يتزاورون فيها ، وكأني أنظر الى أهل النار يتعاوون فيها .

فأعجب الرسول صلى الله عليه وسلم بجوابه وقال له : يا حارثة ، عرفت فالزم .

ثم أضاف الرسول قوله مشيرا الى حارثة : « عبد نوَّر الله الايمانَ في قلبه »[1] .



ولفضيلة اليقين ثمراتها العظمى عند الله عز وجل ، فالقرآن الكريم يدلنا على أن فضيلة اليقين تصل بصاحبها الى الهداية في الدنيا والفلاح في الآخرة ، فيقول عن المتقين في سورة البقرة :

---

(١) كتاب « فدائيون في تاريخ الاسلام » ، ص ٢٨٤ نشر دار الرائد العربي.

« وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ ، وَبالآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ، أُولَئِكَ عَلَى هُدًى مِنْ رَبِّهِمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ » [1] .

وفي مقابل هؤلاء السعداء يوجد أهل الخيبة والشقاء ، وهم أهل الشك والظن الذين حرموا نعمة اليقين ولذلك يقولون :

« إِنْ نَظُنُّ إِلا ظَنّاً وَمَا نَحْنُ بِمُسْتَيْقِنِينَ » [2] .

ومن ثمرات فضيلة اليقين استمرار الارتباط بحمى الله عز وجل ، وبذلك يصدق المرء في توكله ، ومن هنا قال الحق تبارك وتعالى :

« فَتَوَكَّلْ عَلَى اللهِ ، إِنَّكَ عَلَى الحَقِّ المُبِين » .

وبذلك يدفع اليقين صاحبه الى الاقدام وركوب الاهوال والاخطار بلا خوف أو وجل ، ولعل هذا هو بعض ما نفهمه من قول الله سبحانه في سورة يونس :

« أَلا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللهِ لا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ ، الَّذِينَ آمَنُوا وكَانُوا يَتَّقُونَ ، لَهُمُ البُشْرَى فِي الحَيَاةِ الدُّنْيا وَفِي الآخِرَةِ ، لا تَبْدِيلَ لِكَلِمَاتِ اللهِ ، ذلِكَ هُو الفَوْزُ العَظِيمُ » [3] .

---

(1) سورة البقرة ، الآيتان ٤ و٥ .
(2) سورة الجاثية ، الآية ٣٢ .
(3) سورة يونس ، الآيات ٦٢ ـ ٦٤ .

ولذلك يرى الصوفية أن اليقين لا يساكن قلبا فيه سكون الى غير الله تعالى ، وأن أول مقام اليقين هو الثقة بما في يد الله تعالى ، واليأس مما في أيدي الناس . ويقول أبو بكر الوراق : « اليقين نور يستضيء به العبد في أحواله فيبلغه الى درجات المتقين » . ويقول أبو علي الروذباري : «أنفع اليقين ما عظّم الحق في عينيك ، وصغّر ما دونه عندك ، وأنبت الخوف والرجاء في قلبك » . وأساس اليقين هو اخلاص التوحيد ، ولذلك يقول أبو الحسين النيسابوري : « اليقين ثمرة التوحيد ، فما صفا في التوحيد صفا له في اليقين » .

الدعوة الى الخير

مادة « الدعوة » فيها معنى النداء والطلب ، يقال : دعا بالشيء ، طلب احضاره، ودعا الى الشيء حثّ عليه، ودعاهم الى الهدى وجههم اليه. ومادة « الخير » فيها معنى الاختيار والتفضيل والتقديم . يقال : خار الانسان الشيء على غيره فضّله وانتقاه ، وكذلك تخير واختار . والخير ما فيه نفع وصلاح ، وما هو ضد الشر بوجه عام . وقد يطلق على ما هو أداة للنفع والصلاح ، كالمال والخيل ، ولذلك يقول القرآن :

« قُلْ ما أَنْفَقْتُمْ مِنْ خَيْرٍ فَلِلْوَالِدَيْنِ وَالأَقْرَبِينَ » [1] .

ويقول :

« فَقَالَ إِنِّي أَحْبَبْتُ حُبَّ الخَيْرِ عَنْ ذِكْرِ رَبِّي » [2] .

فالخير في الآية يقصد به الخيل كما ذكر أهل التفسير . و«الخيرات» هي الامور الصالحة الفاضلة .

---

(١) سورة البقرة ، الآية ٢١٥ .

(٢) سورة ص ، الآية ٣٢ .

والدعوة الى الخير فضيلة اسلامية قرآنية تجعل صاحبها داعية من دعاة الصلاح والاصلاح ، ومعوانا على تقوية جانب الخير والبر ، ومقاومة الشر والاثم ، وقد أمر القرآن الكريم بهذه الفضيلة حين قال في سورة آل عمران :

« وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إلى الخَيْرِ ، وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ ، وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ ، وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ »[1] .

أي : ولتكونوا أمة تدعو الى الخير ، أو ليتحقق فيكم ومنكم وبكم أمة تدعو الى الخير . وهذه كما يعبّر القشيري ــ اشارة الى أقوام قاموا بالله لله ، لا تأخذهم لومة لائم ، ولا تقطعهم عن الله استنامة الى علة وقفوا جملتهم على دلالات أمره ، وقصروا أنفاسهم على طاعته ، واستغرقوا أعمارهم على تحصيل رضاه ، عملوا لله ونصحوا الدين لله ، ودعوا خلق الله الى الله ، فربحت تجارتهم ، وما خسرت صفقتهم .

والدعوة الى الخير هي دعوة الى الله ، ودعوة الى سبيله ، لأن الله جل جلاله لا يدعو الا الى الخير ، ولا يأمر الا بالبر ، والقرآن يقول في سورة الحج :

« وَادْعُ إلى رَبِّكَ إنَّكَ لَعَلَى هُدًى مُسْتَقِيمٍ »[2] .

ويقول في سورة القصص :

« وَلا يَصُدُّنَّكَ عَنْ آياتِ اللهِ بَعْدَ إذْ أُنْزِلَتْ إلَيْكَ

---

(1) سورة آل عمران ، الآية ١٠٤ .
(2) سورة الحج ، الآية ٦٧ .

وَادْعُ إلى رَبِّكَ وَلا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكينَ » [1] .

ويقول في سورة فصلت :

« وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلاً مِمَّنْ دَعا إلى اللهِ وَعَمِلَ صَالحاً وَقالَ إنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ » [2] .

ومن جلال هذه الصفة الكريمة نجد كتاب الله المجيد يحدثنا بأنها صفة من صفات الخالق الحميد ، فقال في سورة الأنفال :

« يا أَيُّها الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا للهِ وَللرَّسُولِ إذا دَعَاكُمْ لما يُحْيِيكُمْ » [3] .

ويقول في سورة البقرة :

« وَاللهُ يَدْعُو إلى الجَنَّةِ والْمَغْفِرَةِ بإِذْنِهِ » [4] .

وفي سورة يونس :

« وَاللهُ يَدْعُو إلى دارِ السَّلامِ ويَهْدِي مَنْ يَشاءُ إلى صِراطٍ مُسْتَقِيمٍ » [5] .

---

(١) سورة القصص ، الآية ٨٧ .
(٢) سورة فصلت ، الآية ٣٣ .
(٣) سورة الانفال ، الآية ٢٤ .
(٤) سورة البقرة ، الآية ٢٢١ .
(٥) سورة يونس ، الآية ٢٥ .

وفي سورة ابراهيم :

« قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِي اللهِ شَكٌّ فاطِرِ السَّمَوَاتِ والأَرْضِ يَدْعُوكُمْ لِيَغْفِرَ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ » [1] .

والدعوة الى الخير من وظيفة الانبياء والمرسلين عليهم صلوات الله وسلامه أجمعين ، ففي سورة يوسف نجد الحق جل علاه يقول لخاتم المرسلين محمد :

« قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إلى اللهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنا وَمَن اتَّبَعَنِي وَسُبْحَانَ اللهِ وَما أَنا مِنَ الْمُشْرِكِينَ » [2] .

وفي سورة الرعد :

« قُلْ إِنَّما أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللهَ وَلا أُشْرِكَ بِهِ إِلَيْهِ أَدْعُو وَإِلَيْهِ مآبِ » [3] .

وفي سورة المؤمنون :

« وَإِنَّكَ لَتَدْعُوهُمْ إِلى صِراطٍ مُسْتَقِيمٍ » [4] .

وفي سورة الأحزاب يقول له :

« يا أَيُّها النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شاهِداً وَمُبَشِّراً وَنَذِيراً ،

---

(١) سورة ابراهيم ، الآية ١٠ .
(٢) سورة يوسف ، الآية ١٠٨ .
(٣) سورة الرعد ، الآية ٣٦ .
(٤) سورة المؤمنون ، الآية ٧٣ .

وَدَاعِياً إلى اللهِ بإذْنِهِ وَسِرَاجاً مُنِيراً »[1] .

وفي سورة الشورى :

« فَلِذَلِكَ فادْعُ واسْتَقِمْ كما أُمِرْتَ »[2] .

وهذا نوح عليه السلام يحدثنا بأنه دعا قومه فأطال الدعوة ، وصبر عليها طويلا برغم اعراضهم وفرارهم واستكبارهم :

« قَالَ رَبِّ إنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلاً ونَهاراً . فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعائِي إلَّا فِراراً ، وَإنِّي كُلَّما دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوا أَصَابِعَهُمْ في آذَانِهِمْ واسْتَغْشَوْا ثِيابَهُمْ وَأَصَرُّوا وَاسْتَكْبَرُوا اسْتِكْباراً ، ثُمَّ إنِّي دَعَوْتُهُمْ جِهاراً ، ثُمَّ إنِّي أَعْلَنْتُ لَهُمْ وأَسْرَرْتُ لَهُمْ إسْرَاراً »[3] .

والدعوة الى الخير كانت صفة الاخيار من عباد الله ، فهذا هو مؤمن آل فرعون يقول فيما يقول في سورة غافر :

« ويَا قَوْمِ مالي أَدْعُوكُمْ إلى النَّجَاةِ وتَدْعُونَني إلى النَّارِ ، تَدْعُونَنِي لأَكْفُرَ بِاللهِ وَأُشْرِكَ بِهِ مَا ليسَ لي بِهِ عِلْمٌ وَأَنَا أَدْعُوكُم إلى العَزِيزِ الغَفَّارِ . لا جَرَمَ أَنَّمَا تَدْعُونَني

---

(١) سورة الاحزاب . الآيتان ٤٥ و٤٦ .

(٢) سورة الشورى . الآية ١٥ .

(٣) سورة نوح . الآيات ٥ ــ ٩ .

إِلَيهِ لَيسَ لَهُ دَعْوَةٌ فِي الدُّنيَا وَلا فِي الآخِرَةِ ، وأَنَّ مَرَدَّنَا إلى اللهِ وأَنَّ المُسْرِفِينَ هُمْ أَصْحَابُ النَّار ، فَسَتَذْكرونَ مَا أَقُولُ لَكُم وأُفوِّضُ أَمْرِي إلى اللهِ إنَّ اللهَ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ » [1] .

* * *

ومجال الدعوة الى الخير واسع فسيح ، يشمل الدعوة الى الاسلام ، لأنه هدى الله لعباده ، ويشمل الدعوة الى الطهارة والاخلاص في القول والعمل ، ويشمل الدعوة الى مقاومة الأهواء والشهوات ، ويشمل الدعوة الى ما فيه مصلحة الفرد والجماعة .

وهذه الدعوة قد تأخذ شكلا عاما ، كالدعوة التي تقوم بها الأمة المؤمنة لغيرها من الأمم ، عن طريق هيئات الارشاد وجماعات النصح والتوجيه ، وقد تكون هذه الدعوة خاصة يقوم بها فرد لفرد ، أو فرد لجماعة ، وقد تكون بين الغرباء ، وقد تكون بين الاخوة أو الاصدقاء ، وهاهوذا الغزالي يقرر أن من حقوق الاخوة عليك أن تدعو أخاك الى الخير ، ويرسم الطريق الى ذلك ، ويحذر من بعض معاطيه ، ليسلم السائر فيه ، ويقول فيما يقول :

« فليست حاجة أخيك الى العلم بأقل من حاجته الى المال ، فان كنت غنيا بالعلم فعليك مواساته من فضلك ، وارشاده الى كل ما ينفعه في الدين والدنيا ، فان علّمته وأرشدته ، ولم يعمل بمقتضى العلم ، فعليك النصيحة ، وذلك بأن تذكر آفات ذلك الفعل ، وفوائد تركه ، وتخوفه بما يكرهه في الدنيا والآخرة ، لينزجر عنه ، وتنبهه على عيوبه ، وتقبِّح القبيح في عينه ، وتحسِّن الحسن .

---

(١) سورة غافر ، الآيات ٤١ ــ ٤٤ .

ولكن ينبغي أن يكون ذلك في سر ، لا يطلع عليه أحد ، فما كان على الملأ فهو توبيخ وفضيحة ، وما كان في السر فهو شفقة ونصيحة ، اذ قال صلى الله عليه وسلم : (المؤمن مرآة المؤمن) أي يرى منه ما لا يرى من نفسه ، فيستفيد المرء بأخيه معرفة عيوب نفسه ، ولو انفرد لم يستفد. كما يستفيد بالمرآة الوقوف على عيوب صورته الظاهرة .

وقال الشافعي رضي الله عنه : من وعظ أخاه سرّا فقد نصحه وزانه، ومن وعظه علانية فقد فضحه وشانه . وقيل لمسعر : أتحب من يخبرك بعيوبك ؟. فقال : ان نصحني فيما بيني وبينه فنعم ، وان قرّعني بين الملأ فلا .

وقد صدق فان النصح على الملأ فضيحة ، والله تعالى يعاتب المؤمن يوم القيامة تحت كنفه في ظل ستره ، فيوقفه على ذنوبه سرا ، وقد يدفع كتاب عمله الى الملائكة الذين يحفون به الى الجنة ، فاذا قاربوا باب الجنة أعطوه الكتاب مختوما ليقرأه .

وأما أهل المقت فينادون على رؤوس الاشهاد ، وتستنطق جوارحهم بفضائحهم ، فيزدادون بذلك خزيا وافتضاحا ، ونعوذ بالله من الخزي يوم العرض الأكبر » .

ورسول الله ــ عليه الصلاة والسلام ــ يحث أقوى الحث على أن تكون الدعوة الى الخير شعار المؤمنين المهتدين ، ويحرض على بث ما لدى الانسان من علم أو فقه ، ليكون ذلك حقا ميسورا يبلغ أهليه ومستحقيه، ولذلك قال : « لا تمنعوا العلم أهله ، فان في ذلك فساد دينكم ، والتباس بصائركم » ثم تلا قوله تعالى في سورة البقرة :

« إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنْزَلْنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالْهُدَى مِنْ

بعدِ ما بَيَّنَّاهُ لِلنَّاسِ في الكِتَابِ أُولَئِكَ يَلْعَنُهُمُ اللهُ وَيَلْعَنُهُمُ اللاَّعِنُونَ ، إلاَّ الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا وبَيَّنُوا فأُولَئِكَ أَتُوبُ عَلَيْهِمْ وأَنا التَّوَّابُ الرَّحِيمُ » [1] .

* * *

ولقد رسم التنزيل الحكيم الطريقة المثلى للدعوة الى الخير ، فقال في سورة النحل :

« ادْعُ إلى سَبِيلِ رَبِّكَ بالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِيْ هِيَ أَحْسَنُ ، إنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ » [2] .

ويعلّق الامام الرازي في تفسيره على هذه الآية الكريمة فيقول : « أهل العلم ثلاث طوائف : الكاملون الطالبون للمعارف الحقيقية والعلوم اليقينية ، والمكالمة مع هؤلاء لا تمكن الا بالدلائل القطعية اليقينية ، وهي الحكمة ».

والقسم الثاني الذي تغلب على طباعهم المشاغبة والمخاصمة ، لاطلب المعرفة الحقيقية والعلوم اليقينية ، والمكالمة اللائقة بهؤلاء المجادلة التي تفيد الافحام والالزام .

وهذان القسمان هما الطرفان ، فالاول هو طرف الكمال ، والثاني طرف النقصان .

---

(١) سورة البقرة ، الآيتان ١٥٩ و١٦٠ .
(٢) سورة النحل ، الآية ١٢٥ .

وأما القسم الثالث فهو الواسطة ، وهم الذين ما بلغوا في الكمال الى حد الحكماء المحققين ، ولا في النقصان والرذالة الى حد المشاغبين المخاصمين ، بل هم أقوام بقوا على الفطرة الاصلية والسلامة الخلقية ، وما بلغوا الى درجة الاستعداد لفهم الدلائل اليقينية والمعارف الحكمية ، والمكالمة مع هؤلاء لا تمكن الا بالموعظة الحسنة ، وأدناها المجادلة .

وأعلى مراتب الخلائق الحكماء المحققون ، وأوسطهم عامة الخلق ، وهم أرباب السلامة ، وفيهم الكثرة والغلبة ، وأدنى المراتب الذين جُبلوا على طبيعة المنازعة والمخاصمة ، فقوله تعالى : (ادع الى سبيل ربك بالحكمة) معناه : ادع الاقوياء الكاملين الى الدين الحق بالحكمة ، وهي البراهين القطعية اليقينية ، وعوام الخلق بالموعظة الحسنة وهي الدلائل اليقينية الاقناعية الظنية، وتكلم مع المشاغبين بالجدل على الطريق الأحسن الأكمل».

ثم يعلّق على قوله : « ان ربك هو أعلم بمن ضل عن سبيله وهو أعلم بالمهتدين » بالعبارة التالية :

« انك مكلف بالدعوة الى الله تعالى بهذه الطرق الثلاثة ، فأما حصول الهداية فلا يتعلق بك ، فهو تعالى أعلم بالضالين وأعلم بالمهتدين . والذي عندي في هذا الباب أن جواهر النفوس البشرية مختلفة بالماهية ، فبعضها نفوس مشرقة صافية ، قليلة التعلق بالجسمانيات ، كثيرة الانجذاب الى عالم الروحانيات ، وبعضها مظلمة كدرة قوية التعلق بالجسمانيات ، عديمة الالتفات الى الروحانيات .

ولما كانت هذه الاستعدادات من لوازم جواهرها ، لا جرم يمتنع انقلابها وزوالها ، فلهذا قال تعالى : اشتغل أنت بالدعوة ، ولا تطمع في حصول الهداية للكل ، فانه تعالى هو العالم بضلال النفوس الضالة الجاهلة، وباشراق النفوس المشرقة الصافية ، فلكل نفس فطرة مخصوصة وماهية

مخصوصة ، كما قال : (فطرة الله التي فطر الناس عليها لا تبديل لخلق الله) والله أعلم » .

ونستطيع أن نقول ان الآية الكريمة السابقة كأنها تقرر أن الداعي الى سبيل الله ، لا يدعو لغرض ولا لمرض ، ولا لجنسية أو عصبية . ولا لمأرب أو مطلب ، وانما هو يدعو الى سبيل ربه ، وابتغاء وجهه ، وتطلعا الى مرضاته ورضوانه ، وهو حين يدعو يدعو على بصيرة ، فهو ــ كما ذكر العلماء ــ يدرس ظروف المدعوين ونفسياتهم ، ويتعرف ما يناسبهم من الدعوة والنصيحة ، ويختار الطريقة التي توائم وتلائم . وهو يسير في دعوته الى الخير على بصر وحذر وحكمة .

وهو أيضا في دعوته الى الخير يختار الموعظة الحسنة التي تتألف القلوب ، وتستهوي النفوس ، وتخالط المشاعر برفق ولطف ، وهو يجادل من يتطلب المجادلة بالطريقة المثلى التي هي أحسن أنواع الجدال ، فهو لا يتحامل ولا يتعنت ولا يقسو ، وهو لا يحرص على الغلبة والانتصار ، بل كل همه هو الاهتداء الى الحق والانتهاء الى الخير .



والقرآن الكريم يرسم الطريقة المثلى للين الدعوة الى الخير حين يقول لموسى وهارون في سورة طه :

« اذْهَبْ أَنْتَ وأَخُوكَ بآياتي وَلا تَنِيا في ذِكْرِي ، اذْهَبا إلى فِرْعَوْنَ إنَّهُ طَغَى ، فَقُولا لَهُ قَوْلاً لَيِّناً لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَو يَخْشَى ، قَالا رَبَّنَا إِنَّنا نَخَافُ أَنْ يَفْرُطَ عَلَيْنَا

أَوْ أَنْ يَطْغَى ، قَالَ لا تَخَافَا إِنَّنِي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَى » [1] .

كما علمنا القرآن المجيد أن نكون في غاية الانصاف واللين حين نقول لمخالفينا في الدين :

« وإنا أَوْ إياكُمْ لَعَلَى هُدًى أَوْ فِي ضَلالٍ مُبِينٍ » [2] .

والرسول عليه الصلاة والسلام يضيف مزيدا من التوجيه الى الحكمة في الدعوة الى الخير ، فيقول : « نحن معاشر الانبياء أمرنا أن ننزل الناس منازلهم ، وأن نخاطبهم على قدر عقولهم » .

ولقد روى أبو أمامة أن غلاما شابا جاء الى رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال له : يا نبي الله ، ائذن لي في الزنى .

فصاح الناس به ، فقال النبي عليه الصلاة والسلام : قرّبوه .

ثم قال النبي للغلام : ادن . فدنا حتى جلس بين يديه .

فقال الرسول صلوات الله وسلامه عليه : أتحب هذا لأمك ؟.

فقال الفتى : لا ، وجعلني الله فداك .

فقال النبي : كذلك الناس ، لا يحبونه لأمهاتهم .

ثم أضاف : أتحبه لابنتك ؟.

أجاب الفتى : لا ، وجعلني الله فداك .

فقال النبي : كذلك الناس ، لا يحبونه لبناتهم .

---

(١) سورة طه ، الآيات ٤٢ ــ ٤٦ .
(٢) سورة سبأ ، الآية ٢٤ .

ثم أضاف سائلا : أتحبه لأختك ؟.

أجاب الغلام : لا ، وجعلني الله فداك .

فقال النبي : كذلك الناس ، لا يحبونه لأخواتهم .

ثم أضاف الرسول قائلا : أتحبه لعمتك ؟.

أجاب الفتى : لا ، وجعلني الله فداك .

فقال النبي : كذلك الناس لا يحبونه لعماتهم .

ثم عاد يسأله : أتحب ذلك لخالتك ؟.

فأجاب الفتى : لا ، وجعلني الله فداك .

فقال النبي : كذلك الناس لا يحبونه لخالاتهم .

ثم وضع رسول الله صلى الله عليه وسلم يده على صدر الغلام ، ودعا له قائلا : «اللهم طهّر قلبه ، واغفر ذنبه ، وحصّن فرجه » . واستجاب الله الدعاء ، فلم يكن شيء أبغض الى هذا الغلام من الزنى .



والدعوة الى الخير تستلزم أن يكون الداعي اليه عارفا للخير عليما به ، مميزا بينه وبين الشر ، حتى يكون على بينة من أمره . وأن يكون عليما بأحوال من يدعوهم الى الخير ، وأن يكون بصيرا بالنفوس والطباع والمجتمعات ، وأن يكون مستمسكا بما يدعو اليه من خير ، لأن القرآن المجيد يقول في سورة البقرة :

« أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالبِرِّ وَتَنْسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ ؟ » (1)

(1) سورة البقرة ، الآية ٤٤ .

ويقول :

« يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لاَ تَفْعَلُونَ ، كَبُرَ مَقْتاً عِنْدَ اللهِ أَنْ تَقُولُوا مَا لاَ تَفْعَلُونَ »[1] .

ويقول رسول الله عليه صلوات الله وسلامه : « مررت ليلة أسري بي بقوم تُقرض شفاههم بمقاريض من نار ، فقلت : من أنتم ؟. فقالوا : كنا نأمر بالخير ولا نأتيه ، وننهي عن الشر ونأتيه » .

والحكيم يقول :

لا تلـم المـرء عـلى فعلـه — وأنت منسـوب الى مثلـه
مـن ذم شـيئا وأتى مثلـه — فانمـا يُزرى عـلى عقله !

ولقد كان سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم اذا دعـا الى شيء بدأ بنفسه .

واذا كانت الدعوة الى الخـير تتحقق في بعض مجالاتهـا بالقـول استجابة لهدى الله القائل في سورة النساء :

« وَليقولُوا قَوْلاً سَدِيداً »[2] .

وقوله :

« لا خَيْرَ في كَثِيرٍ مِنْ نَجْوَاهُمْ إلاَّ مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَو إِصْلاحٍ بَيْنَ النَّاسِ ، وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ ابتغاءَ

(١) سورة الصف ، الآية ٢ ، ٣ .
(٢) سورة النساء ، الآية ٩ .

مَرْضَاةِ اللهِ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْراً عَظِيماً »[1] .

وقول الرسول صلوات الله وسلامه عليه : « من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيرا أو ليصمت » .

فان الدعوة الى الخير تتحقق بصورة أقوى وأعلى عن طريق القدوة والسلوك والتطبيق ، وكم من داع الى الخير بهديه وسمته ، وأحواله وأعماله .

وثواب الله تعالى على فضيلة الدعوة الى الخير ثواب جليل عظيم تشير اليه الاحاديث النبوية التالية :

١ — من دل على خير فله مثل أجر فاعله .

٢ — لأن يهدي الله بك رجلا واحدا خير لك من الدنيا وما فيها .

٣ — طوبى لعبد جعله الله مفتاحا للخير ، مغلاقا للشر ، وويل لعبد جعله الله مفتاحا للشر مغلاقا للخير .

٤ — من دعا الى هدى كان له من الاجر مثل أجور من تبعه ، لا ينقص ذلك من أجورهم شيئا .



وينبغي أن نلاحظ أن هناك عقبات تقف بالمرصاد لفضيلة دعوة الخير، ولعل أكبر هذه العقبات هي اصطدام هذه الفضيلة بالاهواء والشهوات ، ولذلك يقول بعض أهل التفسير ان الدعوة الى الخير والامر بالمعروف والنهي عن المنكر تكليف ليس بالهين ولا باليسير ، اذا نظرنا الى طبيعته ، والى اصطدامه بشهوات الناس ونزواتهم ، ومصالح بعضهم ومنافعهم ،

(١) سورة النساء ، الآية ١١٤ .

وغرور بعضهم وكبريائهم ، وفيهم الجبار الغاشم ، والحاكم المتسلط ، والهابط الذي يكره الصعود ، والمسترخي الذي يكره الاشتداد . والمنحل الذي يكره الجد ، والظالم الذي يكره العدل ، والمنحرف الذي يكره الاستقامة ...

ولذلك كثر المعرضون عن الاستجابة للداعين الى الخير ، فهؤلاء مثلا قوم صالح يعرضون عنه كما يخبرنا التنزيل في سورة هود :

« قالُوا يا صالحُ قَدْ كُنْتَ فِينا مَرْجُوّاً قَبْلَ هَذا ، أَتَنْهَانَا أَنْ نَعْبُدَ ما يَعْبُدُ آباؤنَا وإِنَّنا لَفِي شَكٍّ مِمّا تَدْعُونا إليهِ مُرِيبٍ » (١) .

ويقول القرآن في سورة الشورى :

« كَبُرَ عَلَى المشْرِكِينَ ما تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ » (٢) .

ويقول في سورة فصلت عن الكافرين :

« وَقَالُوا قُلُوبُنا في أَكِنَّةٍ مِمّا تَدْعُونا إِلَيْهِ وَفِي آذانِنا وَقْرٌ ومِنْ بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجابٌ فاعْمَلْ إِنَّنا عامِلُونَ » (٣) .

ويقول في سورة الكهف :

« وَإِنْ تَدْعُهُمْ إلى الهُدَى فَلَنْ يَهْتَدُوا إِذاً أَبَداً » (٤) .

---

(١) سورة هود ، الآية ٦٢ .
(٢) سورة الشورى ، الآية ١٣ .
(٣) سورة فصلت ، الآية ٥ .
(٤) سورة الكهف ، الآية ٥٧ .

ويزيد طريق الدعوة الى الخير صعوبة ما يقوم في هذا الطريق من دعوات الشر والفساد ، فاذا كانت الدعوة الى الخير فضيلة اسلامية قرآنية حميدة ، فان للشيطان دعوته الخبيثة الاثيمة ، وهاهوذا القرآن المجيد يحذرنا فيقول في سورة فاطر :

« إِنَّ الشَّيْطانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فاتَّخِذُوهُ عَدُوّاً ، إِنَّما يَدْعُو حِزْبَهُ لِيَكُونُوا مِنْ أَصْحابِ السَّعِيرِ » [1] .

ويقول في سورة لقمان :

« وإذا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا ما أَنْزَلَ اللهُ ،قَالوا بَلْ نَتَّبِعُ ما وَجَدْنا عَلَيْهِ آبَاءَنَا ، أَوَلَوْ كانَ الشَّيْطَانُ يَدْعُوهُمْ إلى عَذَابِ السَّعِيرِ » [2] ؟ .

واذا لم يوجد المتحلون بفضيلة الدعوة الى الخير اتسع المجال أمام الدعوة الى الشر .

ولكن الخير في أمة محمد صلى الله عليه وسلم الى ما شاء الله ، وعلى الله قصد السبيل .

---

(١) سورة فاطر ، الآية ٦ .
(٢) سورة لقمان ، الآية ٢١ .

الامر بالمعروف

كلمة « المعروف » مأخوذة من مـادة « عرف » ، وفي المـادة معنى الظهور والارتفاع ، وانتشار الرائحة الطيبة ، وما كان كذلك فهو معروف مأنوس غير مجهول ، والاعتراف هو الاقرار ، وأصله اظهار معرفة الذنب ، والمعروف هو ما عرفته العقول السليمة ، وأنست اليه الطباع المستقيمة ، وهو أيضا اسم لكل فعل يُعرف بالشرع أو العقل حسنه ، والعُرف ــ بضم فسكون ــ المستحسن الذي هو ضد المنكر .

وقد عُني القرآن الكريم بالحديث عن « المعروف » مؤكدا التوجيه اليـه والحث عليـه ، مذكّرا بجمـال هـذا المعروف في كثـير مـن الميادين ، وهذه مثلا سورة البقرة أكاد أسميها « سورة المعروف » ، لأن مادته جاء ذكرها في هذه السورة خمس عشرة مرة ، فالله تعالى يقول :

« قَوْلٌ مَعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِنْ صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَا أَذىً وَاللهُ غَنِيٌّ حَلِيمٌ » (١) .

قال المفسرون : ان القول المعروف هو الكلام الجميل الذي تقبلـه

---

(١) سورة البقرة ، الآية ٢٦٣ .

القلوب ولا تنكره ، يرد الانسان به السائل من غير عطاء ، مع ستر لما وقع منه من الالحاف في السؤال ، مما يثقل على النفوس ، أو ستر حال الفقير بعدم التشهير به ، فذلك خير من صدقة يتبعها أذى .

وفي هذا يقول الامام محمد عبده : « القول بالمعروف يتوجه تارة الى السائل ان كانت الصدقة عليه ، وتارة يتوجه الى المصلحة العامة ، كما اذا هاجم البلد عدو ، وأرادوا جمع المال للاستعانة على دفعه ، فمن لم يكن له مال يمكنه ان يساعد بالقول المعروف الذي يحث على العمل ، وينشط العامل ، ويبعث عزيمة الباذل .

والمغفرة أن تغضي عن نسبة التقصير في الانفاق اليك ، وأن تظهر في هيئة لا ينفر منها المحتاج ، ولا يتألم من فقره أمامك . والمعنى أن مقابلة المحتاج بكلام يسر ، وهيئة ترضي ، خير من الصدقة مع الايذاء بسوء القول أو سوء المقابلة . ولا فرق في المحتاج بين أن يكون فردا أو جماعة ، فان مساعدة الامة ببعض المال ـ مع سوء القول في العمل الذي ساعدها عليه ، واظهار استهجانه ، وبيان التقصير فيه ، او تشكيك الناس في فائدته ـ لا توازي هذه المساعدة : احسان القول في ذلك العمل الذي تطلب له المساعدة والاغضاء عن التقصير الذي ربما يكون من العاملين فيه .

فكونك مع الامة بقلبك ولسانك خير من شيء من المال ترضخ به (تعطيه) مع قول السوء وفعل الأذى . ومعنى هذه الخيرية أنه أنفع وأكثر فائدة ، لا أنه يقوم مقام البذل ويغني عنه . فمن آذى فقد بغَّض نفسه الى الناس ، بظهوره في مظهر البغضاء لهم .

ولا شك أن السلم والولاء خير من العداوة والبغضاء ، وأن أضمن شيء لمصلحة الامة وأقوى معزز لها ، هو أن يكون كل واحد من أفرادها ـ في عين الآخر وقلبه ـ في مقام المعين له ، وان لم يعنه بالفعل » .

وجاءت في سورة البقرة آيات متوالية أو متقاربة، تكرر فيها الحديث عن اتبـاع المعروف والاستمساك به في العلاقة بين الزوجين في مختلف الاحوال ، فقال القرآن عن العلاقة بين الزوجين : « ولهن مثل الذي عليهن بالمعروف » والمعروف هو المعاشرة الحسنة والصحبة الجميلة ، أو هو ـ كما يعبر الزمخشري ـ الوجه الذي لا يُنكر في الشرع وعادات النـاس ، فللنساء من حقوق الزوجية على الرجال مثل ما للرجال عليهن ، أي لهن من حسن الصحبة والعشرة بالمعروف على أزواجهن مثل الذي عليهن في الطاعة فيما أوجبه الله عليهن لازواجهن .

ويقول القرآن في الحياة الزوجية :

« فإِمْسَاكٌ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحٌ بإِحْسانٍ » [1] .

أي لا يظلم الزوج زوجته شيئا من حقها ، ولا يتعدى عليها في قول أو عمل ، بل يمسكها معه بحسن العشرة والقيام بالواجب .

ويقول في آية أخرى :

« فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ سَرِّحُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ » [2] .

أي أبقوهن معكم وقوموا لهن بحقوقهن ، أو فارقوهن بمعـروف دون اضرار بهن .

ويقول في شأن النفقة الزوجية :

---

(١) سورة البقرة ، الآية ٢٢٩ .
(٢) سورة البقرة ، الآية ٢٣١ .

« وَعَلى المَوْلُودِ لَهُ رِزْقُهُنَّ وَكِسْوَتُهُنَّ بِالمَعْرُوفِ »[1]

أي بالمقدار المستطاع ، على قدر حال الرجل في اعساره ويساره . دون تكليفه ما لا يطيق .

ويقول عن حالة وفاة الزوج :

« فَإِذا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيما فَعَلْنَ في أَنْفُسِهِنَّ بالمعْرُوفِ »[2] .

أي التطلع الى الزواج بعد انتهاء العدة ، لأنه لا عيب في ذلك .

ويقول عن متعة الزوج لزوجته المطلقة :

« وَمَتِّعُوهُنَّ عَلى المُوسع قَدَرُهُ وَعَلَى المُقْتِرِ قَدَرُهُ مَتاعاً بالمَعْرُوفِ حَقّاً عَلى المُحْسِنِينَ »[3] .

أي بقدر الامكان المتعارف بين الناس بلا ارهاق ولا مشقة . ويعود القرآن ليؤكد هذا فيقول :

« وَلِلْمُطَلَّقَاتِ متاعٌ بِالمَعْرُوفِ حَقّاً عَلى المُتَّقِينَ »[4] .

ويقول عن المعاشرة الزوجية :

---

(١) سورة البقرة ، الآية ٢٣٣ .
(٢) سورة البقرة ، الآية ٢٣٤ .
(٣) سورة البقرة ، الآية ٢٣٦ .
(٤) سورة البقرة ، الآية ٢٤١ .

« وَعاشِرُوهُنَّ بِالمَعْرُوفِ »[1] .

أي بما أمر الله به من حق المعاشرة ، كتوفية حقها من المهر والنفقة ، وألا يعبس في وجهها ، وأن يكون لينا في القول ، لا فظا ولا غليظا ، ولا مظهرا ميلا الى غيرها .

وهكذا يمضي القرآن المجيد في الحديث عن « المعروف » حديثا يرفع قدره ويمجد ذكره ، مما يشعرنا بأن التحلي بالمعروف ، والامر بالمعروف ، والحرص على المعروف ، من مكارم الاخلاق وفضائل الخصال ، وما أكرم معدن الانسان حين نراه آخذا بالمعروف في أقواله وأعماله وأحواله ، داعيا الى المعروف بكلامه وسلوكه .

ولذلك حق للغزالي أن يقول : « ان الامر بالمعروف والنهي عن المنكر هو القطب الاعظم في الدين ، وهو المهم الذي ابتعث الله له النبيين أجمعين ، ولو طُوي بساطه ، وأهمل علمه وعمله ، لتعطلت النبوة ، واضمحلت الديانة ، وعمت الفترة ، وفشت الضلالة ، وشاعت الجهالة ، واستشرى الفساد ، واتسع الخرق ، وخربت البلاد ، وهلك العباد ، ولم يشعروا بالهلاك الا يوم التناد »[2] .

وقد كان الذي خفنا أن يكون ، فانا لله وانا اليه راجعون . اذ قد اندرس من هذا القطب عمله وعلمه ، وانمحق بالكلية حقيقته ورسمه ، فاستولت على القلوب مداهنة الخلق ، وانمحت عنها مراقبة الخالق ، واسترسل الناس في اتباع الهوى والشهوات استرسال البهائم ، وعز على

---

(1) سورة النساء ، الآية ١٩ .

(2) التناد : تفاعل من النداء ، يقال : تنادى القوم ، أي نادى بعضهم بعضا. ويوم التناد : يوم القيامة .

بساط الارض مؤمن صادق لا تأخذه في الله لومة لائم ، فمن سعى في تلافي هذه الفترة ، وسد هذه الثلمة ، اما متكفلا بعملها ، أو متقلدا لتنفيذها ، مجددا لهذه السنة الدائرة ، ناهضا بأعبائها ، ومشمرا في احيائها ، كان مستأثرا من بين الخلق باحياء سنة أفضى الزمان الى اماتتها ، ومستبدا بقربة تتضاءل درجات القرب دون ذروتها » .

والقرآن يطالب الامة المؤمنة بأن تكون أمة الخير والامر بالمعروف ، فيقول في سورة آل عمران :

« وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلى الخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأُولَئِكَ هُمُ المُفْلِحُونَ »[1] .

أي : لتكونوا كلكم أمة تتصف بهذه الفضائل ، ولذلك رجح الامام محمد عبده أن الامر هنا عام يشمل الامة كلها ، ولا يقتصر على طائفة منها أو مجموعة ، كما يذهب الى ذلك بعض المفسرين ، ويدل على العموم قول الله تبارك وتعالى : « والعصر ، ان الانسان لفي خسر ، الا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وتواصوا بالحق وتواصوا بالصبر » .

وعلى هذا يكون التقدير ، فلتوجد منكم وبكم وفيكم أمة داعية الى الخير ، آمرة بالمعروف ، ناهية عن المنكر ، وهذا يشمل كل قادر على أقل تقدير .

وكتاب الله العزيز قد جعل فضيلة الامر بالمعروف احدى صفات الامة التي نعتها ربها بأنها خير أمة ، فقال في سورة آل عمران :

« كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالمَعْرُوفِ

---

(١) سورة آل عمران ، الآية ١٠٤ .

وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللهِ » [1] .

وجعل هذه الفضيلة صفة الامة المؤمنة المتكافلة المتعاونة على الخير ، فقال في سورة التوبة :

« وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيُطِيعُونَ اللهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللهُ ، إِنَّ اللهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ » [2] .

وجعل هذه الفضيلة احدى صفات الذين آمنوا وباعوا الله أنفسهم وأموالهم ، واشتروا منه الجنة لقاء ذلك ، واستحقوا التبشير من ربهم بأنهم أصحاب الفوز العظيم ، فقال عنهم في سورة التوبة :

« التَّائِبُونَ العَابِدُونَ الحَامِدُونَ السَّائِحُونَ الرَّاكِعُونَ السَّاجِدُونَ الآمِرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّاهُونَ عَنِ المُنْكَرِ وَالحَافِظُونَ لِحُدُودِ اللهِ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ » [3] .

وجعل هذه الفضيلة صفة الصالحين المسارعين في الخيرات الذين لا يضيع لهم أجر ولا ذكر فقال في سورة آل عمران :

« يُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَاليَوْمِ الآخِرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ

---

(١) سورة آل عمران ، الآية ١١٠ .
(٢) سورة التوبة ، الآية ٧١ .
(٣) سورة التوبة ، الآية ١١٢ .

وَيَنْهَوْنَ عَنِ المُنْكَرِ وَيُسَارِعُونَ في الخَيْرَاتِ وَأُولَئِكَ مِنَ الصَّالِحِينَ ، وَما يَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَلَنْ يُكْفَرُوهُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالمُتَّقِينَ » [1] .

وجعل القرآن الكريم فضيلة الامر بالمعروف من صفات المنصورين المعتزين بعزة الله سبحانه ، فقال في سورة الحج :

« وَلَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ، الَّذِينَ إِنْ مَكَّنَّاهُمْ في الأَرْضِ أَقامُوا الصَّلاةَ وآتَوا الزَّكاةَ وَأَمَرُوا بِالمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ المُنْكَرِ وَلِلَّهِ عاقِبَةُ الأُمُورِ » [2] .

والآمر بالمعروف ، الناطق بالخير ، الموجه الى البر ، يكون من أهل الثواب الجزيل والاجر العظيم ، ولذلك يقول القرآن في سورة النساء :

« لا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِنْ نَجْوَاهُمْ إِلاَّ مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَو إِصْلاحٍ بَيْنَ النَّاسِ ، وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ ابْتِغَاءَ مَرْضَاةِ اللهِ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْراً عَظِيماً » [3] .

ولقد انتهز القرطبي فرصة الحديث عن هذه الآية فتوسع في معنى المعروفوأثره وجمال وقعه ، وأنه لفظ يعم أعمال البر كلها ، والحـديث

(١) سورة آل عمران ، الآيتان ١١٤ و١١٥ .
(٢) سورة الحج ، الآيتان ٤٠ و٤١ .
(٣) سورة النساء ، الآية ١١٤ .

الشريف يقول : كل معروف صدقة ، وان من المعروف أن تلقى أخاك بوجه طلق » . والحديث الآخر يقول : « المعروف كاسمه ، وأول من يدخل الجنة يوم القيامة المعروف وأهله » .

وقال الامام علي : « لا يزهدنك في المعروف كفر من كفره ، فقد يشكر الشاكر بأضعاف جحود الكافر » .

وقال القائل :

من يفعل الخير لا يعدم جوازيه لا يذهب العرف بين الله والناس

وقال الآخر :

يد المعروف غنم حيث كانت تحمّلها كفور أو شكور
ففي شكر الشكور لها جزاء وعند الله ما كفر الكفور

ويقول الماوردي : « ينبغي لمن يقدر على اسداء المعروف أن يعجله حذار فواته ، ويبادر به خيفة عجزه ، وليعلم أنه من فرص زمانه ، وغنائم امكانه ، ولا يهمله ثقة بالقدرة عليه ، فكم من واثق بقدرة فاتت فأعقبت ندما ، ومعوّل على مكنة زالت فأورثت خجلا» ، كما قال الشاعر :

ما زلت أسمع كم من واثق خجل حتى ابتُليت فكنت الواثق الخجلا

ولو فطن لنوائب دهره ، وتحفظ من عواقب أمره ، لكانت مغانمه مذخورة ، ومغارمه مجبورة ، فقد روي عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : « من فُتح عليه باب من الخير فلينتهزه ، فانه لا يدري متى يغلق عنه » . وروي عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال : « لكل شيء ثمرة ، وثمرة المعروف السراح » . والسراح هو التعجيل .

وقيل لأنو شروان : ما أعظم المصائب عندكم ؟. فقال : أن تقدر على المعروف فلا تصنعه حتى يفوت !.

ويقول الحق جل جلاله في سورة الأعراف :

« خُذِ العَفْوَ وَأْمُرْ بالعُرْفِ وأَعْرِضْ عَنِ الجَاهِلِينَ » [1] .

والعرف هو المعروف من الاحسان ، والآية تضمنت التوجيه الى ثلاثة أشياء هي أصول كلية للقواعد الشرعية والآداب النفسية والاحكام العملية، ومن بينها الأمر بالمعروف ، وهو ما تعارفه الناس من الخير .

***

وفضيلة الامر بالمعروف احدى فضائل الانبياء عليهم الصلاة والسلام، وهاهوذا القرآن يقول في سورة الأعراف عن المؤمنين :

« الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوباً عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالإِنجِيلِ يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ المُنْكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالاغْلالَ الَّتِي كانَتْ عَلَيْهِمْ فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنْزِلَ مَعَهُ أُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ » [2] .

بل أخبرنا القرآن العظيم أن الله عز وجل قد قيد طاعة الرسول عليه الصلاة والسلام بالمعروف ، وذلك في عقـد مبايعتـه للنساء ، فيقول في سورة الممتحنة :

---

(١) سورة الاعراف ، الآية ١٩٩ .

(٢) سورة الاعراف ، الآية ١٥٧ .

« يا أَيُّها النَّبِيُّ إِذا جاءَكَ الْمُؤْمِناتُ يُبايِعْنَكَ عَلى أَلاَّ يُشْرِكْنَ باللهِ شَيْئاً وَلا يَسْرِقْنَ وَلا يَزْنِينَ وَلا يَقْتُلْنَ أَوْلادَهُنَّ وَلا يَأْتِينَ بِبُهْتانٍ يَفْتَرِينَهُ بَيْنَ أَيْدِيهِنَّ وأَرْجُلِهِنَّ ولا يَعْصِينَكَ في مَعْرُوفٍ فَبايِعْهُنَّ واسْتَغْفِرْ لَهُنَّ اللهَ إِنَّ اللهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ »[1].

جاء في « تفسير المنار » : ومن المعلوم أن عقد المبايعة أعظم العقود في الامم والدول ، فتقييد طاعة الرسول صلى الله عليه وسلم فيه بالمعروف دليل على أن التزام المعروف من أعظم أركان هذا الدين وشرعه ، ومن المعلوم في السنة أن مبايعته صلى الله عليه وسلم للرجال كانت مبنية على أصل مبايعته للنساء المنصوص في هذه الآية . وقال صلى الله عليه وسلم : « انما الطاعة في المعروف » .

ويذكر ابن سعد في طبقاته قول ميمون عن هذه الآية : « فلم يجعل الله لنبيه عليهن الطاعة ، الا في المعروف ، والمعروف طاعة الله » .

وقد شدد الرسول التهديد لمن لا يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر ، فذكر في حديث له أنه ليس منا من لم يأمر بالمعروف وينه عن المنكر .

وقد ذكر القرآن الكريم أن الخروج على الأمر بالمعروف من صفة أهل النفاق ، فقال في سورة التوبة :

« المُنافِقُونَ وَالْمُنافِقَاتُ بَعْضُهُمْ مِنْ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالمُنْكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ المَعْرُوفِ وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ نَسُوا

---

(1) سورة الممتحنة ، الآية ١٢ .

اللَّهَ فَنَسِيَهُمْ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ هُمُ الْفَاسِقُونَ » (1) .

وهذا هو الامام علي رضي الله عنه وكرم الله وجهه ، يقول : « أول ما تُغلبون عليه من الجهاد : الجهاد بأيديكم ، ثم الجهـاد بألسنتكم ، ثم الجهاد بقلوبكم ، فاذا لم يعرف القلب المعروف ، ولم ينكر المنكر ، نُكس فجُعل أعلاه أسفله » .

وقال أبو الدرداء : لتأمرن بالمعروف ، ولتنهن عن المنكر ، أو ليسلطن الله عليكم سلطانا ظالما ، لا يجل كبيركم ، ولا يرحم صغيركم ، ويدعـو عليكم خياركم فلا يستجاب لهم ، وتستنصرون فلا تُنصرون ، وتستغفرون فلا يغفر لكم » .

هذا وقد شرطوا للآمر بالمعروف شروطا ، منها أن يكون مكلفا عاقلا ، مؤمنا عادلا ، ورعا حسن الخُلُق ، وأن يكون عالما ، ليعلم حدود المعروف فيكون بصيرا بمواضعه ، وأن يكون أمره بالمعروف لينا هينا ، ولذلك جاء في الحديث : « من أمر بمعروف فليكن أمره بمعروف » .

وبعضهم يشترط للأمر بالمعروف أن يكون الآمر متقيدا بما يدعـو اليه من معروف ، ويقولون : ان هداية الغير فرع للاهتداء ، وتقويم الغير فرع للاستقامة ، والاصلاح زكاة الصلاح ، فمن ليس بصالح في نفسه فكيف يُصلح غيره ، ومتى يستقيم الظل والعود أعوج ؟

ويستدلون على ذلك بقول الله تعالى :

« أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالبِرِّ وَتَنْسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ » (2) .

وقوله :

---

(1) سورة التوبة ، الآية ٦٨ .
(2) سورة البقرة ، الآية ٤٤ .

« يا أَيُّها الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لا تَفْعَلُونَ ، كَبُرَ مَقْتاً عِنْدَ اللهِ أَنْ تَقُولُوا ما لا تَفْعَلُونَ » [1] .

والامام الحسن البصري يقول : « اذا كنت ممن يأمر بالمعروف فكن من آخذ الناس به ، والا هلكت ».

وهناك من يقول : لا يشترط أن يتقيد الآمر بالمعروف بالتزام ما يأمر به ، فللفاسق أن يأمر بالمعروف . وقال سعيد بن جبير : انِ لم يأمر بالمعروف، ولم ينه عن المنكر ، الا من لا يكون فيه شيء ، لم يأمر أحدا بشيء .

وكان معاوية يقول : أيها الناس ، لا يمنعكم سوء ما تعلمون عنا أن تعملوا بأحسن ما تسمعون منا . والغزالي يقول : على مدير الكاس أن ينهى الجلاّس !. والشاعر يقول :

اعمل بقولي، وان قصرتُ في عملي　　ينفعك قولي ولا يضرك تقصيري

والأمر بالمعروف قد يبلغ حد التضحية بالنفس ، ولذلك قيل لرسول الله عليه الصلاة والسلام : أي الشهداء أكرم على الله ؟. فقال : رجل قام الى وال جائر ، فأمره بالمعروف ، ونهاه عن المنكر ، فقتله .

وصلوات الله وسلامه على رسوله القائل : « كلام ابن آدم كله عليه لا له ، الا أمرا بمعروف ، أو نهيا عن منكر ، أو ذكرا لله تعالى » .

---

(١) سورة الصف ، الآيتان ٢ و٣ .

النهي عن المنكر

كلمة « المنكر » مشتقة من مادة « نكر » ، وهي مادة تدل على الجهل، والصعوبة ، والاشتداد ، والاستيحاش ، والقبح ، والنفور ، وكراهيـة النفوس . يقول : أنكره ، أي جهله اذ وجده على غير ما عهده ، ويقال : أنكر فلان كذا ، أي كرهه فلم يقره .

والمنكر هو الباطل ، لأن العقول السليمة تنكره وترفضه ، ولذلـك قال علماء الاخلاق ان المنكر هو ما تستقبحه العقول السليمة ، ويحـكم الدين بقبحه ، وهو ضد المعروف ، ويقول الاصفهاني : المنكر كل فعـل تحـكم العقول الصحيحة بقبحـه . أو تتوقف في استقباحه واستحسانه العقول ، فتحكم بقبحه الشريعة .

وحين نتحدث عن فضيلة « النهي عن المنكر » في القـرآن الكـريم ينبغي أن نتذكر أن هذه الفضيلة تأتي غالبا مقترنة بفضيلة أخرى تحدثنا عنها ، وهي فضيلة « الأمر بالمعروف » فلا يكاد يُذكر الامر بالمعروف حتى يُذكر معه النهي عن المنكر ، ولذلك يتداخـل الحـديث عن الفضيلتين ، ويسبق جزء من الحديث عن الفضيلة الثانية خلال الحديث عن الفضيلـة الاولى ، واذا كان الأمر بالمعروف ــ كما سبق ــ احدى الصفات الاساسية للامة المؤمنة المفلحة ، فان النهي عن المنكر كذلك صفة أساسية لهذه الامة،

كما رأينا في قول الله تبارك وتعالى في سورة آل عمران :

« وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إلى الخَيْرِ ، وَيَأْمُرُونَ بِالمَعْرُوفِ ،وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ ،وَأُولَئِكَ هُمُ المُفْلِحُونَ »[1] .

ولقد قرر القرآن المجيد ان الله جل جلاله ينهى عن المنكر ، فقال في سورة النحل :

« إِنَّ اللهَ يَأْمُرُ بالعَدْلِ والإِحْسَانِ وَإِيتاءِ ذِي القرْبَى وَيَنْهَى عَنِ الفَحْشَاءِ وَالمُنْكَرِ وَالبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ »[2] .

والمنكر هنا ــ كما ذكر أهل التفسير ــ قيل انه الشرك ، وقيل انه ما لا يُعرف في شريعة ولا سنة ، وقيل انه ما توعد الله عليه بالعذاب في النار ، وقيل ان المنكر هو أن تكون علانية الانسان أحسن من سريرته .

ومهما تتعدد الاقوال في تفسير المنكر ، فكلها تدل على أنه الامر القبيح الباطل المؤدي الى السوء ، ولا يهمنا هنا تعديد الاقوال في معنى المنكر ، بقدر ما يهمنا أن نلحظ التمجيد القرآني لفضيلة النهي عن المنكر، حين يخبرنا باسناد النهي عن المنكر الى الله عزت أسماؤه وتقدست صفاته.

وهذه الفضيلة كذلك يعدها القرآن العظيم صفة من صفات رسول الله عليه الصلاة والسلام ، فيقول في سورة الاعراف :

« الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الأُمِّيَّ الَّذي يَجِدُونَه مَكْتوباً عِنْدَهُمْ في التَّوْرَاةِ والإِنْجِيلِ ، يأْمُرُهُمْ بِالمَعْرُوفِ ، وَيَنْهَاهُمْ

(١) سورة آل عمران ، الآية ١٠٤ .
(٢) سورة النحل ، الآية ٩٠ .

عَنِ الْمُنْكَرِ ، وَيُحِلُّ لَهم الطَّيِّبَاتِ ، وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الخَبائِثَ ... » [1]

أي يأمرهم ـ كما يعبِّر أهل التفسير ـ بالحق ومكارم الاخلاق وصلة الارحام ، وينهاهم عن المنكر وعبادة الاوثان والرذائل وقطع الارحام . واذا كان النهي عن المنكر صفة من صفات النبوة والرسالة ، فما أجدر الاتباع بأن يتخذوا من رسولهم أسوة وقدوة ، فينهجوا نهجه ، ويتبعوا سنته ، وهو القائل : « عليكم بسنتي » .

والقرآن المجيد يحدثنا كذلك بأن النهي عن المنكر فضيلة من فضائل المؤمنين ، فيقول في سورة التوبة :

« وَالمُؤْمِنونَ وَالمُؤْمِناتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِياءُ بَعْضٍ ، يأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ ، وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ » [2] .

أي يوالي بعضهم بعضا ، فهم اخوة ، وهم أمة واحدة . يأمرون بالايمان ، وينهون عن الكفران ، والرسول عليه الصلاة والسلام يقول : « المسلمون تتكافأ دماؤهم ، ويسعى بذمتهم أدناهم ، وهم يد على من سواهم » .

ويؤكد القرآن وصف المؤمنين بفضيلة النهي عن المنكر ، فيعود ليقول عنهم في سورة التوبة أيضا :

« التَّائِبُونَ العَابِدونَ الحامِدُونَ السّائِحُونَ الرّاكِعُونَ السّاجِدُونَ الآمِرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّاهُونَ عَنِ الْمُنْكَرِ

---

(١) سورة الاعراف ، الآية ١٥٧ .
(٢) سورة التوبة ، الآية ٧١ .

وَالحَافِظونَ لِحُدُودِ اللهِ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ »[1] .

فهم يأمرون بالمعروف وهو الطاعة ، وهم ينهون عن المنكر وهو المعصية .

وحينما أراد لقمان أن يوصي ابنه تلك الوصية الجليلة التي سجلها القرآن وخلدها ، لم ينس لقمان أن ينصح ابنه بأن يتحلى بفضيلة النهي عن المنكر ، فقال له فيما قال في سورة لقمان :

« يا بُنَيَّ أَقِمِ الصَّلاةَ ، وَأْمُرْ بِالمَعْرُوفِ ، وَانْهَ عَنِ الْمُنْكَرِ ، وَاصْبِرْ عَلى ما أَصَابَكَ ، إِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الأُمُورِ »[2] .

أي أقم الصلاة بحدودها وفروضها وأوقاتها ، وأمر بالمعروف ، وانه عن المنكر بحسب طاقتك وجهدك ، واصبر على ما أصابك . وانما دعا القرآن هنا الى الصبر على المصيبة ، لأن الآمر بالمعروف ، الناهي عن المنكر ، لا بد أن يناله من الناس أذى ، وقوله : « ان ذلك من عزم الامور » فيه اشارة الى أن الصبر على أذى الناس في هذا المجال من الامور التي تحتاج الى عزيمة وثبات .

* * *

واذا كان كتاب الله عز وجل قد مجّد فضيلة النهي عن المنكر هذا التمجيد ، فانه دعا بالويل والثبور على الذين يدعون الى الباطل أو يأمرون بالمنكر . وجعل القرآن ذلك من صفات الشيطان ونزغاته ، فقال في سورة النور :

---

(١) سورة التوبة ، الآية ١١٢ .
(٢) سورة لقمان ، الآية ١٧ .

« يا أَيُّها الَّذِينَ آمَنوا لا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ ، وَمَنْ يَتَّبِــعْ خُطُواتِ الشَّيْطَانِ فَإِنَّه يَـأْمُرُ بالفَحْشاءِ وَالمُنْكَرِ »[1].

وكذلك جعل القرآن المجيد رذيلة الامر بالمنكر من صفات المجرمين المنافقين فقال في سورة التوبة :

« المُنَافِقونَ وَالمُنَافِقاتُ بَعْضُهُمْ مِنْ بَعْضٍ ، يَأْمُرُونَ بِالمُنْكَرِ ، وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمَعْرُوفِ »[2].

وجعل القرآن عدم التناهي عن المنكر من صفات الملعونين المطرودين من اليهود ، فقال في سورة المائدة :

« لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلى لسانِ دَاوُدَ وَعِيسى ابنِ مَرْيَمَ ، ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكانوا يَعْتَدُونَ ، كانوا لا يَتَنَاهَوْنَ عَنْ مُنْكَرٍ فَعَلُوهُ لَبِئْسَ ما كانــوا يَفْعَلونَ »[3].

كانوا لا ينهى بعضهم بعضا عن المنكر ، فهم لا يتناهون عن أكــل الرشوة في الحكم ، ولا عن أكل الربا ، ولا عن غير ذلك من القبائح ، ولقد روى أبو داود والترمذي وأحمد أن رسول الله صلى الله عليه وسـلم قال : « ان الرجل من بني اسرائيل كان اذا رأى أخاه على الذنب نهاه عنه تعذيرا ، فاذا كان الغد لم يمنعه ما رأى منه أن يكون أكيله وخليطه وشريبه،

(١) سورة النور ، الآية ٢١ .
(٢) سورة التوبة ، الآية ٦٧ .
(٣) سورة المائدة ، الآية ٧٨ ، ٧٩ .

فلما رأى الله تعالى ذلك منهم ضرب بقلوب بعضهم على بعض ، ولعنهم على لسان داود وعيسى بن مريم » .

والسنة النبوية تحدثنا بأن النهي عن المنكر في بعض الاحوال يكون سببا في رفع صاحبه الى أعلى الدرجات ، فيقول الرسول عليه الصلاة والسلام : « خير الشهداء حمزة بن عبد المطلب ، ثم رجل قام الى إمام فأمره ونهاه في ذات الله تعالى فقتله على ذلك » . ويقول أيضا : « أفضل الجهاد كلمة حق عند سلطان جائر » . وفي رواية أخرى لأبي داود : « أفضل الجهاد كلمة عدل عند سلطان جائر أو أمير جائر » .



والنهي عن المنكر له مراتب ، تبدأ بتنبيه من يفعل المنكر الى أن هذا منكر ، فقد يكون فاعل المنكر جاهلا أنه منكر ، ويكون هذا التنبيه بلطف وحكمة ، لأن التعريف بالخطأ مهمة حساسة ، فان الناهي قد تستولي عليه شهوة النقد والاعتراض ، أو حبّ الظهور بمظهر التعليم والتوصية ، ولذلك يقول الامام الغزالي عن الناصح الناهي :

« وهاهنا آفة عظيمة ينبغي أن يتوقاها ، فانها مهلكة ، وهي أن العالم يرى عند التعريف عزّ نفسه بالعلم ، وذلّ غيره بالجهل ، فربما يقصد بالتعريف الاذلالَ واظهارَ التمييز بشرف العلم ، واذلال صاحبه بالنسبة الى خسة الجهل ، فان كان الباعث هذا فهذا المنكر أقبح في نفسه من المنكر الذي يعترض عليه ، ومثال هذا المحتسب مثال من يخلّص غيره من النار باحراق نفسه ، وهو غاية الجهل ، وهذه مذلة عظيمة وغائلة هائلة ، وغرور للشيطان يتدلى بحبله كل انسان ، الا من عرّفه الله عيوب نفسه ، وفتح بصيرته بنور هدايته ، فان في الاحتكام على الغير لذة للنفس عظيمة من وجهين :

أحدهما من جهة دالة العلم ، والآخر من جهة دالة الاحتكام والسلطنة ، وذلك يرجع الى الرياء وطلب الجاه ، وهو الشهوة الخفية الداعية الى الشرك الخفي » .

ثم تأتي مرحلة التخويف بعد مرحلة التعريف ، فاذا أفهم الناصح من يخطىء خطأه وعرّفه انحرافه ، ولم يرتدع المخطىء ، فان الناصح ينتقل الى تحذيره وتخويفه ، بقدر ما يصلح معه ذلك ، ثم تأتي مرحلة التهديد والوعيد ، ثم تأتي مرحلة تغيير المنكر باليد ان كان ذلك في قدرته وطاقته واختصاصه ، ولم يؤد التغيير الى شر مماثل لشر الخطأ الواقع ، أو الى شر أكبر منه .

وهنا تتذكر الحديث النبوي القائل : « من رأى منكم منكرا فليغيره بيده ، فان لم يستطع فبلسانه ، فان لم يستطع فبقلبه ، وذلك أضعف الايمان » . وقد قال بعض العلماء ان التغيير للمنكر باليد هو وظيفة الحكام وأهل السلطة التي تقدر على التغيير المصلح ، وان الانكار باللسان هو وظيفة أهل العلم والموعظة ، وان الانكار بالقلب هو واجب المسلم الذي لا قدرة له على التغيير ولا قدرة له على النصح والوعظ ..

ولقد ذكر الامام محمد عبده ان الناس يخلطون بين « النهي عن المنكر » و « تغيير المنكر » ، وهذا شيء آخر غير النهي البتة ، ثم قال : « فان النهي عن الشيء انما يكون قبل فعله ، والا كان رفعا للواقع ، أو تحصيلا للحاصل . فاذا رأيت شخصا يغش السمن مثلا ، وجب عليك تغيير ذلك ، ومنعه منه بالفعل ان استطعت ، فالقدرة والاستطاعة هنا مشروطة بالنص ، فان لم تقدر على ذلك وجب عليك التغيير باللسان ، وهو غير خاص بنهي الغاش ووعظه ، بل يدخل فيه رفع أمره الى الحاكم الذي يمنعه بقدرة فوق قدرتك .

وللنهي طرق كثيرة وأساليب متعددة ، ولكل مقام مقال » .

ثم أضاف الامام : « نعم ان دعوة الامة غيرها من الامم الى الخير الذي هي عليه لا يطالب به كل فرد بالفعل ، اذ لا يستطيع كل فرد ذلك ، وانما يجب على كل فرد ان يجعل ذلك نصب عينيه ، حتى اذا عنّ له بأن لقي أحدا من أفراد تلك الامم دعاه ، لا أنه ينقطع لذلك ويسافر لأجله .

وانما يقوم بهذا طائفة يعدون له عدته ، وسائر الافراد يقومون به عند الاستطاعة ، فهو يشبه فريضة الحج ، هي فرض عين ، ولكن على المستطيع ، وفريضة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر آكد من فريضة الحج ، ولم يشترط فيها الاستطاعة ، لأنها مستطاعة دائما » .

وللناهي عن المنكر صفات يتحلى بها ، ليكون نهيه مثمرا ، ومن هذه الصفات أن يكون على علم ومعرفة ، حتى لا ينهى بجهل ، ولا يعترض بطيش ، وحتى لا يعرض نفسه للمؤاخذة والتسفيه ، فان من أشد الامور على الناس أن يتهجم جاهل أو أحمق بالاعتراض على غيره ، واتهامه بأنه على منكر ، ثم تنكشف الحقيقة عن أن الأمر ليس منكرا ، وانما جاء الاتهام بالمنكر من قبل ذلك الجاهل الاحمق الذي اندفع يعترض على الناس ويتهمهم ، وهو محتاج الى التعليم والتقويم .

ومن هذه الصفات أن يكون الناهي عن المنكر منتهيا عنه قبل أن ينهى الناس ، أو حين ينهى الناس على الاقل ، ولذلك قال القائل الحكيم :

لا تلم المرء على فعله وأنت منسوب الى مثله
من ذم شيئا وأتى مثله فانما يزري على عقله

ومن صفات الناهي أن يكون دمث الاخلاق حليم النفس لين الحديث، وتاريخ الاخلاق يذكر لنا أن واعظا من الوعاظ تحدث الى المأمون بنصيحة، فأغلظ فيها ، فقال له المأمون : أيها الرجل ، ترفق ، فقد بعث الله من هو خير منك الى من هو شرّ مني ، وأمره بالرفق ، لقد بعث الله موسى

وهارون الى فرعون وقال لهما :

« فَقُولا لَهُ قَوْلاً لَيِّناً لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى » [1] .

* * *

والنهي عن المنكر يسوغ اذا تحققت عدة أمور . منها أن يكون المنهي عنه منكرا في الشريعة بالفعل ، وليس موضع اجتهاد أو خلاف ، وأن يكون المنكر واقعا ، لأنه لا معنى للنهي عن شيء لم يقع . اللهم الا اذا كان يحذر من أمر ينتظر وقوعه ، فيكون موقفه حينئذ موقف من ينصح ويوجه ويحذر ، لا موقف من ينهي عن منكر . وأن يكون المنكر ظاهرا لا مستورا ، وأن يعرفه الناهي دون تحبس منه ، لأنه لا يحق للناهي عن المنكر أن يتجسس لكي يعرف أين المنكر ، فلا يحق له مثلا أن يسترق السمع ، أو يتجسس بالشم ليدرك وجود الخمر مثلا ، أو يسائل غيره عن دخائل الناس وأسرارهم ، والقرآن الكريم يقول في سورة الحجرات :

« وَلا تَجَسَّسُوا » [2] .

ويقول الرسول عليه الصلاة والسلام : « يا معشر من آمن بلسانه ، ولم يدخل الايمان قلبه ، لا تتبعوا عورات الناس لتفضحوهم ، فان من تتبع عورات غيره تتبع الله عورته ، ومن تتبع الله عورته فضحه ولو في عقر بيته » .

ولقد روي عن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضوان الله عليه أنه تسلق دار رجل ظن به ريبة ، فرآه على حالة منكرة ، فأنكر عليه ، فقال له

---

(1) سورة طه ، الآية ٤٤ .

(2) سورة الحجرات ، الآية ١٢ .

الرجل : يا أمير المؤمنين ، ان كنت أنا قد عصيت الله من وجه واحد ، فأنت قد عصيته من ثلاثة أوجه .

فقال عمر : وما هي ؟.

قال الرجل : قد قال الله تعال : « ولا تجسسوا » وأنت قد تجسست.

وقال الله تعالى :

« وَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ أَبْوابِها » [1] .

وأنت قد تسورت السطح .

وقال الله تعالى :

« لا تَدْخُلُوا بُيُوتاً غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّى تَسْتَأْنِسُوا وَتُسَلِّمُوا عَلَى أَهْلِها » [2] .

وأنت ما سلمت !!.

فتركه عمر بعد أن شرط عليه التوبة مما فعل . ثم شاور عمر الصحابة رضوان الله عليهم . فسألهم وهو على المنبر عن الامام اذا شاهد بنفسه منكرا ، فهل له اقامة الحد فيه ، فذكره علي رضوان الله عليه بأن ذلك منوط بشاهدين عدلين ، ولا يكفي فيه واحد !.

وفضيلة النهي عن المنكر لها ثمرة عظيمة عند الله عز وجل ، هي النجاة من العذاب حين يؤخذ المجرمون بأشد العقاب ، وها نحن أولاء نجد القرآن الكريم يقول في سورة الأعراف :

---

(١) سورة البقرة ، الآية ١٨٩ .

(٢) سورة النور ، الآية ٢٧ .

« فَلَمَّا نَسُوا ما ذُكِّرُوا بِهِ أَنْجَيْنَا الَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ السُّوءِ ، وَأَخَذْنا الَّذِينَ ظَلَمُوا بِعَذَابٍ بَئِيسٍ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ » [1] .

والناهون عن السوء هم الناهون عن المنكر ، وقد رأينا الله تعالى ينقذهم وينجيهم حين أخذ الظالمين الفاسقين بعذاب شديد .

وكذلك يقول الحق جل جلاله في سورة هود :

« فَلَوْلا كانَ مِنَ القرون مِنْ قَبْلِكُمْ أُولُو بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ عَنِ الفَسادِ فِي الأَرْضِ ، إِلَّا قَلِيلاً مِمَّنْ أَنْجَيْنَا مِنْهُمْ ، وَاتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا ما أُتْرِفُوا فِيهِ وَكانوا مُجْرِمِينَ » [2] .

أي : هلاَّ كان من القرون من قبلكم أهل بقية ، أي أصحاب دين ، وفيهم مسكة من الخير ، وفيهم تمييز وطاعة وفضل ، ولكن الله سبحانه أنجى جماعة قليلة ، هم الذين كانوا ينهون عن المنكر وعن الفساد في الارض . وهكذا يمنح الله أصحاب هذه الفضيلة ثوابه حين يشتد العذاب على الآخرين .

وصلوات الله وسلامه على رسوله حين قال فيما يرويه أبو داود عن ابن مسعود :

« ان أول ما دخل النقص على بني اسرائيل : كان الرجل يلقى الرجل فيقول : يا هذا ، اتق الله ودَع ما تصنع (أي من المنكرات) فانه لا يحل

---

(١) سورة الاعراف ، الآية ١٦٥ .
(٢) سورة هود ، الآية ١١٦ .

لك، ثم يلقاه من الغد فلا يمنعه ذلك أن يكون أكيله وشريبه وقعيده (أي يأكل معه ويشرب معه ويقعد معه) فلما فعلوا ذلك ضرب الله قلوب بعضهم ببعض . كلا والله لتأمرن بالمعروف ، ولتنهَوُنَّ عن المنكر ، ولتأخذُنَّ على يد الظالم ، ولتأطُرنّه على الحق أطرا (أي تحملونه عليه حملا) ، أو ليضربن الله بقلوب بعضكم على بعض ، ثم يلعنكم كما لعنهم » .

وفي رواية لأحمد والترمذي : « لما وقعت بنو اسرائيل في المعاصي، فنهتهم علماؤهم فلم ينتهوا ، فجالسوهم وآكلوهم وشاربوهم ، فضرب الله قلوب بعضهم ببعض ، ولعنهم على لسان داود وعيسى بن مريم ، ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون ، لا والذي نفسي بيده حتى تأطروهم على الحق أطرا » .

نسأل الحق جل جلاله أن يجعلنا من الذين يدعون الى الخير ، ويأمرون بالمعروف ، وينهون عن المنكر ، وأولئك هم المفلحون .

عظة بالغة في الدعوة الى الخير ، والامر بالمعروف ، والنهي عن المنكر .

بمناسبة حديثي عن الفضائل القرآنية الثلاث : « الدعوة الى الخير »، و « الأمر بالمعروف » و « النهي عن المنكر » رأيت أن أسجل هنا عظة بالغة للامام الاوزاعي ، وعظ بها الخليفة العباسي أبا جعفر المنصور ، وفيها يدعو الاوزاعي ـ بلغته البليغة ـ الى الخير ، ويأمر بالمعروف ، وينهي عن المنكر .

وهذه العظة قد أوردها الامام الغزالي في كتابه « احياء علوم الدين »[1] ، كما أوردها أبو نعيم الأصبهاني في كتابه « حلية الأولياء »[2] . وبين الروايتين اختلاف يسير في طائفة من الكلمات . وقد علّقت على العظة بما اقتضاه المقام .

---

(١) احياء علوم الدين ، ج ٧ ص ٧٧ ـ ٨٢ طبعة لجنة نشر الثقافة الاسلامية سنة ١٣٥٦ هـ .

(٢) حلية الاولياء ، ج ٦ ص ١٣٦ ـ ١٤٠ طبعة مطبعة السعادة ١٣٥٤ هـ ـ ١٩٣٥ م

والأوزاعي[1] هو الامام أبو عمرو عبد الرحمن بن عمرو بن يُحْمِد الاوزاعي الدمشقي ، امام أهل الشام في الفقه والزهد وعزة النفس . يقول عنه النووي : « كان امام أهل الشام في عصره ، بلا مدافعة ولا مخالفة ، وكان أهل الشام والمغرب على مذهبه قبل انتقالهم الى مذهب مالك رحمه الله » .

ولد سنة ثمان وثمانين للهجرة في « بعلبك » ، ونشأ في « البقاع »، وسكن دمشق ، ثم انتقل الى بيروت فأقام بها مرابطا ، حتى دُفن بها سنة سبع وخمسين ومائة .

وكان فقيها مشهورا ، حتى كانت الفتيا تدور بالاندلس على رأيه الى زمن الحكم بن هشام ، وعرضوا عليه القضاء فأبى . وله كتاب «السنن» في الفقه ، وكتاب « المسائل » يضم مجموعة الاجوبة التي أجاب بها على الاسئلة الكثيرة التي وُجهت اليه . وقد أجمع العلماء ــ كما في كتاب تهذيب الاسماء واللغات ــ على امامة الاوزاعي وجلالته ، وعلو مرتبته ، وكمال فضله ، وأقوال السلف رحمهم الله كثيرة مشهورة ، مصرِّحة بورعه وزهده وعبادته وقيامه بالحق ، وكثرة حديثه ، وغزارة فقهه ، وشدة تمسكه بالسنة ، وبراعته في الفصاحة ، واجلال الاعيان من أئمة عصره من الاقطار له ، واعترافهم بمرتبته .

وكان للاوزاعي كلمات حكيمة بليغة ، منها هذه الكلمات :

١ ــ لهو العلماء خير من حكمة الجهلة .

٢ ــ بلغني أنه ما وعظ رجل قوما لا يريد به وجه الله الا زلت عنه القلوب كما يزل الماء عن الصفا[2] .

---

(١) الاوزاعي نسبة الى كلمة « الاوزاع » ، وهي اسم قرية بدمشق ، أو اسم قبيلة من حمير او همدان ، أو بمعنى أوزاع القبائل أي فرقها .

(٢) الصفا : جمع صفاة ، وهي الحجر الصلد الضخم .

٣ ــ ان المؤمن يقول قليلا ويعمل كثيرا ، وان المنافق يقول كثيرا ويعمل قليلا .

٤ ــ كان يقال : خمس عليها كان أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم والتابعون باحسان : لزوم الجماعة ، واتباع السنة ، وعمارة المسجد، وتلاوة القرآن ، والجهاد في سبيل الله .

٥ ــ من أكثر ذكر الموت كفاه اليسير ، ومن علم أن منطقه من عمله قل كلامه .

٦ ــ اصبر نفسك على السنة ، وقف حيث وقف القوم ، وقل بما قالوا ، وكفّ عما كفّوا عنه ، واسلك سبيل سلفك الصالح ، فانه يسعك ما وسعهم ، ولا يستقيم الايمان الا بالقول ، ولا يستقيم القوم الا بالعمل ، ولا يستقيم الايمان والقول والعمل الا بالنية موافقة للسنة. وكان من مضى من سلفنا لا يفرقون بين الايمان والعمل : العمل من الايمان ، والايمان من العمل ، وانما الايمان اسم جامع كما يجمع هذه الاديان اسمها ، ويصدقه العمل ، فمن آمن بلسانه ، وعرف بقلبه ، ولم يصدق بعمله ، لم يقبل منه ، وكان في الآخرة من الخاسرين .

هذا وقد نشر الامير شكيب أرسلان كتابا عنوانه « محاسن المساعي في مناقب الامام الاوزاعي » لمؤلف اختلفوا فيه ، وقد كتبت عن هذا الكتاب ثماني صفحات في الجزء الثاني من كتابي « أمير البيان شكيب أرسلان »[1] .

وأروع ما في شخصية الامام الاوزاعي أنه كان ــ كما يقول أبو

---

(١) أمير البيان شكيب ارسلان ، ج٢ ص ٥٢٥ ــ ٥٣٢ ــ طبعة دار الكتاب العربي .

نعيم ــ لا يخاف في الله لومة لائم، مقوالا بالحق لا يخاف سطوة العظائم. وكان الامر بالمعروف والنهي عن المنكر من طلائع فضائله ، حتى يروى أنه قـال :

رأيت (في النوم) كأن ملكين عرجا بي ، وأوقفـاني بين يدي رب العزة ، فقال لي : أنت عبدي عبدالرحمن الذي يأمر بالمعروف وينهى عـن المنكر . فقلت : بعزتك ربي ، أي رب أنت أعلم . فهبطا بي حتى ردّاني الى مكاني .

كما يروى أنه قـال : رأيت ربّ العـزة في المنـام ، فقـال لي : يا عبد الرحمن ، أنت الذي تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر . قلت : بفضلك يا رب ، يا رب أمتني على الاسلام . فقال : وعلى السنة [1] .



وأما أبو جعفر المنصور فهو عبدالله بن محمد بن علي بن العباس ، ثاني خلفاء العباسيين ، ولد سنة خمس وتسعين في بلدة « الحميمـة » ، وكان محبا للعلوم والآداب ، حفيّا بالعلماء مقربا لهم ، تولى الخلافة سنة ست وثلاثين ومائة ، وهو الذي بنى مدينة بغداد وغيرها من المدن ، وكان كثير التفكير والجد ، وكان بليغا في كتابته ، ويؤخذ عليه أنه أكثر من قتل أعدائه حتى استقر له ملكه ، وتوفي سنة ثمان وخمسين ومائة .

وهذا هو نص العظة :

« عن الاوزاعي عبدالرحمن بن عمرو قال :

بعث اليّ أبو جعفر المنصور أمير المؤمنين وأنا بالساحل ، فأتيته ، فلما وصلت اليـه وسلمت عليـه بالخلافـة ، ردّ عليّ واستجلسني ، ثم قـال لي :

---

(١) حلية الاولياء ، ج ٦ ص ١٤٢ و١٤٣ .

ما الذي أبطأ بك عنا يا أوزاعي ؟.

قلت : وما الذي تريد مني يا أمير المؤمنين ؟.

قال : أريد الاخذ عنكم ، والاقتباس منكم .

قلت : فانظر يا أمير المؤمنين أن لا تجهل شيئا مما أقول لك .

قال : وكيف أجهله وأنا أسألك عنه ، وفيه وجهت اليك ، وأقدمتك له ؟.

قلت : أخاف أن تسمعه ثم لا تعمل به .

فصاح بي الربيع[1] ، وأهوى بيده الى السيف .

فانتهره المنصور وقال : هذا مجلس مثوبة ، لا مجلس عقوبة .

فطابت نفسي ، وانبسطت في الكلام ، فقلت : يا أمير المؤمنين ، حدثني مكحول[2] عن عطية بن بشر قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « أيما عبد جاءته موعظة من الله في دينه فانها نعمة من الله سيقت اليه ، فان قبلها بشكر ، والا كانت حجة من الله عليه ، ليزداد بها اثما ، ويزداد الله بها سخطا عليه »[3] .

يا أمير المؤمنين ، حدثني مكحول عن عطية بن ياسر قال : قال رسول

---

(١) الربيع بن يونس بن محمد بن ابي فروة كيسان ، اتخذه ابو جعفر المنصور حاجبا له ثم استوزره ، توفي سنة ١٦٩ هـ .

(٢) هو الفقيه التابعي ابو عبدالله مكحول بن زيد الدمشقي ، كان يسكن دمشق ، سمع كثيرا من الصحابة والتابعين ، وروى عنه كثيرون منهم الاوزاعي ، وكان يقول : « طفت الارض في طلب العلم » . واتفقوا على توثيقه ، وتوفي بدمشق سنة ثماني عشرة ومائة .

(٣) روى هذا الحديث ابن أبي الدنيا في مواعظ الخلفاء .

الله صلى الله عليه وسلم : « أيما وال مات غاشا لرعيته حرم الله عليه الجنة »[1] .

يا أمير المؤمنين ، من كره الحق فقد كره الله ، ان الله هو الحق المبين ، ان الذي ليّن قلوب أمتكم لكم حين ولاّكم أمورهم ، لقرابتكم من رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وقد كان بهم رؤوفا رحيما ، مواسيا لهم بنفسه في ذات يده ، محمودا عند الله وعند الناس ، فحقيق بك أن تقوم له فيهم بالحق ، وأن تكون بالقسط له فيهم قائما ، ولعوراتهم ساترا ، لا تغلق عليك دونهم الابواب ، ولا تقيم دونهم الحجاب ، تبتهج بالنعمة عندهم ، وتبتئس بما أصابهم من سوء .

يا أمير المؤمنين ، قد كنتَ في شغل شاغل من خاصة نفسك عن عامة الناس الذي أصبحت تملكهم : أحمرهم وأسودهم ، مسلمهم وكافرهم ، وكل له عليك نصيب من العدل ، فكيف بك اذا انبعث منهم فئام[2] وراء فئام ، وليس منهم أحد الا وهو يشكو بلية أدخلتها عليه ، أو ظلامة سقتها اليه .

يا أمير المؤمنين ، حدثني مكحول عن عروة بن رويم قال : كانت بيد رسول الله صلى الله عليه وسلم جريدة يستاك بها ، ويروع بها المنافقين ، فأتاه جبريل عليه السلام ، فقال له : يا محمد ، ما هذه الجريدة التي كسرت بها قلوب أمتك ، وملأت قلوبهم رعبا[3] ، فكيف بمن شقق أبشارهم[4] ، وسفك دماءهم ، وخرب ديارهم ، وأجلاهم عن بلادهم ، وغيّبهم الخوف منه .

---

(١) روى هذا الحديث ابن ابي الدنيا ، وابن عدي في الكامل .
(٢) الفئام ــ بوزن الكتاب ــ الجماعة من الناس ، لا واحد له من لفظه .
(٣) روى هذا الحديث ابن أبي الدنيا ، وهو مرسل .
(٤) الابشار : جمع بشرة ، وهي ظاهر جلد الانسان .

يا أمير المؤمنين ، حدثني مكحول عن زياد ، عن حارثة ، عن حبيب ابن مسلمة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم دعا الى القصاص من نفسه في خدش خدشه أعرابيا لم يتعمده ، فأتاه جبريل عليه السلام فقال : يا محمد، ان الله لم يبعثك جبارا ولا متكبرا ، فدعا النبي صلى الله عليه وسلم فقال : اقتص مني ، فقال الاعرابي : قد أحللتك[1] بأبي أنت وأمي ، وما كنت لأفعل ذلك أبدا ، ولو أتيت على نفسي ، فدعا له بخير[2] .

يا أمير المؤمنين ، رُضْ نفسك لنفسك ، وخذ لها الأمان من ربك ، وارغب في جنة عرضها السموات والارض التي يقول فيها رسول الله صلى الله عليه وسلم : لقيدُ[3] قوس أحدكم من الجنة خير له من الدنيا وما فيها[4] .

يا أمير المؤمنين ، ان المُلك لو بقي لمن قبلك لم يصل اليك ، وكذا لا يبقى لك كما لم يبق لغيرك .

يا أمير المؤمنين ، أتدري ما جاء في تأويل هذه الآية عن جدّك : « ما لهذا الكتاب لا يغادر كبيرة ولا صغيرة الا أحصاها[5] ؟ قال : الصغيرة التبسم ، والكبيرة الضحك[6] ، فكيف بما عملته الايدي وحصدته الالسن ؟!.

---

(١) أي جعلتك في حل مما فعلت ، فهو حلال لك .
(٢) روى هذا الحديث ابن ابي الدنيا .
(٣) القيد : المقدار .
(٤) الحديث رواه ابن ابي الدنيا ، ورواه البخاري من حديث أنس بلفظ « لقابه » والقاب المقدار .
(٥) سورة الكهف ، الآية ٤٩ .
(٦) في « زاد المسير » لابن الجوزي : « وقد روى عكرمة عن ابن عباس قال: الصغيرة التبسم ، والكبيرة القهقهة . وقد يتوهم ان المراد بذلك صغائر الذنوب وكبائرها ، وليس كذلك ، اذ ليس الضحك والتبسم مجردهما

يا أمير المؤمنين :

بلغني أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال : لو ماتت سخلة[1] على شاطىء الفرات ضيعة ، لخشيت أن أسأل عنها ، فكيف بمن حُرم عدلك وهو على بساطك ؟

يا أمير المؤمنين :

أتدري ما جاء في تأويل هذه الآية عن جدّك :

« يا دَاوُدُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الأَرْضِ فَاحْكُمْ بَيْنَ النَّاسِ بالحقِّ وَلا تَتَّبِعِ الهَوَى فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللهِ »[2].

قال الله تعالى في الزبور : يا داود ، اذا قعد الخصمان بين يديك ، فكان لك في أحدهما هوى ، فلا تتمنين في نفسك أن يكون الحق له ، فيفلح على صاحبه ، فأمحوك عن نبوتي ، ثم لا تكون خليفتي ولا كرامة ، يا داود، انما جعلت رسلي الى عبادي رعاء كرعاء الابل[3] ، لعلمهم بالرعاية، ورفقهم بالسياسة ، ليجبروا الكسير ، ويدلوا الهزيل على الكلأ والماء .

يا أمير المؤمنين :

انك قد بُليت بأمر عظيم لو عُرض على السموات والارض والجبال لأبين أن يحملنه وأشفقن منه .

= من الذنوب ، وانما المراد أن التبسم من صغار الافعال ، والضحك فعل كبير . وقد روى الضحاك عن ابن عباس قال : الصغيرة التبسم والاستهزاء بالمؤمنين ، والكبيرة القهقهة بذلك ، فعلى هذا يكون ذنبا من الذنوب ، لمقصود فاعله ، لا لنفسه » ج ٥ ص ١٥٢ الطبعة الاولى سنة ١٣٨٥ .

(١) السخلة : ولد الشاة .

(٢) سورة ص ، الآية ٢٦ .

(٣) الرعاء بكسر الراء : هم الرعاة .

يا أمير المؤمنين :

حدثني يزيد بن جابر عن عبد الرحمن بن عمرة الانصاري أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه استعمل رجلا من الانصار على الصدقة ، فرآه بعد أيام مقيما ، فقال له : ما منعك من الخروج الى عملك ؟ أما علمت أن لك مثل أجر المجاهدين في سبيل الله ؟.

قال : لا ، وكيف ذلك ؟

قال : بلغني أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « ما من وال يلي شيئا من أمور الناس الا أوتي به يوم القيامة مغلولة يده الى عنقه ، لا يفكها الا عدله ، فيوقف على جسر من النار ، ينتفض به ذلك الجسر انتفاضة تزيل كل عضو منه عن موضعه، ثم يعاد فيحاسب، فان كان محسنا نجا باحسانه ، وان كان مسيئا انخرق به ذلك الجسر ، فيهوي به في النار سبعين خريفا »[1] .

فقال عمر رضي الله عنه : ممن سمعت هذا ؟.

قال : من أبي ذر وسلمان .

فأرسل اليهما عمر فسألهما فقالا : نعم ، سمعناه من رسول الله صلى الله عليه وسلم .

فقال عمر : واعمراه ، من يتولاها بما فيها[2] ؟!

فقال أبو ذر رضي الله عنه : من سلت الله أنفه ، وألصق خده بالارض .

---

(۱) روى هذا الحديث ابن ابي الدنيا .
(۲) يقصد الخلافة وتبعاتها .

فأخذ أبو جعفر المنديل فوضعه على وجهه ، ثم بكى وانتحب حتى أبكاني .

ثم قلت :

يا أمير المؤمنين :

قد سأل جدك العباس النبي صلى الله عليه وسلم امارة مكة ، أو الطائف ، أو اليمن ، فقال له النبي عليه الصلاة والسلام : « يا عباس ، يا عم النبي ، نفس تحييها خير من امارة لا تحصيها »[١] ، نصيحة منه لعمه، وشفقة عليه ، وأخبره أنه لا يغني عنه من الله شيئا ، اذ أوحي اليه :

« وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الأَقْرَبِينَ »[٢] .

فقال : يا عباس ويا صفية عمَّي النبي ، ويا فاطمة بنت محمد ، اني لست أغني عنكم من الله شيئا ، ان لي عملي ، ولكم عملكم »[٣] .

وقد قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه : لا يقيم أمر الناس الا حصيف العقل ، أريب العقد ، لا يطلع منه على عورة ، ولا يخاف منه على حرة ، ولا تأخذه في الله لومة لائم .

وقال : الامراء أربعة ، فأمير قوي ، ظلف نفسه وعماله[٤] ، فذلك كالمجاهد في سبيل الله ، يد الله باسطة عليه بالرحمة ، وأمير فيه ضعف ، ظلف نفسه وأرتع [٥] عماله لضعفه ، فهو على شفا[٦] هلاك الا أن يرحمه

---

(١) روى هذا الحديث البيهقي .
(٢) سورة الشعراء ، الآية ٢١٤ .
(٣) رواه البخاري وابن ابي الدنيا .
(٤) ظلف الانسان نفسه عن اهوائها اي منعها وصدها .
(٥) من رتع بمعنى اكل وشرب ما شاء في خصب ودعة .
(٦) الشفا : حرف كل شيء .

الله . وأمير ظلف عماله وأرتع نفسه . فذلك الحُطمة[١] الذي قال فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم : « شر الرعاة الحطمة »[٢] فهو الهالك وحده ، وأمير أرتع نفسه وعماله فهلكوا جميعا .

وقد بلغني ــ يا أمير المؤمنين ــ أن جبريل عليه السلام أتى النبي صلى الله عليه وسلم فقال : أتيتك حين أمر الله بمنافخ النار فوضعت على النار تُسعَّر ليوم القيامة ، فقال له : يا جبريل ، صف لي النار .

فقال : ان الله تعالى أمر بها فأوقد عليها ألف عام حتى احمرت ، ثم أوقد عليها ألف عام حتى اصفرت ، ثم أوقد عليها ألف عام حتى اسودت ، فهي سوداء مظلمة ، لا يضيء جمرها ، ولا يطفأ لهبها ، والذي بعثك بالحق لو أن ثوبا من ثياب أهل النار أظهر لاهل الارض لماتوا جميعا ، ولو أن ذنوبا[٣] من شرابها صُبّ في مياه الارض جميعا لقتل من ذاقه ، ولو أن ذراعا من السلسلة التي ذكرها الله وضع على جبال الارض جميعا لذابت وما استقلت ، ولو أن رجلا أدخل النار ، ثم أخرج منها ، لمات أهل الارض من نتن ريحه ، وتشويه خلقه وعظمه .

فبكى النبي صلى الله عليه وسلم ، وبكى جبريل عليه السلام لبكائه ، فقال : أتبكي يا محمد ، وقد غُفر لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر ؟.

فقال : أفلا أكون عبدا شكورا ؟ ولم بكيت يا جبريل وأنت الروح الامين : أمين الله على وحيه ؟.

قال : أخاف ان ابتلى بما ابتلي به هاروت وماروت ، فهو الذي منعني

---

(١) الحطمة : الراعي الظلوم .

(٢) الحديث من الامثال النبوية ، يضرب في سوء الملك والسياسة ، ويضرب لمن يلي ما لا يحسن ولايته . وقد روى مسلم هذا الحديث .

(٣) الذنوب ــ بفتح الذال ــ الدلو .

من اتكالي على منزلتي عند ربي ، فأكون قد أمنت مكره .

فلم يزالا يبكيان حتى نودي من السماء : يا جبريل ، ويا محمد ، ان الله قد آمنكما أن تعصياه فيعذبكما ، وفضل محمد على سائر الانبياء كفضل جبريل على سائر الملائكة[1] .

وقد بلغني يا أمير المؤمنين أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال : اللهم ان كنت تعلم أني أبالي اذا قعد الخصمان بين يديّ على مَن مال الحق، من قريب أو بعيد فلا تمهلني طرفة عين .

يا أمير المؤمنين :

ان أشد الشدة القيام لله بحقه ، وان أكرم الكرم عند الله التقوى ، وانه من طلب العز بطاعة الله رفعه الله وأعزه ، ومن طلبه بمعصية الله أذله الله ووضعه .

فهذه نصيحتي اليك ، والسلام عليك .

ثم نهضت فقال لي : الى أين ؟.

فقلت : الى الولد والوطن باذن أمير المؤمنين ان شاء الله .

فقال : قد أذنت لك ، وشكرت لك نصيحتك ، وقبلتها ، والله الموفق للخير ، والمعين عليه ، وبه أستعين ، وعليه أتوكل ، وهو حسبي ونعم الوكيل ، فلا تُخلني من مطالعتك اياي بمثل هذا ، فانك المقبول القول ، غير المتهم في النصيحة .

قلت : أفعل ان شاء الله . اهـ.

وروى محمد بن مصعب أن أبا جعفر المنصور أمر للاوزاعي بمال

---

(١) روى هذا الحديث ابن ابي الدنيا هكذا مفصلا بغير اسناد .

يستعين به على خروجه . فلم يقبله . وقال : أنا في غنى عنه . وما كنت لأبيع نصيحتي بعَرَض من الدنيا . وعرف المنصور مذهبه فلم يجد عليه[1] في ذلـك .

(١) لم يجد عليه : لم يغضب عليه .

التفويض

قال أهل اللغة : فوَّض فلان الى فلان الامر ، أي وكَّله فيه وردَّه اليه . والتفويض هو الاتكال في الامر على آخر ، وردّه اليه ، فيقال : فوَّض اليه أمره . وأفوض أمري الى الله ، أي أرده اليه .

ولقد سبق لي ان تحدثت عن «التوكل» في الجزء الثاني من كتابي « أخلاق القرآن »[1] ، وهناك تقارب بين معنى التوكل ومعنى التفويض ، حتى انه قد يعبَّر في بعض الاحيان عن التوكل بلفظ التفويض ، ولكني هنا أخص فضيلة التفويض بحديث مستقل ، يظهر فيه الفرق عند علماء الاخلاق وأطباء القلوب والارواح بين التوكل والتفويض .

والتفويض فضيلة أخلاقية اسلامية قرآنية ، صرح بها الذكر الحكيم على لسان مؤمن آل فرعون ، في سورة المؤمن ، ــ أو سورة غافر ــ حيث يقول :

« فَسَتَذْكُرُونَ ما أَقولُ لَكُمْ ، وَأُفَوِّضُ أَمْرِي إِلى اللهِ ، إِنَّ اللهَ بَصِيرٌ بالعِبادِ »[2] .

---

(١) كتاب اخلاق القرآن ، ج٢ ص ٢١٤ .

(٢) سورة غافر ، الآية ٤٤ .

أي سوف تعلمون صدق ما أمرتكم به ، ونهيتكم عنه ، ونصحتكم وأوضحت لكم ، وستتذكرونه وتندمون حيث لا ينفع الندم . وأتوكل على الله وأستعينه ، وأقاطعكم وأباعدكم . وألتجيء الى الله . فهو سبحانه بصير بعباده ، فيهدي من يستحق الهداية . ويضل من يستحق الضلال .

ويعبر ابن جرير الطبري عن معنى الآية بقوله : « يقول تعالى ذكره مخبرا عن قول المؤمن من آل فرعون لفرعون وقومه : فستذكرون أيها القوم — اذا عاينتم عقاب الله قد حل بكم ، ولقيتم ما لقيتموه — صدق ما أقول ، وحقيقة ما أخبركم به من أن المسرفين هم أصحاب النار . وقوله (وأفوض أمري الى الله) يقول : واسلّم أمري الى الله ، وأجعله اليه ، وأتوكل عليه ، فانه الكافي من توكل عليه » .

وهذه الآية الكريمة جاءت — كما أشرت — على لسان شخص مؤمن يسمى « مؤمن آل فرعون » . ويقال انه كان ابن عم لفرعون . وقيل ان اسمه « حبيب » . وقيل غير ذلك . ولم يؤمن من آل فرعون سوى هذا الرجل ، وامرأة فرعون ، والرجل الآخر الذي قال : « يا موسى ان الملأ يأتمرون بك ليقتلوك ... » .

وكان مؤمن آل فرعون يكتم ايمانه عن قومه ، فحينما قال فرعون : « ذروني أقتل موسى » أخذت هذا الرجل غضبة في الله عز وجل « وأفضل الجهاد كلمة حق عند سلطان جائر » ، فقال : « أتقتلون رجلا أن يقول ربي الله » ؟. وخوفهم وحذرهم ، وأرشدهم ونصح لهم ، ولكنهم أبوا الارتداع ، وأسرف فرعون في ضلاله وطغيانه ، فحفظ الله تعالى عبده المؤمن ، وأنزل بفرعون سوء العذاب ، وجعل مصيره ومصير قومه النار ، حيث يلقون العذاب الاليم .

وقد قص القرآن الكريم قصة هذا الرجل المؤمن ، ابتداء من الآية الثامنة والعشرين من سورة غافر ، وهي التي تقول :

« وَقَالَ رَجُلٌ مُؤْمِنٌ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَانَهُ : أَتَقْتُلُونَ رَجُلاً أَن يَقُولَ رَبِّيَ اللهُ ، وَقَدْ جاءَكُمْ بالْبَيِّنَاتِ مِنْ رَبِّكُمْ ، وإِنْ يَكُ كَاذِباً فَعلَيْهِ كَذِبُهُ ، وإِنْ يَكُ صادِقاً يُصِبْكُمْ بَعْضُ الَّذي يَعِدُكُمْ ، إِنَّ اللهَ لا يَهْدِي مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ » .

حتى الآية الخامسة والاربعين التي تقول :

« فَوَقَاهُ اللهُ سَيِّئَاتِ ما مَكَرُوا وَحاقَ بآلِ فِرْعَوْنَ سُوءُ العَذابِ » .

ولقد بذل مؤمن آل فرعون غاية جهده في التنفير من الشر ، والتحبيب في الخير ، والتوجيه الى طريق الثواب ، والصدّ عن طريق العقاب ، ولكن الكافرين لم يستمعوا ولم يستجيبوا ، فلم يكن أمام المؤمن غير الاعتصام بفضيلة التفويض الى الله ، والالتجاء الى حماه ، ولذلك يقول الرازي :

« ولما بالغ مؤمن آل فرعون في هذه البيانات ختم كلامه بخاتمة لطيفة ، فقال : فستذكرون ما أقول لكم. وهذا كلام مبهم يوجب التخويف. ويحتمل أن يكون المراد أن هذا الذكر يحصل في الدنيا ، وهو وقت الموت، وأن يكون في القيامة ، وقت مشاهدة الاهوال . وبالجملة فهو تحذير شديد .

ثم قال : وأفوض أمري الى الله ، وهذا كلام من هدد بأمر يخافه ، فكأنهم خوفوه بالقتل ، وهو أيضا خوفهم بقوله : فستذكرون ما أقول

لكم . ثم عوّل في دفع تخويفهم وكيدهم ومكرهم على فضل الله تعالى ، فقال : وأفوض أمري الى الله . وهو انما تعلم هذه الطريقة من موسى عليه السلام ، فان فرعون لما خوّفه بالقتل رجع موسى في دفع ذلك الشر الى الله ، حيث قال : اني عذت بربي وربكم من كل متكبر لا يؤمن بيوم الحساب ...

ثم قال : ان الله بصير بالعباد ، أي عالم بأحوالهم وبمقادير حاجاتهم » .

ونتساءل : متى فوض هذا المؤمن من آل فرعون أمره الى الله جل جلاله ؟

انه لم يفوض أمره الى ربه تواكلا أو تكاسلا ، ولم يفوضه على سبيل الضعف والعجز ، ولا على سبيل الفرار من التبعة والتخلص من الواجب . وانما فوض أمره الى ربه بعد أن قام بواجبه ، وبذل جهده ، واستنفد وسعه . وبعد ان دعاهم الى النجاة وحذرهم النار ، وتعرض بسبب ذلك لمخاوف العدوان من هؤلاء الاعداء ، حتى لقد خاف أن يقتلوه . ولكن ذلك لم يمنعه أن يصدع بكلمة الحق عالية ، وهذا أحد المفسرين يصور ذلك بقوله :« ويستنكر الرجل المؤمن أن يدعوهم الى النجاة فيدعونه الى النار ، فيهتف بهم في استنكار : (يا قوم ، مالي أدعوكم الى النجاة وتدعونني الى النار) » ؟.

وهم لم يدعوه الى النار ، انما دعوه الى الشرك ، وما الفرق بين الدعوة الى الشرك والدعوة الى النار ؟ انها قريب من قريب ، فهو يبدل الدعوة بالدعوة في تعبيره في الآية التالية : « تدعونني لأكفر بالله وأشرك به ما ليس لي به علم . وأنا أدعوكم الى العزيز الغفار » .

وشتان بين دعوة ودعوة . ان دعوته لهم واضحة مستقيمة، انه

يدعوهم الى العزيز الغفار ، يدعوهم الى اله واحد تشهد آثاره في الوجــود بوحدانيته ، وتنطق بدائع صنعته بقدرته وتقديره . يدعوهم اليه ليغفــر لهم ، وهو القادر على ان يغفر ، الذي تفضل بالغفران : « العزيز الغفار ».

فالى أي شيء يدعونه ؟ يدعونه للكفر بالله ، عن طريق اشراك مــا لا علم له به من مدعيات وأوهام وألغاز .

ويقرر من غير شك ولا ريبة أن هؤلاء الشركاء ليس لهم من الامــر شيء ، وليس لهم شأن لا في دنيا ولا في آخرة ، وأن المرد لله وحــده ، وأن المسرفين المتجاوزين للحد في الادعاء سيكونون أهل النار .

« لا جرم أن ما تدعونني اليه ليس لــه دعــوة في الدنيــا ولا في الآخرة ، وان مردنا الى الله ، وأن المسرفين هم أصحاب النار » .

وماذا يبقى بعد هذا البيان الواضح الشامل للحقائق الرئيسية في العقيدة ، وقد جهر بها الرجل في مواجهة فرعون وملئه بلا تردد ولا تلعثم، بعدما كان يكتم ايمانه ، فأعلن عنه هذا الاعلان ؟. لا يبقى الا أن يفوض أمره الى الله ، وقد قــال كلمته ، وأراح ضمــيره ، مهــددا اياهم بأنهــم سيذكرون كلمته هذه في موقف لا تنفع فيه الذكرى ، والامر كله لله : فستذكرون ما أقول لكم وأفوض أمري الى الله ، ان الله بصير بالعباد ».

وينتهي الجدل والحوار ، وقد سجل مؤمن آل فرعون كلمته الحق خالدة في ضمير الزمان » !!.



ويرى الامام الهروي أن التفويض أوسع معنى من التــوكل ، فان التوكل ــ كما يعبّر ــ بعد وقوع السبب ، والتفويض قبل وقوعه وبعده، وهو عين الاستسلام ، والتوكل شعبة منه .

ولكن الامام ابن القيم يخالفه في الرأي ، ويرى أن التوكل فوق التفويض ، وأجل منه وأرفع ، ولذلك تكرر الامر بالتوكل في القرآن . وأخبر القرآن أن التوكل صفة خاصة برسول الله وأوليائه وصفوة المؤمنين. وسمى الله تعالى نبيه عليه الصلاة والسلام « المتوكل » كما روى البخاري عن ابن عمر : « قرأتُ في التوراة صفة النبي صلى الله عليه وسلم : محمد رسول الله ، سميته المتوكل ... » .

وأخبر النبي عن السبعين ألفا الذين يدخلون الجنة بغير حساب . أنهم « أهل مقام التوكل » .

ولذلك يعد ابن القيم التوكل أوسع من التفويض ، وأعلى وأرفع .

ويعلق ابن القيم على عبارة الهروي : « فان التوكل بعد وقوع السبب ، والتفويض قبل وقوعه وبعده » بقوله : « يعني بالسبب : الاكتساب ، فالمفوض قد فوض أمره الى الله قبل اكتسابه وبعده . والمتوكل قد قام بالسبب . وتوكل فيه على الله . فصار التفويض أوسع .

فيقال : والتوكل قد يكون قبل السبب ومعه وبعده . فيتوكل على الله أن يقيمه في سبب يوصله الى مطلوبه ، فاذا قام به توكل على الله حال مباشرته ، فاذا أتمه توكل على الله في حصول ثمراته . فيتوكل على الله قبله ومعه وبعده .

فعلى هذا هو أوسع من التفويض على ما ذكر » .

ولا يكتفي ابن القيم في مخالفة الهروي حول الفرق بين التوكل والتفويض بما سبق ، بل يعلق أيضا على قول الهروي على التفويض : « وهو عين الاستسلام » . فيقرر أن معنى ذلك أن التفويض هو عين الانقياد بالكلية الى الحق سبحانه ، ولا يبالي أكان ما يقضي له الخير أم خلافه ، والمتوكل يتوكل على الله في مصالحه ، وبهذا يعلو مقام التفويض

على مقام التوكل .

ويرد ابن القيم على ذلك بأمرين :

أحدهما ان المفوض لا يفوض أمره الى الله الا لارادته أن يقضي له ما هو خير له في معاشه ومعاده ، وان كان المقضي له خلاف ما يظنه خيرا فهو راض به ، لأنه يعلم أنه خير له ، وان خفيت عليه جهة المصلحة فيه ، وهكذا حال المتوكل ، فهما في ذلك سواء ، بل المتوكل أرفع من المفوض ، لأن معه من عمل القلب ما ليس مع المفوض ، فان المفوض مفوض وزيادة، فلا يستقيم مقام التوكل الا بالتفويض ، فانه اذا فوّض أمره اليه اعتمد بقلبه كله عليه بعد تفويضه .

ونظير هذا أن من فوض أمره الى رجل ، وجعل أمره اليه ، فانه يجد من نفسه ـ بعد تفويضه ـ اعتمادا خاصا ، وسكونا وطمأنينة الى المفوّض اليه ، أكثر مما كان قبل التفويض ، وهذه هي حقيقة التوكل .

والامر الثاني هو أن أهم مصالح المتوكل حصول مراضي محبوبه ومحابّه ، فهو يتوكل عليه في تحصيلها له ، فأي مصلحة أعظم من هذه ؟. وأما التفويض فهو تفويض حاجات العبد المعيشية وأسبابها الى الله ، فانه لا يفوض اليه محابه ، والمتوكل يتوكل عليه في محابه .

والوهم انما جاء من ظن الظان أن التوكل مقصور على معلوم الرزق، وقوة البدن ، وصحة الجسم ، ولا ريب أن هذا التوكل ناقص بالنسبة الى التوكل في اقامة الدين والدعوة الى الله عز وجل .

وابن القيم حين يقارن بين التوكل والتفويض ، لا يريد ان يبخس فضيلة التفويض شيئا من مكانتها العالية لأنه يصف المفوض بأنه يتبرأ من الحول والقوة ، ويفوض الامر الى صاحبه وهو الله عز وجل ، من غير أن يقيمه مقام نفسه في مصالحه ، فالتفويض براءة وخروج من الحول والقوة ، وهو تسليم الامر كله الى مالكه .

وحينما يقول الهروي : « الثقة سواد عين التوكل ، ونقطة دائرة التفويض ، وسويداء قلب التسليم » يذكر ابن القيم ان مراد الهروي بهذا هو أن « الثقة » خلاصة التوكل ولبه ، كما أن سواد العين أشرف ما في العين ، وأشار بأنه نقطة دائرة التفويض، الى أن مدار التوكل عليه، وهو في وسطه كحال النقطة من الدائرة . فان النقطة هي المركز الذي عليه استدارة المحيط ، ونسبة جهات المحيط اليها نسبة واحدة ، وكل جزء من أجزاء المحيط مقابل لها ، كذلك « الثقة » هي النقطة التي يدور عليها التفويض.

وكذلك قوله : « وسويداء قلب التسليم » فان القلب أشرف ما فيه سويداؤه ، وهي المهجة التي تكون بها الحياة ، وهي في وسطه ، فلو كان التفويض قلبا لكانت الثقة سويداءه ، ولو كان عينا لكانت سوادها ، ولو كان دائرة لكانت نقطتها .



والتفويض ــ كما يراه أطباء الارواح ــ درجات ، الاولى ان يعلم العبد أنه لا يملك استطاعة قبل ان يعمل ، فالاستطاعة بيد الله تعالى لا بيد الانسان ، وان لم يعطه الله سبحانه استطاعة فهو عاجز .

والدرجة الثانية أن يعاين الانسان فقره وضرورته الى الله عز وجل ، فيرى ان كل ذرة من ذراته الباطنة والظاهرة ضرورة وفقر الى الله ، ويوقن بأن نجاته انما هي بالله ، لا بعمله .

والدرجة الثالثة أن يشهد انفراد الله الحق بملك الحركة والسكون ، فهو سبحانه الباسط القابض ، وهو عز شأنه المتصرف في كل شيء وكل أمر : « ألا الى الله تصير الامور » .

واذا كان ابن القيم يرى أن درجة التفويض دون درجة التوكل ، فان أبا علي الدقاق يسلك طريقا آخر ، لأنه يجعل التوكل ثلاث درجات : التوكل ، ثم التسليم ، ثم التفويض . فالمتوكل يسكن الى وعده ، وصاحب

التسليم يكتفي بعلمه ، وصاحب التفويض يرضى بحكمه ، فالتوكل بداية، والتسليم واسطة ، والتفويض نهاية ، فالتوكل صفة المؤمنين ، والتسليم صفة الاولياء ، والتفويض صفة الموحدين[1] .

وهناك نوع من التفويض ، يمكن أن نسميه « التفويض العقلي » أو أو « التفويض في الرأي » ، وهو تفويض الحكم في الأمور الى الله جل جلاله ، ولعل هذا مما نفهمه من قول القرآن الكريم في سورة النساء :

« يا أَيُّها الَّذِينَ آمَنوا أَطِيعُوا اللّهَ وأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الأَمْرِ مِنْكُمْ ، فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ في شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلى اللهِ وَالرَّسُولِ إِنْ كنْتُمْ تُؤْمِنونَ باللهِ وَاليَوْمِ الآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلاً »[2] .

ونتنقل في حديث التفويض الى روضة السنة المطهرة ، ولا ريب أن رسول الله صلوات الله وسلامه عليه هو خير من فوض أموره الى ربه عز وجل ، ولقد علّم النبي أمته كيف تفوض أمورها الى ربها ، فجاء مثلا في صحيح البخاري عن البراء بن عازب قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

« اذا أتيت مضجعك ، فتوضأ وضوءك للصلاة ، ثم اضطجع على شقك الايمن ، ثم قل : اللهم أسلمت وجهي اليك ، وفوضت أمري اليك ، والجأت ظهري اليك ، رغبة ورهبة اليك ، لا ملجأ ولا منجى منك الا اليك ، اللهم آمنت بكتابك الذي أنزلت ، ونبيك الذي أرسلت . فان مت من ليلتك فأنت على الفطرة ، واجعلهن آخر ما تتكلم به » .

---

(١) انظر كتابي أخلاق القرآن ، ج٢ ص ٢٢٧ .
(٢) سورة النساء ، الآية ٥٩ .

ومعنى الحديث بإيجاز ـ كما في فتح الباري ـ : « أسلمت » أي استسلمت وانقدت ، والمعنى جعلت نفسي منقادة لك ، تابعة لحكمك ، اذ لا قدرة لي على تدبيرها ، ولا على جلب ما ينفعها اليها ، ولا دفع ما يضرها عنهـا .

وقوله : « فوضت أمري اليك » أي توكلت عليك في أمري كله ، و « ألجأت » أي اعتمدت في أموري عليك ، لتعينني على ما ينفعني ، لأن من استند الى شيء تقوى به واستعان به ، وخصه بالظهر لأن العادة جرت أن الانسان يعتمد بظهره الى ما يستند اليه .

وقوله : « رغبة ورهبة اليك » أي رغبة في رفدك وثوابك ، ورهبة أي خوفا من غضبك ومن عقابك .

وقال الطيبي : في نظم هذا الدعاء عجائب لا يعرفها الا المتقن من أهل البيان ، فأشار بقوله : « أسلمت نفسي » الى أن جوارحه منقادة لله تعالى في أوامره ونواهيه ، وبقوله : « وجهت وجهي » الى أن ذاته مخلصة لـه بريئة من النفاق . وبقولـه : « فوضت أمري » الى أن أموره الخارجـة والداخلة مفوضة اليه ، لا مدبر لها غيره ، وبقوله : « ألجأت ظهري » الى أنه بعد التفويض يلتجىء اليه مما يضره ويؤذيه من الاسباب كلها .

ومن أذكار الرسول صلى الله عليه وسلم الدالة على فضيلة التفويض لله ، قوله عند التهجد ـ فيما رواه البخاري ـ : « اللهم لك الحمد ، أنت نور السموات والارض ومن فيهن ، ولك الحمـد ، أنت قيّم السموات والارض ومن فيهن ، ولك الحمد ، أنت الحق ، ووعدك حق ، وقولـك حق ، ولقاؤك حق ، والجنة حق ، والنار حق ، والساعة حق ، والنبيون حق ، ومحمد حـق . اللهم لك أسلمت ، وعليـك توكلت ، وبك آمنت ، واليك أنبت ، وبك خاصمت ، واليك حاكمت ، فاغفر لي ما قدمت ومـا

أخرت ، وما أسررت وما أعلنت ، أنت المقدم ، وأنت المؤخر ، لا الـه الا أنت » .

* * *

ولقد تجلى التفويض لله في حياة أبي الانبياء ابراهيم عليـه وعليهم الصلاة والسلام، والقرآن خير شاهد على ذلك. فهو يقول في سورة البقرة:

« وَمَنْ يَرْغَبُ عَنْ مِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلَّا مَنْ سَفِهَ نَفْسَهُ ، وَلَقَدِ اصْطَفَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي الآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ ، إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْ ، قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ العَالَمِينَ » [1] .

وهو يقول في سورة الصافات :

« وَإِنَّ مِنْ شِيعَتِهِ لَإِبْرَاهِيمَ ، إِذْ جَاءَ رَبَّهُ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ » [2] .

وصورة القلب السليم ــ كما يقول بعض المفسرين ــ هي صورة الاستسلام الخالص ، تتمثل في مجيئه لربه ، وصورة النقـاء والطهـارة والبراءة والاستقامة تتمثل في سلامة قلبه ، والتعبير بالسلامة تعبير موح مصور لمدلوله ، وهو في الوقت ذاته بسيط قريب المعنى واضح المفهوم ، ومع أنه يتضمن صفات كثيرة من البراءة والنقاوة والاخلاص والاستقامة، الا أنه يبدو بسيطا غير معقد ، ويؤدي معنـاه بأوسع ممـا تؤديه هـذه الصفات كلها مجتمعات ، وتلك احدى بدائع التعبير القرآني الفريد .

وهو يقول في سورة الصافات أيضا :

---

(١) سورة البقرة ، الآيتان ١٣٠ و١٣١ .

(٢) سورة الصافات ، الآيتان ٨٣ و٨٤ .

« فَبَشَّرْناهُ بِغُلامٍ حَلِيمٍ ، فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ قَالَ : يا بُنَيَّ إِنِّي أَرَى في المَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانْظُرْ ماذا تَرَى ، قالَ يا أَبَتِ افْعَلْ ما تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِي إِنْ شاءَ اللهُ مِنَ الصَّابِرِينَ فَلَمَّا أَسْلَما وتَلَّهُ لِلْجَبِينِ ، وَنَادَيْنَاهُ أَنْ يا إِبْرَاهِيمُ ، قَدْ صَدَّقْتَ الرُّؤْيا إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي المُحْسِنِينَ »[1] .

ان لم يكن هذا هو التفويض الرائع ، والاستسلام الباهر ، فماذا يكون التفويض والاستسلام ؟!



وبجوار هذه الكنوز المنثورة عن التفويض في القرآن والسنة ، نجد كنوزا بعدها في تراثنا الادبي والاخلاقي تجلّي فضيلة التفويض وتشيد بها ، وبخاصة تراث أطباء القلوب والارواح ، فهذا أبو عثمان الحيري النيسابوري يقول : « التفويض ردّ ما جهلت علمه الى عالمه ، والتفويض مقدمة الرضا ، والرضا باب الله الأعظم » .

ويقول أيضا : « أنت في سجن ما تبعت مرادك وشهواتك ، فاذا فوّضت وسلّمت استرحت » .

يا رب : فوضت أمري اليك ، وجعلت اعتمادي عليك ، فاقبلني لديك !.

---

(١) سورة الصافات ، الآية ١٠١ ــ ١٠٥ .

التسليم

مادة «سلم» فيها معنى الخلوص ، والامان ، والنجاة ، والخلو من العوارض والموانع . والقلب السليم هو الخالي من دغل الشرك والذنوب ، ومنه قول الله في سورة الصافات عن ابراهيم :

« إِذْ جاءَ رَبَّهُ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ » .

والتسليم هو الانقياد والاذعان . ولفظ الاسلام يدل على الانقياد ، وعلى الأخلاص ، وعلى الدخول ، في دين الاسلام .

« والتسليم » فضيلة أخلاقية قرآنية ، تدل على الخضوع لله . والتوكل على الله ، والقاء القياد الى الله ، وقد أشار القرآن الكريم الى هذه الفضيلة حينما قال في سورة النساء مخاطبا رسول الله صلى الله عليه وسلم : « فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكّموك فيما شجر بينهم ، ثم لا يجدوا في أنفسهم حرجا مما قضيت ، ويسلموا تسليما » . أي لا يجدوا في أنفسكم ضيقا أو شكا ، وينقادوا لامرك في القضاء والحكم ، ويسلموا لحكمك تسليما لا يكون معه شك أو ارتياب .

وهذا الاذعان الذي تشير اليه الآية الكريمة ، انما يتحقق ــ كما في تفسير المنار ــ بثلاثة أمور : الاول أن يحكّموا الرسول في القضايا التي يختصمون فيها ويشتجرون ، والامر الثاني أن تذعن نفوسهم لقضاء الله جل جلاله ، الذي ينطق به الرسول ، فلا يكون عندهم ضيق أو

امتعاض : « والمؤمن الكامل الايمان ينشرح صدره لحكم الرسول من أول وهلة لعلمه أنه الحق ، وأن الخير له فيه ، والسعادة في الاذعان له ، فاذا كان في ايمانه ضعف ما ضاق صدره عند الصدمة الاولى ، ثم يعود على نفسه بالذكرى ، وينحي عليها باللوم ، حتى تخشع وتنشرح بنور الايمان، وايثار الحق الذي حكم به الرسول صلى الله عليه وسلم على الهوى » .

والامر الثالث التسليم والانقياد بالفعل ، وما كل من يعتقد حقية الحكم ، ولا يجد في نفسه ضيقا منه ، ينقاد له فعلا ، وينفذه طوعا .

ويصور الامام محمد عبده معنى الآية السابقة بقوله : « لا وربك لا يكونون مؤمنين حتى يكونوا موقنين في قلوبهم ، مذعنين في بواطنهم، ولا يكونون كذلك حتى يحكّموك فيما شجر واختلط بينهم من الحقوق. ثم بعد أن تحكم بينهم لا يجدوا في أنفسهم الضيق الذي يحصل للمحكوم عليه ، اذا لم يكن خاضعا للحكم في قلبه ، فان الحرج انما يلازم قلب من لم يخضع ، ذلك بأن المؤمن لا ينازع أحدا في شيء الا بما عنده من شبهة الحق ، فاذا كان كل من الخصمين يرضى بالحق متى عرفه ، وزالت الشبهة عنه كما هو شأن المؤمن ، فحكم الرسول يرضيهما ظاهرا وباطنا ، لأنه أعدل من يحكم بالحق » .

وكأن الاستاذ الامام قد نظر في كلامه هذا الى ما ذكره الامام ابن القيم في « مدارج السالكين » من أن التسليم في الآية الكريمة هو تسليم المؤمنين العارفين ، وهو تسليم لحكم الله الديني الامري ، حيث يقوم على ثلاث دعائم هي : التحكيم ، وسعة الصدر بانتفاء الحرج ، ثم التسليم بلا ضيق ولا تردد .

وهناك التسليم لحكم الله الكوني ، أي الرضا بقضاء الله جلت حكمته ، والرضا بالقضاء الديني الشرعي هو ـ كما في المدارج ـ هو أساس الاسلام وقاعدة الايمان ، فعلى العبد أن يكون راضيا به دون حرج

ولا منازعة ، ولا معارضة ولا اعتراض ، قال الله تعالى :

« فَلا وَرَبِّكَ لا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيما شَجَرَ بَيْنَهُمْ ، ثُمَّ لا يَجِدُوا في أَنْفُسِهِمْ حَرَجاً مِمّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيماً » .

فأقسم سبحانه أنهم لا يؤمنون حتى يحكموا رسوله ، وحتى يرتفع الحرج من نفوسهم من حكمه ، وحتى يسلّموا لحكمه تسليما ، وهذه حقيقة الرضى بحكمه ، فالتحكيم في مقام « الاسلام » ، وانتفاء الحرج في مقام « الايمان » ، والتسليم في مقام « الاحسان » .

ومتى خالطت القلب بشاشة الايمان ، واكتحلت بصيرته بحقيقة اليقين ، وحيي بروح الوحي ، وتمهدت طبيعته ، وصارت النفس الامارة نفسا مطمئنة راضية وادعة ، وتلقى أحكام الله تعالى بصدر واسع منشرح مسلّم ، فقد رضي كل الرضى بهذا القضاء الديني المحبوب لله وللرسول.

والرضى بالقضاء الكوني القدري ، الموافق لمحبة العبد وارادته ورضاه ــ من الصحة والغنى والعافية واللذة ــ أمر لازم بمقتضى الطبيعة، لأنه ملازم للعبد محبوب له ، فليس في الرضى به عبودية ، بل العبودية في مقابلته بالشكر والاعتراف بالمنة ، ووضع النعمة مواضعها التي يحب الله أن توضع فيها ، وأن لا يعصي المنعم بها ، وان يرى التقصير في جميع ذلك .

والرضى بالقضاء الكوني القدري ، الجاري على خلاف مراد العبد ومحبته ــ مما لا يلائمه ، ولا يدخل تحت اختياره ــ مستحب ، وهو من مقامات أهل الايمان .

وينهض التسليم لله على ثلاث دعائم : الاولى تسليم الغيب لله ، وعدم

تحكيم العقل في كل الامور ، فالعقل يعجز أمام الكثير من هذه الامور ، والثانية الاذعان لتصرف الله في الخلق وفي حظوظ النـاس . والثالثـة الاقدام على جلائل الامور ، لا يخاف اقتحام المخاطر والاهوال ، لأن قوة تسليمه تحميه من خطرها .



وجوهر التسليم هو الرضى بقضاء الله ، وهـذا الرضى هو ثمـرة التوكل ، لأن العبد اذا توكل على الله حق التوكل رضي بما يفعله ربـه ، ويقول الامام ابن القيم :

« وكان شيخنا رضي الله عنه يقول : المقدور يكتنفه أمران : التوكل قبله ، والرضى بعده ، فمن توكل على الله قبل الفعل ، ورضي بالمقضي له بعد الفعل ، فقد قام بالعبودية ، أو معنى هذا .

قلت : وهذا معنى قول النبي صلى الله عليه وسلم في دعاء الاستخارة: « اللهم أني أستخيرك بعلمك ، واستقدرك بقدرتك ، واسألك من فضلك العظيم » . فهذا توكل وتفويض .

ثم قال : « فانك تعلم ولا أعلم ، وتقـدر ولا أقـدر ، وأنت عـلام الغيوب » . فهذا تبرؤ الى الله من العلم والحول والقوة ، وتوسل اليـه سبحانه بصفاته التي هي أحب ما توسل اليه بها المتوسلون .

ثم سأل ربه أن يقضي له ذلك الامر ، ان كان فيه مصلحته عاجـلا أو آجلا ، وأن يصرفه عنه ان كان فيه مضرته عاجلا أو آجلا ، فهذا هـو حاجته التي سألها ، فلم يبق عليه الا الرضى بما يقضيه له ، فقال : « واقدر لي الخير حيث كان ، ثم رضّني به » .

فقد اشتمل هذا الدعاء على هذه المعارف الالهية والحقائق الايمانية ،

التي من جملتها التوكل والتفويض قبل وقوع المقدور ، والرضى بعده وهو ثمرة التوكل ، والتفويض علامة صحتـه ، فان لم يرض بمـا قضى لـه فتفويضه معلول فاسد » .

وهؤلاء هم السابقون الاولون من المؤمنين ، تقبل عليهم الاحزاب بخيلها ورجلها ، وعدوانها وطغيانها ، فلا يزدادون الا ايمانا واقبالا على الله وتسليما له ، وبذلك كانوا صادقين أوفياء ، فنهلك حيث يقول الله جل جلاله في سورة الاحزاب :

« ولما رأى المؤْمِنُونَ الأَحْزابَ قَالُوا هَذا ما وَعَدَنا اللّهُ وَرَسُولُهُ ، وَصَدَقَ اللّهُ وَرَسُولُهُ ، وما زادَهُمْ إِلَّا إِيماناً وَتَسْلِيماً ، مِنَ المؤْمِنِينَ رِجالٌ صَدَقُوا ما عَاهَدُوا اللّهَ عَلَيْهِ ، فَمِنْهُمْ مَنْ قَضَى نَحْبَهُ وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْتَظِرُ وما بَدَّلُوا تَبْدِيلاً ، لِيَجْزِيَ اللّهُ الصّادِقِينَ بِصِدْقِهِمْ ، وَيُعَذِّبَ المُنافِقِينَ إن شاءَ أَو يَتُوبَ عَلَيْهِمْ ، إِنَّ اللّهَ كانَ غَفُوراً رَحِيماً » .

ويقرر ابن القيم ان التسليم لله يتحقق بخلاص الانسان من الشبهة التي تعارض الخبر الصحيح ، ومن الشـهوة التي تعـارض الامـر الالهي الحكيم ، ومن ارادة النفس التي تعارض الاخلاص لله ، ومن الاعتراض على أحكام الشرع ، ومتى تحلى الانسان بهذا التخلص أصبح صاحب القلب السليم الذي ينجو صاحبه يوم القيامة : « يوم لا ينفع مال ولا بنون الا من أتى الله بقلب سليم » .

ولذلك يجب على الانسان أن يتخلص من الشبهات والشهوات وارادة الذات والاعتراض ، وبذلك يبلغ أجل مقامات الايمان ، وعلة التسليم هي

عدم اكتمال الرضى : « وليس في التسليم الا علة واحدة ، وهي أن لا يكون تسليمه صادرا عن محض الرضى والاختيار ، بل يشوبه كره وانقباض ، فيسلّم على نوع اغماض ، فهذه علة التسليم المؤثرة ، فاجتهد في الخلاص منها » .

* * *

وفي صدق الاسلام معنى التسليم ، لأن الاسلام انقياد لله ، وخضوع لما وضعه من الشرائع والاحكام ، مع التوجه الكلي الى الله ، ولعل هذا هو ما عبر عنه القرآن الكريم باسلام الوجه ، وقد وردت في كتاب الله تعالى يظهر فيها هذا المعنى ، كقول الله جل جلاله في سورة البقرة :

« بَلَى مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُ أَجْرُهُ عِنْدَ رَبِّهِ ، وَلاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ » .

وفي سورة آل عمران :

« فَإِنْ حَاجُّوكَ فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِيَ لِلَّهِ وَمَنِ اتَّبَعَنِي » .

وفي سورة النساء :

« وَمَنْ أَحْسَنُ دِيناً مِمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ وَاتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفاً ، وَاتَّخَذَ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلاً » .

وفي سورة لقمان :

« وَمَنْ يُسْلِمْ وَجْهَهُ إِلَى اللَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ

بِالعُرْوَةِ الوُثْقَى وَإلى اللهِ عاقِبَةُ الأُمورِ » .

وكلمة « السلام » في القرآن المجيد غير بعيدة في مفهومها وظلالها من معنى « التسليم » لأن السلام أمان وخلاص ، والتسليم انقياد لله يورث الاطمئنان والرضى ، ونستطيع أن نلحظ هذا حين تتدبر قول الله تبارك وتعالى في سورة المائدة :

« قَدْ جاءَكُمْ مِنَ اللهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُبينٌ يَهْدِي بِهِ اللهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلامِ ، وَيُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إلى النُّورِ بإذنهِ وَيَهْدِيهِمْ إلى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ » .

وقوله في سورة الأنعام :

« لَهُمْ دَارُ السَّلامِ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَهُوَ وَلِيُّهُمْ بِما كانُوا يَعْمَلُونَ » .

وقوله في سورة يونس :

« واللهُ يَدْعُو إلى دارِ السَّلامِ وَيَهْدِي مَنْ يَشاءُ إلى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ، لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الحُسْنَى وَزِيَادَةٌ وَلا يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ قَتَرٌ ولاَ ذِلَّةٌ أُولَئِكَ أَصْحَابُ الجَنَّةِ هُمْ فِيها خَالِدُونَ » .



وتقبل السنة المطهرة لتحدثنا عن « فضيلة التسليم » فنجد رسول الله عليه الصلاة والسلام يقول : « والذي نفسي بيده لا يؤمن أحدكم حتى يكون هواه تبعا لما جئت به » . والذي جاء به الرسول هو دين الله

ودعوته ، وحكمه وأمره ، وقوله : « حتى يكون هواه تبعا لما جئت به » معناه أن تكون ارادة الانسان تابعة لأمر الله ، خاضعة له ، راضية به ، فلا يكون للانسان أمر بجوار أمر الله ، ولا ارادة بجوار ارادة الله ، ولا شهوة في غير أمر الله ، وهذا هو التسليم حق التسليم .

ولقد كان سيدنا رسول الله خير من تحقق بالتسليم لربه ، ولذلك كان يقول عند النوم ــ كما يروي البخاري ــ : « اللهم أسلمت نفسي اليك ، ووجهت وجهي اليك » أي استسلمت وانقدت ، وجعلت نفسي خاضعة لك ، تابعة لحكمك ، لا قدرة لي على تدبيرها . ولا على جلب ما ينفعها اليها ، ولا على دفع ما يضرها عنها . وكان صلوات الله وسلامه عليه يدعو ربه فيقول : « اللهم أنت ربي ومليكي والهي ، لا اله الا أنت ، اليك وجهت وجهي » . وكان يردد في تهجده بالليل ، « اللهم لك أسلمت ، وبك آمنت ، وعليك توكلت » .

ولقد عرف البصراء من أتباع محمد عليه الصلاة والسلام مكانة التسليم لله ، فنوهوا به ووجهوا اليه ، فهذا هو الزهري مثلا يقول : «من الله عز وجل الرسالة ، وعلى رسول الله صلى الله عليه وسلم البلاغ ، وعلينا التسليم » .

ويرينا الحارث المحاسبي الصورة الرائعة للتسليم فيقول : «التسليم هو الثبات عند نزول البلاء ، من غير تغير منه في الظاهر والباطن » . ومن هنا نفهم أن التسليم ليس استسلاما أو خنوعا ، وليس تواكلا وتبطلا ، وليس تركا للاسباب أو العمل ، وانما هو اتجاه الى الله ، واعتصام بحماه . واستعانة بهداه ، واستنفاد الوسع والطاقة في السعي والحركة وتحقيق ما يرضي الله .

وممن تكلموا في « التسليم » بشر بن الحارث الحافي ، وقد رووا عنه أنه كان في مجلسه يتحدث عن التسليم والرضى . فقال له بعض من

حضر : يا أبا نصر ، انقبضت عن أخذ البرّ من يد الخلق لاقامة الجـاه ، فان كنت متحققا بالزهد ، منصرفا عن الدنيا ، فخذ من أيديهم ، ليمتحي جاهك عندهم ، وأخرج ما يعطونك الى الفقراء ، وكن بعقد التوكل ، تأخذ قوتك من الغيب .

فقال بشر : اسمع أيها الرجل الجوابَ : الفقراء ثلاثـة : فقـير لا يسأل ، وان أعطي لا يأخذ ، فذاك من الروحانيين ، اذا سأل الله أعطاه ، وان أقسم على الله أبرّ قسمه .

وفقير لا يسأل ، وان أعطي قبل ، فذاك من أوسط القوم ، عقـده التوكل والسكون الى الله تعالى ، وهو من توضع له الموائد في حظـيرة القدس .

وفقير اعتقد الصبر ومدافعة الوقت ، فاذا طرقته الحاجة خرج الى عبيد الله ، وقلبه الى الله بالسؤال فكفارة مسألته صدقه في السؤال .

فقال السائل لبشر : رضيتُ ، رضي الله عنك .

الله نسأل أن يجعلنا من أهل التسليم والسلام والاسلام .

الكرامة

كلمة « الكرامة » مشتقة من مادة « الكرم » ، والكرم في اللغة ضد اللؤم ، وكَرُمَ فلان : سلك في حياته مسلكا مرضيا ، وعزّ في ذاته وصار نفيسا ، والكريم هو الشريف أو المنعم أو رضيّ الخُلُق ، والرزق الكريم هو الرزق الطيب الموفور ، وكرّم فلان فلانا تكريما وتكرمة : عظّمه ونزهه ، وكرم الله وجهه : أي شرفه ، والكريمان هما الحج والجهاد، وأكرم فلان نفسه عن الخنا ، أي صانها ونزهها عما لا يليق بها، وأكرم القوم أشرفهم .

هذا حديث اللغة عن مادة « الكرامة » ، والكرامة بالمعنى الاخلاقي هي أن يحسن المرء الاحساس بآدميته وانسانيته وبأنه صنع الله ومخلوقه، وان الله تبارك وتعالى قد وهب الانسان تكريما وتمجيدا . فيلزم هذا الانسان أن يكون مقدّرا هذه الهبة ، صائنا هذا التكريم . مرتفعا بخلقه وقوله وعمله وسلوكه ، الى مستوى هذا التمجيد ، فلا يصدر منه قول أو فعل أو سلوك يشين هذه الانسانية التي كرمها الله جل جلاله ، وزكّى شأنها . وأراد لها أن تكون تأهيلا لخلافة الانسان في الارض ، وسيادته على غيره من المخلوقات فيها ، ومن وراء هذا الاحساس لا يقبل الانسان لنفسه أن يتعرض لما يسيء الى شرفه أو سمعته في قليل أو كثير .

وفضيلة الكرامة قريبة من فضيلة العزة ، لأن الكرامة يوجد فيها معنى الترفع عن الخسيسة ، والتباعد عن المذلة ، والتأبي على الضيم والهوان ، والعزة فيها هذه المعاني ، ولذلك قلت حين حديثي عن «العزة» في الجزء الاول من كتابي ، « أخلاق القرآن » هذه العبارة عن شأن المسلم في موطن الابتلاء : « واذا شاء الله تعالى له لونا من ألوان الاختبار والابتلاء تحمله راضيا صابرا ، محتفظا بعزته وكرامته وشهامته ، موقنا بأن احتمال الالم خير ألف مرة من التخاذل والاستسلام »[1] . وقد يجمع بين العزة والكرامة أن يسير المسلم في ضوء القول النبوي الجليل : « ان الله يحب معالي الامور ويكره سفسافها »[2] .

والكرامة ضدها الذل والهوان ، ومن هنا قال القائل الحكيم :

اذا أنت لم تعرف لنفسك حقها هوانا بها كانت على الناس أهونا

ويقول الآخر :

من يهن يسهل الهوان عليه ما لجرح بميت ايلام !!

ومن التشريف لفضيلة « الكرامة » المشتقة من مادة « الكرم » أن من أسماء الله عز شأنه وصفاته وصف « الكريم » وأن الله تعالى قد وصف القرآن المجيد بأنه كريم ، فقال في سورة الواقعة : « انه لقرآن كريم » ، لأنه كثير النفع والخير ، لاشتماله على أصول العلوم المهمة في اصلاح المعاش والمعاد ، ولأنه حسن مرضي في جنسه ، ولأنه مطهر منزه عن الخطأ والسوء .

وكذلك وصف الله تعالى رسله بأنهم كرام ، فقال عن رسوله محمد صلى الله عليه وسلم ، في سورة الحاقة :

---

(١) انظر الجزء الاول من كتابي « أخلاق القرآن » ص ١٨ . نشر دار الرائد العربي ببيروت ، سنة ١٩٧١ .

(٢) انظر شرح هذا الحديث في كتابي « من أدب النبوة » نشر المجلس الاعلى للشؤون الاسلامية بالقاهرة ، سنة ١٩٧١ .

« إنهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ » .

أي ان القرآن يبلغه رسول الله عن الله ، لا من عند نفسه ، وهو رسول كريم على الله تعالى ، قد طهره ربه ونزهه عن الافتراء والانحراف والخنا . ويحتمل أن يكون المراد بالرسول هنا هو جبريل عليه السلام . كما في قوله في سورة التكوير :

« إنه لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ » .

وقال القرآن الكريم عن موسى عليه السلام في سورة الدخان :

« وَلَقَدْ فَتَنَّا قَبْلَهُمْ قَوْمَ فِرْعَوْنَ ، وَجَاءَهُمْ رَسُولٌ كَرِيم » .

أي صاحب كرامة وتكريم عند الله تعالى ، وهو كريم على المؤمنين ، أو كريم في نفسه ، لشرف نسبه وفضل حسبه ، ومثل هذا يحرص على الكرامة ، ولا يرتكب ما يعاب .

ووصف القرآن الملائكة بأنهم كرام مكرمون، فقال فيسورة الانبياء:

« وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَداً سُبْحَانَهُ بَلْ عِبَادٌ مُكْرَمُونَ »

وقال في سورة الذاريات عن ضيوف ابراهيم من الملائكة :

« هَلْ أَتاكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ الْمُكْرَمِينَ » .

أي مكرمين عند الله عز وجل ، أو عند ابراهيم عليه السلام ، حيث لم يعرضهم لاهانة أو مذلة ، بل خدمهم بنفسه ومعه زوجته ، فصان عليهم بذلك كرامتهم . وقال في سورة عبس :

« كَلَّا إِنَّها تَذْكِرَةٌ ، فَمَنْ شاءَ ذَكَرَهُ ، في صُحُفٍ مُكَرَّمَةٍ ، مَرْفُوعَةٍ مُطَهَّرَةٍ ، بِأَيْدِي سَفَرَةٍ كِرَامٍ بَرَرَةٍ » .

أي بأيدي ملائكة سفراء ، أعزاء على الله ، أو منعطفين على المؤمنين، يكلمونهم ويستغفرون لهم . وقال في سورة الانفطار :

« وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ كِرَاماً كاتِبِينَ ، يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ » .

أي كراما عند الله لتعظيم الجزاء .

ومتى امتلأ سمع المسلم وقلبه بأن الله تبارك وتعالى موصوف بأنه الكريم ، وأن الرسل صلوات الله وسلامه عليهم موصوفون بأنهم كرام ، وأن الملائكة كرام ، وأن القرآن كريم ، أدرك المسلم أن الكرامة من صفات الخير والعلو ، فاستشعر في نفسه روح هذه الكرامة ، وحافظ عليها .

ويقول القرآن الكريم عن عباد الرحمن في سورة الفرقان :

« والَّذِينَ لاَ يَشْهَدُونَ الزُّورَ وَإِذا مَرُّوا باللَّغْوِ مَرُّوا كِرَاماً » .

أي ان عباد الرحمن الذين لا يقولون الشهادة الباطلة ، ولا ينطقون بكلمة الزور ، لأن هذا قادح في كرامتهم ، ولا يحضرون مواطن الكذب والافتراء ، لأن مشاهدة الباطل نوع من المشاركة فيه ، واذا مر هؤلاء المؤمنون بشيء من اللغو الذي ينبغي ان ينبذ ويطرح ، مروا كراما معرضين عنه ، مكرمين أنفسهم عن الوقوف عليه والخوض فيه ، ويدخل في ذلك الاغضاء عن الفواحش ، والصفح عن الذنوب ، والكناية عما

يستهجن التصريح به ، وهذه صفات أهل الكرامة ، فهم شرفاء يترفعون عن اللغو من الكلام ، فلا يستمعون اليه ، وعن اللغو من الاعمال ، فلا يقبلون عليها ، بل يعرضون عنها .

وليس من شأن المسلم المتحلي بفضيلة الكرامة أن يرد على السفه بسفه مثله ، ولا أن يجاوب على اللغو بلغو من قبيله ، وكيف والقرآن الكريم يقول في صفات المؤمنين : « والذين هم عن اللغو معرضون » . والقائل الحكيم يقول :

اذا نطق السفيه فلا تجبه ... فخير من اجابته السكوت
اذا جاوبته فرجت عنه ... ولو أهملته كمدا يموت

والقائل الآخر الكريم على نفسه يقول :

وكلمة حاسد في غير جُرم ... سمعت فقلت مري فانفذيني
فعابوها عليّ ولم تسؤني ... ولم يعرق لها أبدا جبيني
وذو اللونين يلقاني طليقا ... وليس اذا تغيّب يأتليني
سمعت بعيبه فصفحت عنه ... محافظة على حسبي وديني

والكرامة لها مواطن كثيرة ، فهناك الكرامة في التفكير ، فالكريم على نفسه لا يفكر في مقابح الامور ، والكرامة في القول تمنع صاحبها أن ينطق بفحش ، أو يجادل في باطل ، أو يماري فيما لا يفيد ، والكرامة في العمل لا يفعل صاحبها عملا يسيء الى سمعته أو مكانته ، والكرامة في الصحبة هي التي تمنع صاحبها أن يصادق اللئام ، أو يخادن الطغام ، والكرامة في النظرة تجعل صاحبها لا يتوقع ولا يتبجح لينظر الى شيء غيره ، أو ما يباح النظر اليه ، والكرامة في الاستماع تصون أذن صاحبها عن التجسس وتتبع العورات ، والكرامة في معاملة الغير ، تجعل صاحبها يمنع نفسه عن الاساءة اليهم في قول أو عمل أو اشارة أو ظن أو حكم ،

وما أبلغ قول القرآن في سورة الحجرات :

« يا أَيُّها الَّذِينَ آمَنُوا لاَ يَسْخَرْ قَوْمٌ مِنْ قَوْم عَسى أَنْ يَكُونُوا خَيْراً مِنْهُمْ ، وَلاَ نِساءٌ مِنْ نِسَاءٍ عَسَى أَنْ يَكُنَّ خَيْراً مِنْهُنَّ ، وَلاَ تَلْمِزُوا أَنْفُسَكُمْ ، وَلا تَنَابَزُوا بِالأَلْقَابِ بِئْسَ الاسْمُ الفُسُوقُ بَعْدَ الإِيمانِ ، وَمَنْ لَمْ يَتُبْ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ، يا أَيُّها الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيراً مِنَ الظَّنِّ ، إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ ، وَلاَ تَجَسَّسُوا وَلاَ يَغْتَبْ بَعْضُكُمْ بَعْضاً ، أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخيهِ مَيْتاً فَكَرِهْتُمُوهُ واتَّقُوا اللهَ إِنَّ اللهَ تَوَّابٌ رَحِيمٌ » .

ولقد ختم الله توجيهه الحكيم السابق بقوله كما رأينا :

« واتَّقُوا اللهَ إِنَّ اللهَ تَوَّابٌ رَحِيمٌ » .

« إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللهِ أَتْقَاكُمْ » .

وذلك لأن التقوى تكمل النفوس ، وبها يتفاضل الاشخاص ، فمن أراد شرفا فليلتمسه في التقوى ، ومن أراد أن تتوافر له الكرامة عند الله وعند الناس فعليه بالتقوى ، وقد جاء في الحديث الشريف : « يا أيها الناس ، انما الناس رجلان ، مؤمن تقي كريم على الله ، وفاجر شقي هيّن على الله » . وجاء في السنة حديث غريب ، يشير الى أن التقوى هي مفتاح الكرامة العظمى ، يقول : « ما شيء أكرم على الله يوم القيامة من ابن آدم » قيل : يا رسول الله ، ولا الملائكة ؟. قال : « ولا الملائكة ، الملائكة

مجبورون بمنزلة الشمس والقمر » .

ويؤكد القرآن الحكيم أن الايمان والتقوى يصيران بصاحبهما الى الكرامة والاكرام . فيقول في سورة يس عن المؤمن حبيب النجار :

« إِنِّي آمَنْتُ بِرَبِّكُمْ فَاسْمَعُونِ ، قِيلَ ادْخُلِ الْجَنَّةَ قَالَ يَا لَيْتَ قَوْمِي يَعْلَمُونَ ، بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُكْرَمِينَ » .

وكذلك يقول القرآن المجيد في سورة الصافات :

« وَمَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ، إِلَّا عِبَادَ اللهِ الْمُخْلَصِينَ ، أُولَئِكَ لَهُمْ رِزْقٌ مَعْلُومٌ ، فَوَاكِهُ وَهُمْ مُكْرَمُونَ ، فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ » .

أي مكرمون في نيل هذا الرزق ، يصل اليهم من غير سؤال أو اذلال أو تعب . وكذلك يقول في سورة المعارج :

« وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ ، وَالَّذِينَ هُمْ بِشَهَادَاتِهِمْ قَائِمُونَ ، وَالَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ ، أُولَئِكَ فِي جَنَّاتٍ مُكْرَمُونَ » .

وهكذا يؤكد القرآن المجيد في أكثر من موطن أن التقوى هي التي توفر لصاحبها فضيلة الكرامة ، لأن التقوى وقاية وقوة ، ومن تدثر بالتقوى صادقا مخلصا اعتز بالله وحده ، وتعالى عن الصغائر والكبائر والقبائح التي لا تليق بكرامته .

والله تبارك وتعالى يمتن على بني الانسان بما حباهم به من الكرامة والتكريم ، والتشريف والتنويه ، فيقول في سورة الاسراء :

« وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدمَ ، وَحَمَلْنَاهُمْ فِي البَرِّ والبَحْرِ ، وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ ، وَفَضَّلْنَاهُمْ على كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلاً » .

يقول أهل التفسير : كرمناهم بحسن الصورة ، والمزاج الاعدل ، والتمييز بالعقل ، والافهام بالنطق والاشارة والحظ ، والاهتداء الى أسباب المعاش والمعاد ، والتسلط على ما في الارض ، والتمكن من الصناعات ، وانسياق الأسباب والمسببات العلوية والسفلية ، الى ما يعود عليهم بالمنافع ، الى غير ذلك مما يقف الحصر دون احصائه .

ومن ذلك ما ذكره عبدالله بن عباس رضي الله عنهما ، وهو أن كل حيوان يتناول طعامه بفمه ، الا الانسان ، فانه يرفعه اليه بيده .

وكذلك حمل الله بني آدم على الدواب وغيرها من المركوبات في البر ، وحملهم في البحر على السفن باختلاف أنواعها ، ورزقهم من الطيبات المستلذات ، مما يكون بفعلهم أو بغير فعلهم ، وفضّلهم على كثير من المخلوقات بالغلبة والاستيلاء ، أو بالشرف والكرامة .

وقيل أيضا في تفسير هذه الآية : كرمنا الانسان بحسن الصورة واعتدال القامة والعقل ، فاهتدى الى الصناعات ومعرفة اللغات ، وحسن التفكير في وسائل المعاش ، والتسلط على ما في الارض ، وتسخير ما في العالم السفلي والعلوي ، وحملناهم على الدواب والقاطرات والطائرات والسفن وغيرها ، (وخلقنا لهم من مثله ما يركبون) ، ورزقناهم من الطيبات والاغذية النباتية والحيوانية ، وفضلناهم على كثير من المخلوقات

بالتغلب والشرف والكرامة .

أليس الواجب أمام هذا التكريم الالهي العظيم ، أن يكون الانسان كريماً على نفسه وعلى الناس ، فيجمّل ذاته بفضيلة الكرامة ، ويحصن ذاته ضد كل ما لا يليق به في قول او عمل ؟. ان الكرامة هبة اللـه للانسان ، فواجب عليه ان يصون هبة الرحمن . ان الله تعالى هو الذي أعطى الكرامة، وكسا حللها الاخيار من عباده . وهو سبحانه يدعو عباده الى أن يظهروا أثر نعمة الله وكرامته ، ويبشر هؤلاء العباد المستجيبين بتكريم من اللـه ونعيم مقيم .

ولكن الكثير من الدهماء لم يصونوا النعمة ، ولم يقدروا الكرامة، فالله تعالى قد خلقهم في أحسن تقويم ، ولكنهم بلؤمهم وتمردهم . انحطوا الى أسافل سافلين ، الا من رحم الله .

« لَقَدْ خَلَقْنَا الإِنْسانَ في أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ، ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سافِلِينَ . إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ » .

ويعود القرآن ليؤكد هذا فيقول في سورة الانفطار :

« يا أَيُّها الإِنْسَانُ ما غرَّكَ بِرَبِّكَ الكرِيمِ ، الَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّاكَ فَعَدَلَكَ ، في أَيِّ صُورَةٍ ما شَاءَ رَكَّبَكَ » .

كذلك يقول القرآن في سورة الفجر :

« فَأَمَّا الإِنْسَانُ إِذا مَا ابْتَلاهُ رَبُّهُ فَأَكْرَمَهُ وَنَعَّمَهُ فَيَقُولُ

رَبِّي أَكْرَمَنِ ، وأَمَّا إذا ما ابْتَلاهُ فَقَدرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ ، فَيَقُولُ رَبِّي أَهانَنِ ، كَلاَّ بَلْ لاَ تُكْرِمُونَ اليَتِيمَ ... » .

والمعنى أن الانسان لا يهمه الا الدنيا ولذتها ، فاذا ما اختبره ربه بالغنى واليسر ، فأكرمه ونعمّه بالجاه والمال ، فان الانسان يقول : ان ربي كرمني ، أي فضلني بما أعطاني ، وأما اذا اختبره بالفقر والتقتير ، فانه يقول : ربي أهانني ، وذلك لقصور نظره وسوء تفكيره ، لأن التقتير في المال قد يؤدي الى كرامة الدارين ، والتوسعة قد تؤدي الى الانهماك في حب الشهوات وايثار الملذات على الطاعات والقربات .

والقرآن يلفت أبصارنا وبصائرنا الى أن الكرامة اذا فقدها الانسان من جهة ربه تبارك وتعالى ، فانه لن يستطيع أن يحصل عليها من جهة اخرى ، فيقول في سورة الحج :

« وَمَنْ يُهِنِ اللهُ فَما لَهُ مِنْ مُكْرِمٍ ، إِنَّ اللهَ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ » .

أي من يهينه الله بالشقاوة والذلة لا يوجد له من يعزه بالقوة والسعادة ، ان الله يفعل ما يشاء من الاكرام والاهانة . وهؤلاء أقوياء كتب الله عليهم الشقوة بعد العزة ، فماذا كانت النتيجة ؟. كانت كما قال القرآن في سورة الشعراء :

« فَأَخْرَجْنَاهُمْ مِن جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ، وَكُنُوزٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ » .

أو كما قال في سورة الدخان :

« كَمْ تَرَكُوا مِن جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ، وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ » .

أو كما قال عن الكافر في السورة نفسها :

« ذُقْ إِنَّكَ أَنْتَ العَزِيزُ الكَرِيمُ » .

يقول له ذلك على سبيل السخرية والتهكم ، فقد صار مدعي العزة والشرف أذل الاذلاء وأشقى الاشقياء .



هذا وقد جاء في السنة المطهرة ما يؤكد أن الكرامة حق الكرامة في الايمان والتقوى . فجاء الحديث : « كرم الرجل دينه » . وقيل للنبي مَن أهل الكرم يا رسول الله ؟. فأجاب : مجالس الذكر في المسجد . وسئل النبي عليه الصلاة والسلام : أي الناس أكرم ؟. قال : أكرمهم عند الله أتقاهم . قالوا : ليس عن هذا نسألك . قال : فأكرم الناس يوسف نبي الله ابن نبي الله ابن خليل الله . قالوا : ليس عن هذا نسألك . قال : فعن معادن العرب تسألونني ؟. قالوا : نعم . قال : فخيارهم في الجاهلية خيارهم في الاسلام اذا فقهوا .

وكذلك قال رسول الله صادقا مصدوقا : « أنا أكرم الاولين والآخرين » .

وهناك أشياء كثيرة يحسبها أهل الجهل ضد الكرامة ، مع انها من صميمها ، فالرجوع الى الحق بعد معرفته من صميم الكرامة ، والخضوع لهذا الحق مهما كان مرا من صميم الكرامة ، وترك التمادي في الباطل من صميم الكرامة ، والتزام العدل مع الصديق والعدو من صميم الكرامة.

والتواضع في مواطنه السليمة من صميم الكرامة ، وعدم الشماتة بمن حاربته الاقدار من صميم الكرامة ... وهكذا .

يا رب ، يا معز كل كريم ، ومذل كل لئيم ، خذ بنواصينا الى طريق الكرامة ، لنحيا حياة الكرام الاعزاء .

الفهرست